

جان بيير فيرنان

الكون والآلهة والناس

حكايات التأسيس الإغريقية

ترجمة
محمد وليد الحافظ

الأهالي

الكون والآلهة والناس

حكايات التأسيس الإغريقية

* الكون والآلهة والناس: حكايات التأسيس الإغريقية
* تأليف: جان بيير فيرنان
* ترجمة: محمد وليد الحافظ
* الطبعة الأولى ٢٠٠١

Jean Pierre Vernant
L'Univers, Les Dieux, Les Hommes
Récits grecs des origines

Livre publié en collaboration avec
Le Ministère français des Affaires Etrangères
Et les Services Culturels
de l'Ambassade de France en Syrie

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع
وزارة الخارجية الفرنسية وقسم الخدمات الثقافية
في السفارة الفرنسية في سورية

الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق - ص.ب: ٩٥٠٣ - فاكس: ٦٦٦٧٥٤٩
هاتف: ٦٦٢٤٤٤٧ - تلكس: ٤١٢٤١٦
بريد الكتروني: ahali@cyberia.net.lb

Al Ahali printing Publishing & Distribution
Syria - Damascus - P.O.Box: 9503 - Fax: 6667549
Tel: 6624447 - Tlx: 412416 sy
Email: ahali@cyberia.net.lb

رقابة: ٦٠٢٤٨

جان بيير فيرنان

الكون والآلهة والناس

حكايات التأسيس الإغريقية

ترجمة

محمد وليد الحافظ

الأهـالي

العنوان الأصلي للكتاب بالفرنسية:

JEAN - PIERRE VERNANT
L'Univers, Les Dieux, Les Hommes
Récits grecs des origines

تمهيد

«كان ذاتَ مرة» كان هذا هو العنوانَ الذي فكرت في البداية أن أجعله لهذا الكتاب. ثم قررت أخيراً أن أضع محله عنواناً أكثر وضوحاً. ولكني لا أستطيع، وأنا على عتبة البحث، أن أمنع نفسي عن استحضار الذكرى التي كان العنوانُ الأول صداها، والتي كانت أصل هذه النصوص.

قبل ربع قرن، عندما كان حفيدي طفلاً يُمضي عُطلاته معي ومع زوجتي، توطدت بيننا قاعدةٌ لامناصَ منها مثلما يدخل المرء الحمام ويتناول الوجبات. ففي كل مساء عندما تحين الساعة ويخلد جوليان إلى سريره كنت أسمعه يناديني من غرفته، وغالباً مع شيء من نفاد الصبر «جان بيير. القصة، القصة!» فكنت أذهب لأجلس قربه وأروي أسطورة إغريقية. وكنت أغترف دون عناء من قائمة الأساطير التي كنت أمضي وقتي في تحليلها ودراسة أدقِّ تفصيلاتها ومقارنتها وتأويلها في محاولة لفهمها، ولكني كنت أنقلها إليه فجأة بوجه آخر كما تَرِد إلى ذهني على طريقة حكايات الجنِّ دون همٍّ آخر سوى أن أتابع في خلال سردي، ومن البداية إلى النهاية، خيطَ الحكاية في توترها الدرامي: كان ذات مرة...

كان جوليان يبدو سعيداً بالإصغاء، وكنت كذلك. كنت أستمتع بأن أنقل من فمي إلى أذنه مباشرة شيئاً من هذا العالم الإغريقي الذي تعلقت به، والذي يبدو لي أن بقاءه حياً في داخل كلٍّ منّا في عالم اليوم أكثرُ ضرورةً من أيِّ وقتٍ مضى.

وكان يسرني أن هذا التراث يصله شفهياً بالطريقة التي يسميها أفلاطون «حكايات المرضعة»، وبطريقةٍ ما ينتقل من جيل إلى آخر بعيداً عن كل تعليم رسمي، ودون أن يعبر الكتبَ، ليؤلف عُدّة للسلوك والمعارف تشبه ما يُلحق بالكتب دون أن يدخل في عدادها، بدءاً من قواعد الأدب في الكلام والسلوكِ والأخلاقِ وتقنيات الجسم وأساليب المشي والسباق والسباحة والدراجات والتسلق.

يقيناً كان الاعتقاد بأني أُبقي على قيد الحياة موروثاً من الخرافات الموغلة في الزمن، عن طريق روايتها بصوتي كل مساء لطفل، يتضمن كثيراً من السذاجة.

لكنها كانت حقبةً كما نتذكر ـ أتكلم على أعوام السبعينات ـ تندفع فيها الأسطورة في طريق النجاح، فقد كانت حمّى الدراسات الأسطورية قد كسبت إلى صفّها بعد دوميزيل Dumzil وليفي شتراوس Lvi- Strauss قرابةَ خمسةٍ وعشرين من علماء الأدب واللغة الإغريقيين تحركوا معي لاكتشاف العالم الخرافي لليونان القديمة. وكلما تقدمنا وتطورت تحليلاتنا، كان وجود فكر أسطوري بشكل عام يصبح أكثر إشكالية، وننساق إلى أن نسأل أنفسنا: ما معنى أسطورة؟ وبشكل أكثر تحديداً آخذين بالاعتبار ساحة بحثنا: ما الأسطورة الإغريقية؟ أهي حكاية؟ بالتأكيد. وكذلك يجب أن نعرف كيف تأسست هذه الحكايات وانتقلت وحُفظت. وعلى هذا ففي الحالة الإغريقية لم تصلنا إلا في نهاية مسيرة، على شكل نصوص ينتمي أقدمها إلى أعمال أدبية من كل الأجناس: الملحمة والشعر والمأساة والتاريخ، وحتى الفلسفة.

و تتمثل الأسطورة فيها غالباً مشتتة بطريقة مقطّعة وأحيانا تلميحية باستثناء الإلياذة Illiade والأوديسة odyssée وتيوغونيا دوهزيود Thogonie d'hésiode (الأسرة المقدسة الإلهية وأصولها: المترجم)، و في وقت متأخر فحسب، لتقديمها موحدة في مجموعة نصوصٍ واحدة مرتبةٍ الواحدةَ تِلْوَ الأخرى، كما لو على رفوف مكتبة لتأخذ ثانية العنوان الذي أعطاه بالضبط أبولودور Apollodore للائحته التي أصبحت أحد المؤلفات الكلاسيكية الكبيرة في موضوعها. وهكذا تأسس ما يمكن أن يسمى «الميثولوجيا الإغريقية».

إن الأسطورة Mythe وعلم الأساطير Mythologie هما حقاً كلمتان يونانيتان ترتبطان بتاريخ هذه الحضارة وبعضِ ملامحها؛ فهل يجب أن نستنتج من هذا أن صلتهما بالموضوع ليست وثيقة خارج هذه الحضارة، وأنهما لا توجدان إلا بالشكل والمعنى الإغريقيين؟ إن العكس هو الصحيح، فالخرافات الهيلينية تتطلب، لتكون هي نفسُها مفهومة، أن تقارَن بالحكايات الموروثة لشعوب أخرى تنتمي إلى ثقافات وعصور مختلفة جداً، أعني شعوب الصين والهند والشرق الأدنى القديمة، أو شعوب أمريكا قبل أن يكتشفها كولومبوس، أو شعوب أفريقيا. وإذا كانت المقارنة تفرض نفسها فلأن بين هذه الموروثات السردية، مهما كانت مختلفة، وبين الحالة الإغريقية، ما يكفي من النقاط المشتركة لنقيم بينها علاقات قرابة. وسيتمكن كلود ليفي شتراوس أن يؤكد، كبديهية ثابتة، أن أسطورة ما، أياً كان مصدرها، يمكن أن تجد هويتها الخاصة بها دون المخاطرة بأن تلتبس بالأشكال الأخرى للحكاية. والفارق ملحوظ جداً

بينها وبين الحكاية التاريخية التي تأسست في بلاد الإغريق ضد الأسطورة على نحو من الأنحاء، لأنها أرادت لنفسها أن تكون على علاقة دقيقة بالأحداث القريبة إلى حدٍ ما في الزمن لتستطيع شواهدُ موثوقةٌ تأكيدَها. أما الحكاية الأدبية فإن المقصود بها هو التخييل الصِرْف الذي يعدُّ نفسَه صراحة هو الحكاية، والتي تتعلق ميزتها قبل كل شيء بموهبةِ مَن وضَعَها ومهارتِه. وهذان النموذجان من الحكاية يُنسبان عادة إلى مؤلف يتحملِ مسؤوليتها، ويوصِلها تحت اسمه، وتحت شكل من أشكال الكتابة إلى جمهور من القُرّاء.

وكل ما كان غير ذلك فهو الأسطورة، فإنها تتمثل في شكل حكاية قادمة من أعماق العصور، وربما كانت سابقاً في تلك الأعماق قبل أن يقتطع راوٍ ما الجانبَ السردي منها. وفي هذا المعنى لا تقوم الحكاية الأسطورية على الإبداع الشخصي، ولا على الفانتازيا الخالقة، بل على النقل والذاكرة. وهذه العلاقة الوظيفية الحميمة بالتذكر تقرِّب الأسطورة من الشعر الذي يمكن أن يختلط أصله في تجلياته الأكثر قدماً بمسيرة تأسيس الأسطورة. وحالة الملحمة الهوميرية معبّرة في هذا الصدد. فالملحمة تتَّبع أولاً، من أجل أن تنسج حكاياتها حول مغامرات الأبطال الخرافيين، نموذج الشعر الشفهي الذي تؤلفه وتغنّيه أمام المستمعين أجيالٌ متتابعة من الشعراء المنشدين الذين تلهمهم ربّة الذاكرة Mémoire، ولم يحظَ إلا في وقت متأخر بالتدوين الذي كُلّف بتأسيس النص الرسمي وكتابته. وإلى اليوم لا وجود للقصيدة ما لم تكن منطوقة، ويجب حفظها عن ظهر قلب، ويجب أن ينشدها المرء بنفسه بكلمات صامتة من الحديث الداخلي لمنحها الحياة. ولا تكون الأسطورة كذلك حيّة إلا إذا كانت لا تزال تُروى من جيل إلى جيل عبر الوجود اليومي. وإلا تحولت، وقد نُحّيت إلى ظلمات المكتبات وجمّدت على شكل كتابات، إلى مرجع علمي لنخبة من المتخصصين في الميتولوجيا.

ذاكرة، مشافهة، موروث: هذه هي شروط وجود الأسطورة وبقائها. فإن هذه الأمور الثلاثة تفرض عليها بعضَ الملامح الخصائصية التي تَظهر بمزيد من الوضوح إذا تابعنا المقارنة بين النشاط الشعري والنشاط الأسطوري. ويُبرز الدور الذي ينيطه كلّ منهما بالكلام اختلافاً أساسياً. ومنذ أن غدا الشعر في الغرب مستقلاً مع الشعراء الجوالين، ومنذ أن انفصل، لا عن الحكايات الأسطورية العظيمة فحسب، بل كذلك عن الموسيقى التي كانت تصاحبه حتى القرن الرابع عشر، وتأسَّس في ساحة مخصوصة من التعبير باللغة، تؤلف كل قصيدة مذ ذاك بناءً متفرداً متعدد الجوانب

جداً، متعدد المعاني حقاً، لكنه منظَّم تنظيماً دقيقاً ومترابِط جداً في أجزائه المختلفة وعلى جميع مستوياته لتكون محفوظة في الذاكرة ولتُنشَد كما هي دون أن يُحذف شيء منها أو يتغيّر. تبقى القصيدة هي هي عبر كل الأدوات التي تخرجها إلى حيّز الواقع في المكان وفي الزمان. وللكلام الذي ينفخ الحياة في النص الشعري، سواءٌ كان جهراً أم مناجاة ذاتية، صورةٌ موحدة وثابتة، فإذا تحولت كلمةٌ أو سقط بيتٌ أو انزاح إيقاعٌ انهار الصرحُ الشعري كله.

والحكاية الأسطورية، خلافاً لذلك، ليست متعددة المعاني في ذاتها بفضل جوانبها المتعددة الدلالات كالنص الشعري فحسبُ، بل إنها ليست مثبتة في صيغة نهائية، وتتضمن دائماً كثيراً من التغييرات والروايات المتعددة التي يجدها الراوي في متناول يده، ويختار منها حسب الظروف والجمهور وحسب اختياراته، ويمكن أن يقتطع منها أو يضيف ويحوّر إن بدا له ذلك حسناً. وما دام موروث شفهي من الخرافات حيّاً، وما دام على اتصال مباشر بطرائق التفكير وبأخلاق جماعة ما، فإنه يتحرك: تبقى الحكاية مفتوحة جزئياً على الإبداع. وعندما يجدها عالم الميتولوجيا في نهاية الأمر ثابتة كالأحفورة في كتابات علمية وأدبية، كما قلت عن الحالة الإغريقية، فكل خرافة تُلحّ عليه، إن أراد فكَّ رموزها فكاً صحيحاً، أن يتوسع ببحثُه درجة درجة: من إحدى رواياتها إلى كل الروايات الأخرى التي تصب في الموضوع نفسه مهما كانت صغيرة، ثم إلى حكايات أسطورية أخرى قريبة أو بعيدة، بل إلى نصوص تخص قطاعات أخرى من الثقافة نفسها: أدبيةٍ، علمية، فلسفية، ثم أخيراً إلى روايات مماثلة لحضارات بعيدة. إن ما يهم المؤرخ والأنتروبولوجي هو الخلفية العقلية التي يشهد عليها خيط السرد والإطار الذي نُسج عليه، وهذا ما لا يمكن كشفه إلا عبر مقارنة حكايات بِحُكم تباعداتها وتشابهاتها. وتنطبق في الواقع على مختلف الميتولوجياتِ الملاحظاتُ التي صاغها جاك روبو Jacques Roubaud بنجاح، والتي تخص القصائد الهوميرية مع عنصرها الخرافي: «ليست حكاياتٍ فقط، بل تحتوي على كنوز الفكر والصيغ اللغوية والتخيلات الكونية والتعاليم الأخلاقية... التي تؤلف الميراث المشترك لإغريق العصر ما قبل الكلاسيكي»[1].

ويمكن للباحث في عمله التنقيبي لإبراز هذه الكنوز الكامنة وهذا الميراث العام

1 - Jacques Roubaud, poésie, Mémoire, Lecture, Paris - Tubingen, Eggingen, Editions, coll. (Les conférences du Divan), 1988, p.10.

للإغريق أن يعاني أحياناً شعوراً بالكبت كما لو كان قد فقد في غمرة بحثه رؤية «اللذة القصوى» التي كان يبتهج بها لافونتين La Fontaine نفسُه مسبقاً «إن رويت له حكايات أطفال».

كنت سأجعل من لذة الحكاية هذه التي أثَرتُها في السطور الأولى من هذا التقديم مأتمي، ودون كثير من الحسرة، لو لم يطلب مني الأصدقاء يوماً، بعد ربع قرن من الزمان، وفي الجزيرة الصغيرة نفسها التي كنت أتقاسم فيها مع الصغير جوليان الإجازات والسرد، أن أروي لهم الأساطير الإغريقية، وهذا ما فعلته. إذن ألزموني بما يكفي من الإلحاح ليقنعوني أن أثبت كتابةً ما كنت قد رويته لهم. ولم يكن هذا العبور من الكلام إلى النص المكتوب سهلاً، لا لأن الكتابة تجهل ما يعطي للحكاية الشفهية اللحم والحياة وهو الصوتُ والنبرة والإيقاع والحركة فحسب، بل لأن خلف هذين الشكلين من التعبير أسلوبين مختلفين من التفكير؛ فعندما يعاد على الورق تقديم نص شفهي كما هو فإن النص لا يثبت. وعلى العكس عندما يدوَّن النص أولاً بالكتابة فإن قراءته بصوتٍ عالٍ لا تخدع أحداً فهو خارج عن المشافهة. وتضاف إلى هذه الصعوبة الأولى،و هي الكتابة كما يُنطق، صعوباتٌ أخرى؛ إذ يجب أولاً اختيار رواية، وهذا يعني إهمالَ تنوعات الرواية ومحوَها والإغضاء عنها. وفي الطريقة نفسها لسرد الرواية المتبناة يتدخل الراوي شخصياً، ويجعل من نفسه مفسراً، نظراً إلى أنه ما من نموذج محدد بشكل نهائي للسيناريو الأسطوري الذي يعرضه. وبالإضافة إلى ذلك يمكن للباحث أن ينسى عندما يجعل نفسه راوية أنه هو الآخر عالم يبحث عن الأساس العقلي للأساطير، وأنه في حكايته سيحقن الأسس المتعلقة بالدلالات التي قاست له دراساتُه السابقة أوزانهَا.

لم أكن أجهل هذه العقبات ولا هذه المخاطر، ومع ذلك فقد حثثت الخُطا، وحاولت أن أروي كما لو كان موروثُ هذه الأساطير ما يزال قادراً على الخلود. والصوت الذي كان يتوجه في السابق مباشرة وطوال عدة قرون إلى المستمعين الإغريق والذي صَمَتَ، أريد له أن يسمعه من جديد قرّاء اليوم. وإني، وإن بلغته في بعض الصفحات من هذا الكتاب، فهذا الصوت على شكل صدى هو الذي يستمر في الرنين.

أصل الكون

ماذا كان يوجد عندما لم يكن هناك بعدُ شيءٌ ما، عندما لم يكن أيُّ شيء؟ على هذا السؤال أجاب اليونان بحكايات وأساطير.

قبل كل شيء كان ما وجد أولاً هو فَغْر Béance، وهو ما يسميه الإغريق كاوس *Chaos*، فما هو الفغر؟ إنه خواءٌ، خواءٌ مظلم لا يمكن تمييز شيء فيه، فراغُ السقوط والدوار والغموض بلا نهاية ولا قاع. وقد ابتُلِعنا بهذا الخواء كما بفتحة فم حيواني واسع حيث يمكن أن يُبتلع كل شيء حتى في ليلة ليلاء واحدة. إذن ليس في الأصل إلا هذا الفغرُ، الهاويةُ العمياء الليلية اللامحدودة.

ثم ظهرت أرض، يسميها الإغريق جيا *Gaia*، ومن رحم الفغر نفسه انبثقت أرض. هاهي إذن وقد وُلدت بعد *كاوس ممثلةً* نقيضَتها من بعض النواحي.لم تعد أرض هذا الفضاءَ من السقوط المظلم اللامحدود اللامتناهي؛ فإن لها شكلاً مميّزاً محدَداً. ويقابل نقاءُ جيا وصلابتها وثباتها غموضَ كاوس وإبهامها المعتم؛ فكل شيء على الأرض مرسومٌ ومرئيٌ وصلب. ويمكن تعريف جيا بأنها هي التي يمكن للآلهة والناس والحيوانات أن تمشي فوقها بأمان، إنها أرضية العالم.

في باطن الأرض: الفغر

أمّا وقد وُلد العالم من الفغر الواسع فقد أصبح له من الآن فصاعداً أرضيةٌ. وترتفع هذه الأرضية من جهة نحو العلاء على شكل جبال، ومن جهة أخرى تنغرز نحو الأسفل على شكل سرداب. ويمتد هذا السرداب بلا نهاية بحيث إن ما يوجد بطريقة ما في قاعدة جيا تحت الأرض الثابتة والصلبة هو الأرض، وقد انبثقت من رحم الفغر وتتعلق به في أعماقه بطريقة ما. ويمثل هذا الخواء لدى الإغريق نوعاً من الضباب الكثيف حيث كلُ الحدود مختلطةٌ. وفي أعمق أعماق الأرض يوجد ثانية هذا المظهر الخوائي الأصلي.

ورغم أن الأرض مَرئيّة، لها شكل مقسّم إلى قطع، رغم هذا كلّه ستبقى شبيهة في أعماقها بالخواء، فإنها الأرض السوداء. والصفات التي تعرّفها في الحكايات يمكن أن

تشبه تلك التي تقال عن الخواء. تمتد الأرض السوداء بين الأسفل والأعلى، بين الظلمة والانغراس في الخواء اللذين يمثلان أعماقها من جهة، ومن جهة أخرى بين الجبال المكللة بالثلج الذي تقذفه نحو السماء، الجبالِ المضيئة التي تبلغ ذراها الأكثرُ علواً هذه المنطقةَ من السماء المغمورةِ دوماً بالضياء.

في هذا المُقام الذي هو الكون تؤلف الأرضُ القاعدةَ، ولكن وظيفتها لا تقتصر على هذه، فهي تلد وتغذي كل شيء إلا بعض الكائنات التي لا هوية محددة لها (Entité)، والتي سنتكلم عليها فيما بعد، والتي خرجت من العماء.

جيا هي الأم الكونية؛ فالغابات والمغاور تحت الأرض وأمواج البحار والسماء الواسعة كلّها ولدتها الأرض الأم. إذن كان هناك في البدء الفغرُ، الفمُ الواسع على هيئة حفرة مظلمة دون حدود، ولكنها تنفتح في زمنٍ ثانٍ على قاعدة صلبة هي الأرض، وهي التي تنقذف نحو الأعلى، وتنزل نحو الأسفل.

وبعد خواء وأرض يظهر في المقام الثالث ما يسميه الإغريق إيروس *Eros* وما سيسمونه فيما بعد بالحب القديم الذي يُمثَّل في الصور بشَعر أبيض. إنه الحب البدئي؛ لماذا هذا الحب البدئي؟ لأنه لم يوجد بعدُ في تلك الأزمنة السحيقة ذكرٌ وأنثى، وكائناتٌ جنسية. وليس هذا الإيروسُ هو الذي سيظهر فيما بعد مع وجود الرجال والنساء،و الذكر والأنثى. ومذ ذاك ستكون المشكلة هي مزاوجة الأجناس المتضادة، وهي تنطوي بالضرورة على الرغبة من كل جانب، أي على شكل من الرضا.

خواء إذاً بلا جنس، و ليس مذكراً. أما *جيا* الأرض الأم فهي مؤنثة بداهة؛ ولكن لما كانت وحيدة تماماً مع الخواء فمَن تستطيع أن تحب خارجٍ ذاتها؟ إن الإيروس الذي ظهر في المقام الثالث بعد الخواء والأرض ليس إذن لبدءٍ ما ينظم علاقاتِ الحب المفضيةَ إلى التناسل، إذ يعبّر الإيروس الأول عن اندفاعة في الكون، وبنفس الطريقة التي انبثقت فيها أرض من خواء سيتفجر من أرض ما تحتويه في أعماقها. وما كان في داخلها ممزوجاً بها سيوجد محمولاً إلى الخارج؛ إذ ستلدها دون حاجة إلى اتصال جنسي بأحد. وما تطلقه أرض وتكشف عنه هو نفسُه ما كان في داخلها على نحو مبهم.

تلد الأرض أولاً كائناً مهماً جداً هو أورانوس Ouranos، أي السماء، بل هي السماء ذات النجوم. ثم تلد بونتوس Pontos أي الماءَ، كلَّ المياه، وبمزيد من الدقة الموجَ البحري نظراً إلى أن الاسم الإغريقي للماء مذكر. إذن تحبل الأرض بهما دون أن تجامع أحداً. ومنذ اللحظة التي تخرجه فيها يصبح ضِدَّها ونقيضها؛ لماذا؟ لأنها تنتج

سماءً ذات نجوم مساويةً لها، كنسخة تكافئها صلابة وثباتاً، ومن قامتها نفسها. وحينذاك يتمدد أورانوس فوقها، وسيؤلف أرض وسماء سطحين منضَّدين متقابلين للكون، أرضيةً وقبّة، وأسفلَ وأعلى يغطي أحدهما الآخر تغطية كاملة.

و عندما تلد أرضُ بونتوسَ، ماءَ البحر، يتكامل معها وينساب إلى داخلها، ويحدّها في شكل منبسطات سائلة واسعة. إن ماء البحر يمثل كأورانوس نقيضَ أرض؛ فإذا كانت الأرض صلبة متماسكة ولا تستطيع الأشياء الامتزاج بها؛ فماء البحر، على نقيضها، ليس إلا ميوعة وسيولة بلا شكل، وعصيّاً على الإمساك، تمتزج مياهه ملتبِسة غير محدودة وغير متمايزة. وبونتوس منيرٌ سطحُه لكنه في أعماقه مظلم ظلاماً مطلقاً، وهو ما يجعله معلقاً كأرض بجهة خوائية.

و هكذا يبنى العالم انطلاقاً من ثلاثة كائنات بدئية: كاوس وجيا وإيروس، ثم من جوهرين ولدتهما الأرض، وهما أورانوس وبونتوس، وهي قدرات طبيعية وألوهات؛ فجيا التي نمشي عليها هي إلهة في الوقت نفسه، ويمثل بونتوس مياهَ البحر ويؤلف أيضاً قدرة إلهية تعود إليها عبادةٌ ما. وانطلاقاً من ثمّ ستتشبَّث حكاياتٌ من نموذج آخر، وقصصٌ عنيفة ومأساوية.

خِصاء أورانوس:

لنبدأ بسماء. ها هو إذن أورانوس الذي ولدته جيا والذي يساويها قامةً؛ إنه نائم مسترخٍ فوق مَن أنجبَتْه. يغطي سماء أرض كاملةً، وكلُّ جزء من أرض تزاوجه قطعةٌ من سماء تلتصق بجلده. ومنذ أن ولدت الإلهةُ الكليةُ القدرةِ، الأرضُ الأمُ، أورانوسَ الذي كان مطابقها بالضبط وتضعيفها وصِنْوَها المُناظر لها، من ذلك الوقت نجد أنفسنا أمام زوج من الأضداد: ذكرٍ وأنثى. فأورانوس هو السماء المذكر كما أن جيا هي الأرض الأنثى، فما إن يحضر أورانوس حتى يؤدي حُـبّ دورَه بطريقة مختلفة؛ إذ لم تعد جيا هي التي تنتج بنفسها ما تحمله في داخلها، ولا أورانوس ما يحمله في داخله، بل تُولَد من الاتصال بين هاتين القدرتين الكليتين كائناتٌ يختلف أحدها عن الآخر.

لا ينِي أورانوس يندفق في رحم جيا، وليس لأورانوس البدئي من نشاط إلا النشاطُ الجنسي: تغطيةُ جيا دون انقطاع بقدر ما يستطيع، لا يفكر إلا بها، ولا يفعل غير الاتصال بها. وهكذا تجد أرض المسكينة نفسها حُبلى بسلسلة كاملة من الأطفال الذين لا يستطيعون الخروج من رحمها، فيبقون مستقرين حيث زرعهم أورانوس. ولما كان سماء لا ينفصل البتة عن أرض لم يكن بينهما فضاء يتيح

لأولادهما التيتانات Titans الخروجَ إلىالضوء وامتلاك كيان مستقل. ولما لم يكن بمقدور هؤلاء التيتانات أن يتخذوا الشكل الذي للسماء لم يستطيعوا أن يصبحوا كائنات متفردة لأنهم محشورون كليّةً في رحم جيا، تماماً كما حضنت جيا أورانوسَ نفسَه قبل ولادته.

من هم أطفال جيا وأورانوس؟ هناك أولاً ستة من التيتانات الذكور وستّ من أخواتهم التيتانات الإناث.

والأول بين التيتانات يسمى أوقيانوس Okéanos وهو هذا الحزام السائل الذي يحيط بالكون، يدور في حلقة بحيث تكون نهايته هي أيضاً بدايته؛ وهكذا يدور النهر الكوني في دائرة مغلقة على نفسها. وأصغر التيتانات سناً هو كرونوس Cronos ويدعى «كرونوس ذا الأفكار الماكرة». وخارج نطاق التيتانات الذكوروالإناث تولد ثلاثيتان فظيعتان من الكائنات الأمساخ: الثلاثية الأولىهي السيكلوبات Cyclopes برونتيس Brontés وستيروبيس Stéropés وأرجيس Argés، وهي كائنات فائقة القدرة ليس لها إلا عين واحدة، وتُفصِح أسماؤها بما يكفي عن جنس العِدانة الذي يهيّئون أنفسَهم له: دويّ الرعد ووميضِ البرق. وهم في الحقيقة من سيصنعون الصاعقة ليقدموها إلى زيوس Zeus. والثلاثية الثانية تتألف ممن يسمَّون بالهيكاتونشير Hekatonchires، أي الأذرع المئة، وهم غوتوس Gottos وبرياريه Briarée وجييس Gyés. وهي كائنات رهيبة ذات قامات هائلة، لها خمسون رأساً ومئة ذراع، وقد منحت كل ذراع قوة رهيبة.

وإلى جانب التيتانات الأوائل، تلك الآلهة الأولى المتفردة ـ لم تكن قد أخذت أسماءها ببساطة من قدرات طبيعية كجيا أو أورانوس أو بونتوس ـ تمثل السيكلوبات ومْضَ النظر. إن لها عيناً وحيدة تتوسط الجبين، ولكن هذه العين صاعقة كذاك السلاحِ الذي سيقدمونه للتوّ إلى زيوس، وهو القدرة السحرية للعين. ويمثل ذوو الأذرع المئة من جهتهم في عالم القوة الفظة القدرةَ على القهر والاختطاف بفضل القوةِ الطبيعية للذراع؛ قوةِ عين صاعقة لبعضهم، وقدرةِ ذراع قادرة على أن تصل، وتحصر، وتحطم، وتهزم، وتسيطر على كل مخلوق في العالم لبعضهم الآخر. ومع ذلك فالتيتانات وذوو الأذرع المئة والسيكلوبات ما تزال في بطن جيا، لأن أورانوس ما يزال يتمدد فوقها.

والواقع أنه ليس بعدُ ضوءٌ لأن أورانوس يُبقي بإناخته فوق جيا على ليل دائم. تطلق أرض حينئذ العنان لغضبها: إنها مغتاظة من الاحتفاظ في رحمها بأولادها الذين يضيق بهم بطنها، ويضغطون عليها، ويخنقونها لأنهم لا يستطيعون الخروج منها. تتوجه

إليهم، وخصوصاً إلى التيتانات، قائلة: أصغوا إلي: «إن أباكم يهيننا، يُخضِعنا لقهر مريع، يجب أن يتوقف هذا. عليكم أن تـثوروا على أبيكم سماء». يتملك الرعب الشديد التيتانات وهم يسمعون في بطن أمهم هذه الكلمات القاسية؛ إذ لم يكن يبدو لهم أن من السهل قهْرَ أورانوسَ المنيخِ دائماً على أمهم، والذي هو أكبر منهم. ووحده كرونوس المولود الأخير يقبل مساعدةَ جيا ومقارعة أبيه.

تجبل أرض بسطح معقوف عقفاً خاصاً، ولتنفيذ ما عزمت عليه تصنع في داخلها أداة، مِقضباً barpé، تصوغه من الفولاذ الأبيض، ثم تضع هذا المنجل في يد الشاب كرونوس. إنه في بطن أمه، وهناك حيث يضاجعها أورانوس، يترصَّد به ناصباً كميناً له، ولحظةَ يسترخي في جيا يقبض كرونوس بيده اليسرى على الأعضاء الجنسية لأبيه ويمسك بها بقوة، وبالمقضب الذي يمسكه باليد اليمنى يقطعها. ثم، دون أن يعود إلى مكانه، ولتجنّب الشقاء الذي يمكن أن يتسبب فيه فعله، يرمي من فوق كتفه قضيبَ أورانوس.

ومن هذا القضيب المبتور والمرميّ خلفاً تسقط على الأرض قطرات من الدم، في حين أن القضيب نفسَه قد رُمي بعيداً في موج البحر. ويطلق أورانوس في لحظة خصائه زعقة ألم، ويبتعد عن جيا سريعاً، ويتجمد تواً حتى لا يتحركَ من مكانه في أعلى العالم. ولما كان أورانوس يساوي جيا قامةً فليس في الأرض قطعة إلا وفوقها، عندما نطمح بأعيننا، قطعةٌ مساوية من السماء.

الأرض، الفضاء، السماء:

يحقق كرونوس، وقد خصى أورانوس بنصيحة أمه وحيلتها، مرحلةً أساسية في ولادة الكون، فهو يفصل السماء والأرض ويخلق بينهما فضاءً خالياً. وسيكون لكل ما تلده الأرض وما تلده الكائنات الحية مكانٌ يتنسمون فيه ويعيشون. رفع الفضاءُ الحصارَ عن نفسه من جهة؛ ولكن الزمان أيضاً قد تحول. وماتمدَّد أورانوس على جيا لم تتعاقب أجيال؛ فقد كانت تبقى متوارية داخل الكائن الذي كان قد أنجبها. وابتداء من اللحظة التي ينسحب فيها أورانوس تستطيع التيتانات الخروج من الحضن الأمّوي وأن تلد بدورها. وبهذا ينفتح الباب لتعاقب الأجيال.

لقد انفصل الفضاء، وتؤدي «السماء ذات النجوم» الآن دورَ السقف على هيئة ظُلّةٍ مظلمة عظيمة تمتد فوق الأرض. ومن وقت لآخر ستنير هذه السماءُ السوداء لأن الليل والنهار سيتعاقبان منذ الآن، فأحياناًتظهر سماء سوداء لا تنيرها إلاّ النجوم، وأحياناً على النقيض، تنبثق سماء منيرة لا تظللها إلا الغيوم.

لنتركْ لحظةً سلالة أرض، ولنجدْ ثانية سلالة خواء. ينجب الفغْر طفلين يسمى أحدهما إيريبوس Erébos والآخر نوكس Nux، أي الليل.وإيريبوس، بصفته امتداداً مباشراً للخواء، هو السواد المطلق، هو قدرة السواد في حالته الصرفة والذي لا يمتزج بشيء. أما حال الليل فمختلفة، فإنها أيضاً، مثل جيا، تنجب أطفالاً دون مجامعة أحد كما لو أنها تفصّلهم في نسيجها الليلي الخاص، أعني الأثير Aithér، النور الأثيري من جهة، ومن جهة أخرى هيميريه Hémeré، أي النهار، ضوء النهار.

يمثل إيريبيوسُ ابنُ الفغر الظلامَ الخاص بالخواء، أما ليل، فعلى النقيض، يستدعي النهار، فلا ليل دون النهار. وماذا يفعل ليل عندما تنجب الأثير والنهار؟ كما كان إيريبيوسُ الظلامَ في حالته الصرفة فإن الأثير هو النور في حالته المطلقة. الأثير نظير إيريبيوس، فالأثير اللامع هو الجزء من السماء الذي ليس فيه ظلامٌ البتّةَ، الأثيرُ نور حيّ حياةً فذّة لم يقطعه قط أي ظلام. وعلى النقيض يعتمد كل من الليل والنهار على الآخر، ويتباينان في الوقت نفسه. ومنذ أن انفتح الفضاء يتعاقب ليل ونهار بانتظام. وعلى مدخل التارتارTartare توجد أبواب ليل التي تنفتح على مُقامها، وهناك يتمثل نهار وليل بالتعاقب ويصبحان إشارات ويتقاطعان دون أن يتضامّا أو يتماسّا البتة. فعندما يوجد الليل لا يوجد النهار، وعندما يكون النهار لا يكون الليل. ولكن لا ليلَ دون نهار.

وكما يمثّل ايروبوسُ ظلمةً شاملة وفظيعة يجسّد الأثيرُ الضياءَ المطلق. وكل الكائنات التي تعيش على الأرض هي مخلوقات الليل والنهار إلا في حالة الموت، وتجهل هذه الظلمةَ الشاملة التي لا يخترقها أي شعاع من أشعة الشمس والتي هي ليل إيروبوس. ويعيش الناس والحيوانات والنباتات والليل والنهار في هذه العلاقة الاقترانية للمتضادات؛ في حين أن الآلهة، وكلهم في قمة السماء، لا تعرف تعاقب الليل والنهار وتعيش في نور حي دائم. في الأعلى الآلهةُ السماوية في الأثير اللامع، وفي الأسفل الآلهةُ تحت الأرضية أو أولئك الذين قُهِروا وأُرسِلوا إلى التارتار والذين يعيشون في ليل مستمر، ثم الفانون في هذا العالم الذي هو من البداية عالم مختلط.

لنعُدْ إلى أورانوس لنعرف ما الذي يجري عندما يتثبّتُ في أعلى العالم؟ لم يعد يجامع جيا إلا في وقت هطول الأمطار الهائلة المخصبة التي يتدفق فيها وتلد الأرضُ. ويسمح هذا المطر الخيّر للأرض أن تلد مخلوقاتٍ ونباتات جديدة وزروعاً، لكن العلاقة بين الأرض والسماء مقطوعة في الأوقات الأخرى.

كان أورانوس وهو يبتعد عن جيا قد أطلق لعنة رهيبة على أولاده؛ قال لهم «ستسمون التيتانات»، مقيماً جِناساً مع فعل تيتينو titainô، لأنكم مددتم أذرعكم عالياً

أكثر مما ينبغي،وستكفِّرون عن جريمة مدِّ أيديكم على أبيكم». وبعد لحظة وَلدت قطراتُ الدم المتساقطةُ على الأرض من قضيبه المبتورِ الإيريناتِ érinyes، وهي القدرات البدئية التي وظيفتها الأساسية هي عدم نسيان ذكرى الإهانة التي ألحقها قريب بقريبه وجعلِهم يدفعون ثمنها مهما طال الوقت. إنها آلهة الانتقام للجرائم المقترفة بحق أقرباء الأب. وعلى هذا تمثل الإيريناتُ البُغْضَ والذكرى وذاكرة الإثم والإصرار على ضرورة دفع ثمن الجريمة.

و مع الإيرينات، ومن دماء جرح أورانوس، يولد الجبابرة Géants والمليادات Meliai أي حوريات هذه الأشجار العظيمة التي هي شجرة الدردار Nymphes. والجبابرة في الأصل مقاتلون يشخِّصون العنف الحربي؛ فهم، جاهلين الطفولةَ والشيخوخة، يعيشون حياتهم كلها وهم بالغون وفي قوة الشباب، ومنذورون للأعمال الحربية، ويهوون المعارك الطاحنة. أما حوريات الدردار فهنّ محاربات منذورات كذلك للمجزرة لأن قنوات الرماح التي يستخدمها المحاربون في ساحة الوغى مصدرها تحديداً هو الأشجار التي يسكنّ فيها. هكذا إذن تلد قطراتُ دمِ أورانوس ثلاثة نماذج من الشخصيات تجسّد العنف والعقاب والمعركة والحرب والمجزرةَ. ويلخص اسمٌ واحد هذا العنفَ في نظر الإغريق وهو إيريس Eris، الذي يعني خصوماتٍ من كل الأنواع والأشكال، أو الفوضى في داخل الأسرة الواحدة في حالة الإيرينات.

شِقاق وحب:

ماذا يحدث للعضو الذي قذفه كرونوس في البحر؟ إنه لا يغرق في أمواج البحر، بل يعوم ويطفو، ويمتزج زَبَدُ المَنِي بزبد البحر، ومن هذا الاتحاد المزبد حول الجنس الذي يتبدل تبعاً لرغبة الأمواج يتشكل مخلوق بهيٌّ هو أفروديت Aphrodite الإلهةُ التي وُلدت من البحر والزبد. وهي تبحر لبعض الوقت ثم تمشي على جزيرتها قبرص. تمشي على الرمل، وكلما خطَتْ نبتت أغنى الأزهار عطراً وجمالاً تحت خُطاها. وفي أثناء عبور أفروديت يتقدم خلفها إيروس وهيميروس Himéros، أي الحب والرغبة. وليس إيروسُ هذا هو إيروسَ الأولي بل هو إيروسٌ يقتضي منذ الآن وجود الذكر والأنثى. ويقال أحياناً إنه ابن أفروديت. إذن غيّر إيروسُ هذا وظيفتَه فلم يعد دوره، كما كان في بداية الكون، أن يوصِل ما يتضمنه ظلام القدرات البدئية إلى النور، بل توحيدَ كائنين متفردين من جنسين مختلفين في عملية جنسية تفترض حُسْنَ التخطيط Stratégie للوصال، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من إغراء ووفاق وغيرة. يوحِّد إيروس

كائنين مختلفين ليولد من بينهما كائن ثالث لا يتطابق مع أيٍّ من اللذين أنجباه ولكنه امتداد لهما، فعندنا الآن إذن خلقٌ يختلف عن خلق الزمن البدئي. وبتعبير آخر أسس كرونوس، بقطعه قضيب أبيه، قدرتين متكاملتين في نظر الإغريق تدعى إحداهما إيريس، أي الخصام، والثانية إيروس، أي الحب.

إيريس هي المعركة في نطاق الأسرة نفسها أو في نطاق جنس بشري واحد، وهو الخصام والشقاق في القلب لِما كان واحداً. وإيروس بالعكس، هو الوفاق والوحدة بين ما لا يزال متنافراً، كالذي يمكن أن يوجد بين الذكر والأنثى. إيريس وإيروس كلتاهما نتاج العملِ التأسيسي نفسِه الذي فتح الفضاء وفكَّ الحصار عن الزمن، وسمح للسلالات المتعاقبة أن تنبثق على مسرح العالم المفتوح الآن.

وستتجابه هذه الشخصيات الإلهية بالإضافة إلى إيريس من جهة وإيروس من جهة أخرى الآن، وستتحارب. ولكن لماذا تتحارب؟ لتحديد سيد هذا الكون، أكثرَ مما هو لتأسيس الكون الذي أرسيت أُسسه قبلُ. من سيكون الحاكم فيه؟ وبدلاً من حكاية كونية تطرح الأسئلة التالية: ماهي بداية العالم؟ لماذا كانت الهاوية أولاً؟ كيف صُنع كل ما يضمه الكون؟ بدلاً من هذا كله ستنبثق أسئلة، وستحاول حكايات أخرى أكثرُ مأساويةً الإجابة عليها. كيف ستتصارع الآلهة التي خُلقت وولَدت بدورها وكيف ستنشقّ؟ وكيف ستتفاهم؟ كيف على التيتانات أن تكفّر عن الذنب الذي اقترفته بحق أبيها أورانوسٍ وكيف ستُعاقَب؟ ومن سيؤمِّن ثبات هذا العالم الذي بُني انطلاقاً من عَدَم كان كلَّ شيء، من ليلٍ ضوؤه نفسُه هو سليلِ هذا العدم، من خلاء وُلد منه الممتلِىء والصلب؟ كيف سيغدو هذا العالم ثابتاً منظّماً مع وجود كائنات متفردة؟ إن أورانوس، وهو يبتعد، يفتح الطريق إلى تتابع لا ينقطع من الأجيال. ولكن إذا تحاربت الآلهة في كل جيل فلن يحظى العالم بأي استقرار؛ ولذا يجب وضع حد لحرب الآلهة في سبيل تأسيس نظام للعالم بطريقة حاسمة. وسيرتفع الستار عن المعارك التي جرت من أجل الحكم الإلهي.

حرب الآلهة وملكية زيوس

هاهو إذن المشهد الذي انتصب على مسرح العالم: لقد انفتح الفضاء، والزمن يجري والأجيال ستتعاقب. هناك في الأسفلِ العالـمُ تحتُ الأرضي، وهناك الأرض الواسعة، وهناك المياه والتيار المحيط الذي يحفُّ بكل شيء. وفي الأعلى سماء ثابتة. وكما أن الأرض مَقَرٌ ثابت البشر والحيوانات ففي السماء الأثيرية، في الأعلى، مكانُ إقامةٍ مطمئنة للآلهة. والتيتانات التي هي الآلهة الأولى بمعنى الكلمة وأولاد سماء لهم العالم إذن يتصرفون فيه. وسيستقرون تماماً في الأعالي، على جبال الأرض، هناك حيث سيتأسس أيضاً المقرُّ الدائم للآلهة الأدنى شأناً، حورياتُ الينابيع وحوريات الغابات وحوريات الجبال. وكلٌّ يتخذ مكانه حيث يمكن أن يتصرف.

في أعلى السماء تماماً الآلهه التيتانات التي تسمى الأورانيد Ouranides أبناءُ أورانوس صبياناً وبناتٍ، وعلى رأسهم الولد الأخير أصغر الآلهة سناً الذي هو إله محتال مخادع قاسٍ، إنه كرونوس الذي لم يتردد في بتر الأعضاء الجنسية لأبيه. وبتجرُّئه على هذا الفعل حرَّر الكون، وخلق الفضاء، ومنح الحياة لعالم متفاوت منظَّم. وهذا العمل الإيجابي ينطوي كذلك على جانب مظلم، وإنه في الوقت نفسه خطيئة يجب دفع ثمنها لأن سماء منذ اللحظة التي انسحب فيها إلى مكانه الأخير لم يتوانَ عن أن يلعن أولاده الذين هم أوائل الآلهة المتفردة لعنةً ستتحقق،وستتكفل بها الإيرينياتُ رباتُ الانتقام المولوداتُ من البتْر، وسيتحتم علىذلك البتر أن يدفع كرونوس دَينه يوماً ما إلى الإيرينات المنتقمات لأبيه.

إنه إذن الأصغر، ولكنه الأجرأ بين أولاد سماء، هو الذي أعان حِيَل جيا لتنحية سماء وإبعاده عنها.وكرونوس هو من سيكون ملك الآلهة والعالم. ومعه، وحوله، سيتكاتف الآلهة التيتان الأدنى منه ولكنِ المتواطئون معه. لقد حررهم كرونوس فغدوا تحت حمايته. ومن مواليد عناق أورانوس وجيا كان هناك ثالوثان من الشخصيات التي كانت محصورة مكومة في البداية في رحم أمها كإخوتها التيتانات، وهؤلاء هم السيكلوبات Cyclopes الثلاثة والهيكاتونشيرات الثلاثة Hekatonchires. ماذا

ستصبح هذه الشخصيات؟ كل الدلائل تجعلنا نفترض أن كرونوسَ، هذا الإلهَ الحسودَ الشرير الذي بالمرصاد دائماً وفي المَكْمَن، والذي يخشى أن تدبَّر ضده، وعلى نار هادئة، ضربةٌ ما، سيقيِّدهم.يغطي بالسلاسل السيكلوبات الثلاثة والهيكاتونشيرات وينفيهم إلى العالم الجهنمي. وعلى نقيض هؤلاء ستتناكح التيتانات الإخوة الذكور والإناث، وبخاصة كرونوس مع إحداهن ريا Rhéa التي كانت تبدو كأنها صِنْو جيا؛ إنها هي وجيا قدرتان بدئيتان متقاربتان، ومع ذلك هناك بعض ما يميز إحداهما من الأخرى؛ فلجيا اسم شفاف لكل إغريقي، جيا تسمى أرض، وهي الأرض. أما ريا فقد حملت اسماً شخصياً متفرداً لا يجسِّد أيَّ عنصر من عناصر الطبيعة، إنها تمثل مظهراً أشد تجسيداً، أكثر أنسنةً وخصوصية من جيا. لكنهما في الواقع كأم وابنتها متقاربتان تماماً ومتشابهتان.

في البطن الأبوي:

يتزاوج كرونوس وريا، وإذن سيكون له هو أيضاً أولاد يلدون أولاداً آخرين سيؤلفون جيلاً جديداً من الآلهة، وهو الجيل الثاني من الآلهة المتفردة بأسمائها وعلاقاتها ومجالات تأثيرها. لكن كرونوسَ المرتابَ الغيور المهموم بسلطته لا يثق بأولاده، لا يثق بهم ولا سيما أن جيا حذرته. كانت جيا، وهي أم كل الآلهة البدئية، تغوص في أسرار الزمان، وتدرك منها ما يتضح شيئاً فشيئاً رغم أنه مخفي في ظلمة ثناياه. تعرف جيا المستقبل مسبقاً، وقد حذَّرت ابنها من أنه مهدد بأن يكون هو نفسُه ضحيةً لأحد لأولاده، سيخلعه عن العرش أحدُ أبنائه الذي سيكون أقوى من أبيه؛ وعليه فإن حكم كرونوس حكم مؤقت. وهكذا سيتخذ كرونوس، وقد امتلأ بالقلق، احتياطاته، فما إن يولد له طفل حتى يبتلعه ويلتهمه ويودعه بطنَه. وعلى هذا النحو اُلتهم كل أبناء كرونوس وريا في بطن الأب.

من الطبيعي أن رضاء ريا بسلوك زوجها هذا لم يكن أكثر من رضاء جيا بسلوك أورانوس، فقد كان يمنع أولادها من رؤية النور. يدفع أورانوس وكرونوس بطريقة ما ذُرِّيتيهما إلى ما كانوا عليه ليلة ما قبل الولادة.لا يريدان لهذه الذرية أن تنمو في الضوء كشجرة تمارس، وهي تخترق الأرض، حياتها بين السماء والأرض. وبنصيحة من أرض تقرر ريا مواجهة سلوك كرونوس المعْشين. لهذا تفكر في حيلة، في خدعة ما، في كذبة. فتتصدى له بما يتصف به هو نفسه لأنه إله مخادع كذاب. فعندما يكون آخرُ أولادها زيوس، وهو أصغر الصبية، كما كان كرونوس أصغر أولاد سماء، على وشك

الولادة تذهب ريا إلى جزيرة كريت حيث تضع طفلها خِفية. وتودع الولد أمانة في حماية كائنات إلهية هي حوريات الينابيع Naïades التي تتعهد بتربيته داخل مغارة حتى لا يشك كرونوس في شيء، وحتى لا يسمع الصرخات التي يستهل بها الوليدُ الحياةَ. ثم، وقد علت صرخات الصبي الجديد، تطلب ريا من الآلهة الذكور الكوريت Courétes أن يبقوا أمام المغارة، ويُكبّوا على رقصات حربية لتطغى قرقعة السلاح وأنواع الضجيج على صوت زيوس الوليد. وعلى هذا لا يشك كرونوس في شيء. ولكن لمّا كان يعرف حقاً أن ريا حامل فإنه ينتظر رؤية المولود الأخير الذي وضعته والذي يجب أن تُحضره إليه. فماذا تحمل إليه إذن؟ حجراً. تحمل الحجر الذي أخفته في قماط الوليد. تقول لكرونوس: انتبه! إنه هَشٌّ، إنه صغير. ثم «هوب»، وبحركة واحدة يبتلع كرونوس الحجر الذي قمّطته. وهكذا غدا كل جيل أطفال كرونوس وجيا في بطن كرونوس، ثم فوق الجميع... حجرا!

يكبر زيوس في خلال ذلك الوقت في كريت ويضحي قوياً. وعندما يبلغ أشُدَّه تراوده فكرة مِلحّة وهي أن على كرونوس التكفيرَ عن ذنبه تجاه أطفاله الذين أنجبهم من صُلبه، وعن ذنبه نحو أورانوس عندما بتر أعضاءه بطريقة خطرة، فكيف سيتصرف للوصول إلى هذه النتيجة؟ إن زيوس وحيد، ويريد أن يتقيأ كرونوسُ ويُفرِغَ من حنجرته حَشْدَ الأطفال الذين في بطنه. ومن جديد سيتوصل إلى بغيته بالحيلة، الحيلةِ التي يسميها اليونان métis، أيْ هذا الشكل من الذكاء الذي يعرف سلفاً كل الإجراءات ليخدع الشخص الذي في مواجهته.

كانت حيلة زيوس تقوم على جعل كرونوس يتناول الفارماكون pharmakon وهو دواء يقدَّم على أنه رِقية، ولكنه في الحقيقة دواء مقيِّىء. وريا هي التي تقدم له هذا الدواء. وما إن يبتلع كرونوس الدواء حتى يبدأ بإخراج ما في جوفه، فيلفظ أولاً الحجر، ثم كل سلسلة الآلهة والإلهات على عكس ترتيب أعمارهم، وأصغرهم هو الذي يلي الحجر. وهكذا يكرر كرونوس بطريقته الخاصة، وهي اللفظُ، ولادةَ كل الأطفال الذين جاءت بهم ريا إلى العالم.

غذاء الخلود:

هاهي إذن مجموعة مجتمعة من الآلهة والإلهات تأتي لتقف في صف زيوس. وحينئذ يبدأ ما يمكن أن نسميه بحرب الآلهة، أي مجابهةِ بعضهم بعضاً في معركة لم تُبتَّ زمناً طويلاً، معركةٍ تمتد تقريباً عشرة «أعوام مديدة»، أي عشراتِ الآلاف من

السنوات لأن «العام المديد» يمتد مئة سنة، بل ألفاً. تجتمع حول كرونوس من جهةٍ الآلهةُ التيتان، ومن جهة أخرى حول زيوس مَن يُسمَّون «الكرونيد» Cronides أو الأولمبيين Olympiens. يؤسس كل من الطرفين مقره ومعسكره في أعلى جبل، ويتصارعان زمناً طويلاً دون أن تميل كفة النصر إلى أحدهما. ليس مسرح العالم مزروعاً فحسب، بل إنه مشغول وممزق بهذه الحرب العَوان بين الجيل الأول من الآلهة وأولادها. وهنا تتدخل الحيلة مرة أخرى: هناك جوانب كثيرة لهذه المعركة الغريبة بين القدرات الإلهية، وما هو أكيد هو أن النصر سيكون حليف المعسكر الذي يملك، لا القوةَ الغاشمة فحسب، بل الذكاءَ الخارق أيضاً. ولن يكون العنف وتنامي القوة هما من يؤديان الدور الحاسم في هذه الحرب التي لم تتضح نتيجتها، بل الدهاء والمكيدة. ولذا فإن شخصية تسمى أيضاً بالتيتان رغم أنها تنتمي إلى الجيل الثاني - هي ابن التيتان جابيت Japet - وهي بروميثيوس Prométhé يجب أن تنحاز إلى جانب زيوس وتحمل إليه ما كان ينقص تحديداً ذلك الإلهَ الشاب زيوس وهو الحيلة. إن هذه «الميتس» métis، أي الروحَ الذكية المخادعة، تسمح قبل كل شيء بتدبير الأحداث سلفاً كي تحدث وفقاً لما يُشتهى.

تشرح جيا، المظلمةُ والمنيرة في آنٍ، الخرساءُ والثرثارة، تشرح لزيوس أنّ عليه من أجل الانتصار التحالف مع الكائنات ذات العلاقة بالتيتان، ولكنها ليست في معسكرهم، تقصد السيكلوبات الثلاثة والهيكاتونشيرات الثلاثة، لأن هذه الآلهة التيتان آلهة بدئية ما تزال تتمتع بكل قسوةِ القوى الطبيعية. ومن الضروري، لأجل هزيمةِ قوى الفوضى وإخضاعها، الانخراطُ فيها نفسِها، فإن كائنات عاقلة منظمة تنظيماً صِرْفاً لن تبلغ هذا النصر. إن زيوس بحاجة في معسكره إلى شخصية تجسد قدرات القسوة العنيفة والفوضى الجامحة التي تمثلها التيتانات.

ولهذا يطلق زيوس السيكلوبات والهيكاتونشيرات الذين يضعون تحت تصرفه من تلك الساعة مساعدتهم الحربية. لكن الصراع لم ينته بهذه المساعدة، إذ لا يكفي، ليجد فيهم حلفاء مخلصين، إعادةُ حرية الحركة إليهم بعدما أخرجهم من السجن الليلي المظلم حيث كان كرونوس أخفاهم، بل يجب على كرونوس أن يعطيهم وعداً قاطعاً أنهم إذا حاربوا إلى جانبه فسيكون لهم الحق في شراب الآلهة nectar وغذائهم ambroisie، أي طعام الخلود.

يظهر هنا ثانية موضوع الغذاء الذي سبق أن لعب دوراً كبيراً؛ فإن كرونوس كان يبتلع بشهيته الضارية أطفاله ويجعل منهم غذاءه. وكان همُّه أن يملأ كرشه، حتى إنه

لما أُعطي حجراً على هيئة رضيع التهمه. جعل زيوس من الهيكاتونشير والسيكلوب الذين هم من نفس جيل التيتان آلهةً أولمبية حقيقية بأن منحهم امتياز طعام الخلود، لأن ما يميز الآلهة الأولمبية هو أنهم لا يتغذون، خلافاً للحيوانات التي تأكل ما تجد، وخلافاً للناس الذين سيتغذون بالخبز والخمر واللحم المضحى به بطريقة شعائرية، بل يبتلعون غذاء الخلود نظراً إلى حيويتهم الداخلية التي، على نقيض حيوية الناس، لا تنفد البتة ولا تعرف التعب. أما الرجال فيجوعون ويعطشون بعد الجهد، ولذا عليهم أن يعيدوا تذخير أنفسهم. ليس للآلهة هذا الهمُّ الدائم، بل على العكس لهم شكلُ وجودٍ مستمر. إن شراب الآلهة وغذاءهم اللذين يقدَّمان للهيكاتونشير والسيكلوب هما ضمانة على أنهم حقاً جزء من الآلهة بالمعنى الكامل للكلمة. وهكذا اجتمع الدهاء والحيلة من جهة، ومن جهة أخرى القوة الفظة والعنف وانفلات الفوضى التي عادت عن طريق السيكلوبات وذوي الأذرع المئة ضد الآلهة التيتان المجسدين لهذه الصفات. وأخيراً، وبعد عشرة أعوام مديدة من المعارك غير المحسومة، ستميل كفة الصراع لصالح أولئك الذين يُسمَّون الأولمبيين لأنهم يحاربون من قمة الأولمب.

من هم السيكلوب؟ وكيف حملوا راية النصر إلى زيوس؟ لقد فعلوا هذا بتقديمهم له سلاحاً لا يقاوَم وهو الصاعقة. وجيا الحاضرة دائماً هي التي تعطيهم الوسائل لصنعها، تماماً كما كانت قد أخرجت من رحمها هذا المعدن الفولاذي الأبيض، معدنَ المِقْضب الذي كان سلاحاً بيد كرونوس. وهنا أيضاً ما تزال هي التي تزودهم بالمادة. السيكلوب بعيونهم الوحيدة يحتفظون، بصفتهم حدادين Héphaïstos قبل أن يتخذوا شكلهم النهائي، بهذه الصاعقة التي سيضعونها تحت تصرف زيوس ليستخدمها في كل لحظة. وهي مركَّزة في يده، مكثَّفة من النور والنار، قوية وفعالة للغاية. ويُفهم من أن للسيكلوب عيناً واحدة أن هذه العين نفسها كأنها من النار. وفي وسط الكائنات فالنظرة لدى القدماء، لأولئك الذين أبدعوا هذه القصص، هي النور الذي يخرج من العين، إلا أن النور الذي سينبثق من عين زيوس هو الصاعقة تحديداً.وفي كل مرة يحدق به فيها الخطر الحقيقي ستصعق عينه أعداءه. السيكلوب من جهةٍ لها العينُ، والهيكاتونشير، هذه الكائنات الخرافية ذات القامة الهائلة والقدرة المضاعفة إلى المئة، لها من جهة أخرى الأذرعُ، بل الأيدي، كما يقول الإغريق الذين لم يكونوا يميزون بينها وبين الأذرع. الهيكاتونشير لهم مئة يد هي القبضة والقدرة، وبهذين السلاحين الحاسمين: عينِ السيكلوب التي تصعق، وقدرةِ الذراع التي تهيمن، يصبح زيوس حقاً قوة لا تُقهر.

هناك نقطة ذروة في هذه المعركة، في هذه الذروة من المعركة بين القوى الإلهية حيث يقذف زيوس صاعقته، والهيكاتونشير ينقضُّون على التيتان، يعود فيها العالم إلى حالة خوائية. تهوي الجبال وتنشقُّ الصدوع، وفي عمق الجحيم (التارتار)، هناك حيث يخيم ليل، يُرى دفعة واحدة صعودُ الضباب من الأعماق، تهوي السماء إلى الأرض، ويعود كل شيء إلى حالة خواء، إلى الحالة البدئية للفوضى الأصلية عندما لم يكن بعدُ شكلٌ لأي شيء. إن انتصار زيوس ليس مجرد طريقة لقهر خصمه وأبيه كرونوس، بل هو أيضاً طريقة لخلقِ العالم من جديد وإعادةِ بناءِ عالم منظم انطلاقاً من خواء، من فغر حيث لا شيءَ مرئيٌّ، حيث كل شيء فوضى.

يرى بوضوح شديد أن إحدى قوى زيوس، سواء أيدي ذوي الأذرع المئة أم عين السيكلوب، تتركز في قدرته على إخضاع الخصم وتكبيله بالنير. إن حُكمَ زيوس حُكمُ ملكٍ له سحرُ القيود، فإذا توجَّه إليه خصمٌ رماه زيوس بنظرته ذات السوط المضيء، وأحاقت به صاعقته: تُطبِق عليه قوةُ العين وقوة الذراع ويسقط الخصم مقهوراً. وفي لحظة الأوج المشؤوم لقوة زيوس التي تنطوي على رجوع إلى الخواء كمرحلة لا بد منها يسرع التيتان إلى الأرضِ الترابِ، يصرعهم زيوس تحت ضربات سوط صاعقته وتحت قبضات الهيكاتونشير. يهوُون إلى الأرض، وتهيل عليهم الأذرع المئة جبلاً من الحجارة الضخمة التي لن يعود التيتان قادرين على الحركة تحتها، هذه الآلهة التي كانت قدرتها تتجلى في الحركة والحضور الدائم انتُقِصت قدرتها حتى عادت لا شيءَ. إنها متجمدة ومرتعبة تحت كومة لا يستطيعون الخلاص منها، لم تعد قوتهم تفعل شيئاً. يسيطر عليهم ذوو الأذرع المئة كوتوس وبرياريه وجييس، ويقودونهم إلى عالمِ ما تحت الأرض. فالتيتان لا يمكن قتلُهم، لأنهم خالدون، وإنما أعيدوا إلى الخواء تحَت الأرضي، إلى التاتار الضبابي، حيث لا شيء يتميز، وحيث لا اتجاه، فغرٌ مفتوح في عمق الأرض. وحتى لا يستطيعوا الصعود من جديد إلى السطح يكلَّف بوزيدون Poséidon بأن يبني سوراً حول ما يشبه الشِعب الذي يُكوِّن في أعماق التربة الممرَّ الضيق المؤدي إلى العالمِ تحت الأرضي والمظلم، عالمِ التارتار.

و عبْرَ الممرّ، كما لو كان عبْرَ عنق جرَّة، تتأثّل كلِ الجذور التي تغرزها الأرض في الظلمات لتأكيد ثباتها. وهناك يرفع بوزيدون جداراً من ثلاثة صفوف من البرونز، وتؤلف الأذرع المئة الحرس المخلصين لزيوس. وبإغلاق هذا الممر تكون كل الاحتياطات قد اتُّخذت حتى لا يستطيع هذا الجيل من التيتان أن يرى النور ثانية.

حكم زيوس:

ها هو الفعل الأول قد اكتمل. زيوس هو القاهر الآن. حصل على دعم السيكلوبات وذوي الأذرع المئة، وكذلك على تحالف عدد من القدرات التيتانية. وحصل خصوصاً على دعم إلهة تمثل كل ما يستطيع العالم تحت الأرضي، العالم السفلي، أن يحتويه من قدرة خطيرة وهي الإلهة ستِكس Styx. إنها تسيل في أعماق الأرض، تسيل في التارتار ثم تنبجس في لحظة معينة إلى السطح. ومياه ستكس قوية جداً حتى إن كل مخلوق قابل للفناء يحاول أن يشرب منها يخِرُّ حالاً مصعوقاً ميتاً. تقرر ستكس في غمرة المعركة أن تترك معسكر التيتانات الذي تنتمي إليه بأصلها وتنتقل إلى جانب زيوس. وتسحبُ معها، وهي تقف إلى جانبه، ابنيها اللذين يسمّى أحدهما كراتوس Kratos والآخر بييه Bié. يمثل كراتوس سلطة السيطرة والقهرِ وخداع الأعداء. ويجسّد بييه العنف الذي هو نقيض الحيلة. وبعد انتصاره على التيتانات يحيط زيوس نفسه إحاطة دائمة بكراتوس، أي سلطةِ الحكم الكوني، وبييه أي القدرةِ على إطلاق عنف لا يستطيع أيٌّ الصمودَ أمامه. وعندما ينتقل زيوس يحيط به دائماً كراتوس وبييه على اليمين واليسار حيثما يذهب.

تُقِرُّ الألهةُ الأولمبية إخوةُ زيوس وأخواته، بعدما رأت ما جرى، أن يؤول الحكم إليه. دفع التيتانات غالياً ثمن العار، ويضطلع زيوس الآن بالحكم، فيقسم بين الآلهة المَقاماتِ والامتيازات، ويؤسس كوناً مرتَّباً على درجات منظَّماً سيكون بالتالي ثابتاً. لقد زُرع مسرح العالم ووُضع الإطار في مكانه. وعلى قمته يهيمن زيوس، آمِرُ عالَمٍ هو سليل في أصله لخواء.

تطرح أسئلة أخرى نفسها: كان أورانوس وكرونوس كائنين متشابهين في بعض النواحي؛ فالاثنان يتصفان بأنهما لم يشاءا رؤية أولادهما يعقُبونهما، وقد منع كلاهما ذريته من القدوم إلى الحياة. يمثل هذان الإلهان طبقة إلهية ترفض أن تأخذ طبقةٌ أخرى محلَّها في سلسلة تعاقب الأجيال. وباستثناء هذه التشابهات ليس في شخصية أورانوس شيءٌ يُقارَن بشخصية كرونوس من وجهة نظر الخرافة والحكاية. فأورانوس، وليدُ جيا، يتزاوج بها فيما بعد بلا نهاية، وليس له هدف إلا الاتصال بتلك التي ولدته في مجامعة لا تنقطع، وهو محروم من الحيلة ومن السلاح، ولا يتخيل في لحظة من اللحظات أن جيا يمكن أن تفكر بالانتقام منه.

و خلافاً لأورانوس، لا يجمّع كرونوس ذريتَه في بطن الأم، بل في بطنه هو. ينقاد

أورانوس لغريزته الجنسية البدئية التي تجمّده وتثبته فوق جيا. وعلى العكس كل ما يفعله كرونوس تمليه إرادته في المحافظة على السلطة والبقاءِ في سُدّة الحكم. كرونوس هو السياسي الأول. وليس الملكَ الأول للآلهة فحسب، بل أيضاً الملكُ الأول للكون، بل كذلك أولُ مَن يفكر في وسائلِ احتيالٍ وسياسة خوفاً من أن يجرّد من صولجانه.

يرتسم مع زيوس كون مختلف جداً. إن أنداده هم الذين يختارون أن يجعلوا منه ملكاً، ويوزع، بأقصى ما يمكن من العدل، المقَام الذي يستحق كلّ منهم، حتى إنه يحفظ لبعض التيتانات، التي لم تَصُفّ بشكل واضح في هذا الجانب أو ذاك وقت نزاع الآلهة، بعضَ قدراتها التيتانية التي كانوا يمتلكونها قبل وصوله إلى السلطة. وهكذا لم يتخذ أوقيانوسُ Okéanos، هذا النهرُ الذي يحيط بالعالم، موقفاً، لا مع التيتانات ولا مع الأولمبيين. وإذن، رغم بقائه على الحياد، سيستمر في حراسة الجبهات الخارجية للعالم ضاماً إياها في حزامه السائل.

يحفظ زيوس، بل يوسّع امتيازات هيكات Hécate الإلهةِ الأنثى التي لم تدخل هي الأخرى في النـزاع. ومن المؤكد أن زيوس يأمر لدى إعادته توزيع السلطات بأن تشغل هيكات مكاناً على حدة. هذه الإلهة ليست سماوية تحديداً ولا أرضية، بل تمثل في عالم من الألوهة المذكرة نوعاً من المتعة الطيبة والمصادفة، تستطيع أن تؤثِر أحدهم، أو على العكس، تؤذيه دون أن يُعرف جيداً لماذا تفعل هذا. تمنح حسب مزاجها السعادة أو الشقاء. وفي الماء تُخصِب الأسماكَ أو لا تخصبها، وفي السماء الطيورَ، وعلى الأرض القطعانَ؛ تجسد عنصراً من الاعتباطية في العالمِ الإلهي، تُدخِل فيه ذُرارة من الصُدفية. يشرف زيوس وجيا على الزمن فيعلمان سلفاً كيف سيجري، وتضع هيكات بعض الزيت في دواليبه فتسمح أن يعمل العالم بمزيد من الحرية، مع هامش من المفاجأة. وامتيازات هيكات واسعة.

يمكن أن نظن أن كل شيء قد غدا الآن منظماً، لكن، بداهة، ليس هذا هو الحال. إن الجيل الإلهي الجديد على الساحة، وعلى رأسه زيوسُ ملكُ الآلهة الذي لم يحلّ محل كرونوس فحسب، بل هو نقيضه. كان كرونوس هو اللاعدالة، ولم يكن يحسب حساب حلفائه في حين أن زيوس يؤسس سيادته على عدالةٍ ما، مع همٍّ المساواة في الطريقة التي يحابي فيها الآلهة الأخرى. يقوِّم ما كان في حكم كرونوس أحاديَّ الجانب وشخصياً وشريراً. يؤسس زيوس شكلاً من الحكم أكثر انتظاماً وأفضل توازناً.

يمرّ الزمن، ولزيوس الآن أولاد. وبديهي أن هؤلاء الأولاد سرعان ما يكبرون

ويصبحون في منتهى القوة والقدرة. على أن شيئاً في الطريقة التي يسير بها الكون يهدد عالم الآلهة؛ فعلى الكائنات أن تكبر لتصبح بالغة، والزمن يُبلي كل شيء. كان زيوس نفسه طفلاً في قماطه يصوِّت سراً من كهفه محمياً بالحرس. وهاهو الآن في أوج قوته، ولكن أليس له هو الآخر نقطةُ انعطاف؟ ألا يأتي على الآلهة، كما على الناس، لحظةٌ يشعر فيها الملك العجوز بأنه لم يعد كما كان تماماً، لحظةٌ يرى فيها إلى جانبه ابنَه الشاب الذي كان يحميه قد غدا أكثر قوة منه، وينجح حيث يخفق هو الآن؟ ألن يحدث هذا لزيوس نفسِه؟ هل سيخلع زيوسَ بدوره ابنه بالطريقة نفسها التي خلع بها كرونوسُ أباه أورانوسَ، ثم زيوسُ أباه كرونوسَ؟ أجل هذا ممكن، بل هذا ما يجب أن يحدث، كما لو أنه مكتوب سلفاً في نظام الزمن. وجيا تعلم هذا وكذلك ريا. وعلى زيوس الذي حُذِّر أن يحتاط لمواجهة هذا الاحتمال، والنظامُ الذي أسّسه يجب أن يكون من النوع الذي لا يُقحَم في مثل هذا نتيجةً لصراع التعاقب على السلطة الملكية. إن زيوس، وقد غدا ملك الآلهة وسيد العالم، ما كان ليستطيع أن يكون حاكماً كسائر الحكام، عليه أن يجسّد الحكم كما هو: القدرةَ على السلطة الثابتة والحاسمة. وأحدُ مفاتيح هذا الثبات لسيادة مستقرة تحل محل سلسلة من السلطات المتعاقبة يكمن في زواج الإله الحاكم.

حِيَل السلطة:

تحمل الزوجة الأولى لزيوس اسم ميتس الذي يدل على هذا الشكل من الذكاء الذي رأينا أنه أتاح له الاستيلاء على السلطة. ميتس هي الحيلة والقدرة على الرؤية المسبقة لكل ما سيحدث، وعلى عدم السماح بأن يؤخَذ على حين غِرة، وعلى عدم التضليل من أيٍّ كان، وحرمانِ الخصم من أي هجوم مفاجىء.

يتزوج زيوس من ميتس، وستحمل قريباً بأثينا Athéna. يخاف زيوس بدوره أن يخلعه أحد أبنائه عن العرش؛ فكيف سيتجنب هذا الأمر؟ سنجد هنا ثانية مسألة الابتلاع. كان كرونوس يبتلع أبناءه لكنه لم يستطع اقتلاع المصيبة من جذورها لأن المقيىء سيعيد بواسطة ميتس، أي بحيلة ما، إلى الحياة كلَّ الأطفال. يرغب زيوس في حل المشكلة حلاً أكثر جذرية؛ يحدِّث نفسه: ليس هناك إلا طريقة واحدة، لايكفي أن تكون ميتس إلى جانبه زوجةً له، بل يجب أن يصبح هو نفسه «ميتساً». لا حاجة إلى شريكة أو رفيقة. يجب أن يكون هو نفسه «الميتس»؛ فما العمل؟ إن لميتس القدرة على التحول، تتخذ كل الأشكال على طريقة تيثيس Thétis والإلهات البحرية الأخرى،

قادرةٌ على أن تجعل من نفسها حيواناً وحشياً، نملةً، صخرةً، كلَّ ما تشاء. تجري مبارزةٌ في الحيل بين الزوجة ميتس والزوج زيوس، فمن سينتصر على الآخر؟

يمكن أن نفترض لأسباب وجيهة أن زيوس يسلك سلوكاً نعرفه أيضاً في حالات أخرى، فعلام يعتمد هذا المسلك؟ إن المجابهة المباشرة في مباراة مع ساحر ذي موهبة خارقة أو ساحرة ستؤول بطبيعة الحال إلى الإخفاق. وعلى العكس إذا اتُّبع سلوك الحيلة ربما كان هناك حظ في إلحاق الهزيمة به.

يسأل زيوس ميتس: هل تستطيعين حقاً اتخاذ الأشكال؟ أتستطيعين أن تكوني أسداً يبصق النار؟ تصبح ميتس حالاً لبوة تبصق ناراً. يسألها زيوس: هل تستطيعين أن تكوني نقطة ماء أيضاً؟ نعم بالتأكيد. أريني إذن! وما إن تتحول إلى نقطة ماء حتى يبتلعها. هاهي ميتس الآن في بطن زيوس. انتصرت الحيلة مرة أخرى. لا يكتفي بأن يبتلع خلفاءه المحتملين بل يجسِّد منذ الآن في سياق الزمن، في النهر الزمني، هذه البصيرةَ المخادعة التي تسمح له بأن يفسد مسبقاً مخططاتِ أيٍّ كان ممن يحاول استباقه ومفاجأته. تجد زوجتُه ميتس، وهي الحبلى بأثينا، نفسَها في بطنه. وهكذا ستخرج أثينا، لا من رحم أمها فحسب، بل من رأس أبيها الضخم الذي غدا كبطن ميتس. يطلق زيوس زعقات الألم ويستنجد ببروميثيوس وهيفايستوس. يأتيان مع فأس مزدوجة، ويضربان زيوس ضربة شديدة على الجمجمة. ومع صرخة عظيمة تخرج أثينا من رأس الإله عذراءَ جميلةً شابة مدجَّجة بالسلاح، بخوذتها ورمحها وترسها ودرعها البرونزي. أثينا هي الإلهة المبدعة المليئة بالدهاء. وفي الوقت نفسه ستتركز منذ الآن كلُّ حيل العالم في شخص زيوس. إنه محميّ، ولن يستطيع أحد مفاجأته. وها هي ذي المسألةُ العظيمة مسألةُ السلطة قد انحلت من تلقاء نفسها؛ فللعالم سيدٌ لا يستطيع أحد مهاجمته لأنه هو الحكمُ نفسُه. لن يعود شيءٌ بعدُ قادراً على تهديد النظام الكوني. كل شيء ينتظم عندما يبتلع زيوس ميتس. ويصبح زيوسُ الداهيةَ فالإله يفعل الحيل كاملة، وهو الحذر بعينه.

أم كونية وخواء:

هاهي حرب الآلهة قد انتهت: التيتانات مهزومون والأولمبيون منتصرون، ولكن لم يُحلَّ شيءٌ في الواقع لأنه بعد انتصار زيوس، وفي اللحظة التي يبدو فيها أن العالم قد هدأ أخيراً ويحكمه نظام نهائي ثابت وعادل، في هذه اللحظة تحديداً تلد جيا كائناً جديداً أكثر شباباً اسمه أحياناً تيفيه Typhée وأحياناً تيفون Typhon. حملت به أمه

بعد أن جامعت، بتحريض من «أفروديت الذهبية» كما تقول الموروثات، كائناً مذكراً يسمى تارتار Tartare هو هذه الهاوية التي في جيا نفسها، في أعماقها، تتمثل كمادة بديلة، كصدى للخواء الأولي. ينتمي التارتار، وهو التحت - أرضي، الضبابي المظلم، إلى سلالة مختلفة تماماً عن القدرات السماوية التي هي الآلهة الأولمبية، أو حتى التيتانات. ما إن طُرد هؤلاء التيتانات من السماء ونُفوا إلى أعماق التارتار، ليبقوا مسجونين فيها إلى الأبد حتى اختارت جيا لتنجب سليلاً جديداً وأخيراً أن تجامع بالتحديد هذا التارتار الذي هو نقيض السماء. تتوضع جيا في أرضية العالم، في منتصف المسافة بين السماء الأثيرية والتارتار الظّلماني. وإن تُرك سَنْدانٌ برونزي يسقط من أعلى السماء احتاج إلى تسعة أيام بلياليها ليبلغ الأرض في اليوم العاشر. ويحتاج السندان نفسه إلى الوقت نفسه في سقوطه إلى الأسفل ليبلغ التارتار. وبخلقِها لأورانوس ومجامعتها إياه أنجبت جيا كل سلالة الآلهة السماوية. إنها أم كونية تدرك كل شيء وتستبقه. تمتلك مواهب الوحي وشكلاً من البصيرة المسبقة يسمح لها بأن توحي وقت المعارك إلى من يعجبها طرقَ الانتصار السريةَ الخفية والخبيثة. ولكن جيا هي كذلك الأرض السوداء، الأرض الضبابية، يبقى فيها شيء من الخواء، من البدئية. لا تجد نفسها بشكل كامل بين هؤلاء الآلهة الذين يخيمون في الأثير اللماع حيث لا يظهر أدنى ظل، ولا تشعر كذلك بأنها تحظى بالاحترام الذي تستحقه من هذه الكائنات التي تتجابه بلا رحمة من قمة أوتريس Othrys إلى قمة الأولمب لتسيطر على العالم.

في البداية نتذكر: كان خواء ثم أرض. جيا هي الأم الكونية وهي نقيض الخواء. ولكنها في الوقت نفسه تتعلق بالخواء، ليس لأنها في أعماقها تجد نفسها ثانية، بسبب التارتار والإيريب érébe عنصراً خوائياً، بل كذلك لأنها تنبثق بعده بالضبط. وخارجها هي لا شيءَ غيرُها في الكون إلا خواء.

إن الكائن الذي ستنجبه والذي سيَطرح على البحث ثانية، لا موضوعَ زيوس فحسب، بل مجملَ النظام الإلهي الأولمبي، هو كائن جهنمي chthonien بالمعنى الأرضي فإن Chthon هو الأرض في جانبها المظلم الليلي، وليس الأرضَ بوصفها أماً، قاعدةً آمنة لكل الكائنات التي تمشي فوقها وتتكىء عليها. هذا الكائن المسخي البدئي العملاق على الشكل الذي وضعته عليه جيا، صورةٌ شاذة، نوعٌ من الحيوان المسخ يتضمن جوانب إنسانية وغير إنسانية، يمتلك بقوة مرعبة قدرةَ الخواء، قدرةَ البدئي وقدرة الفوضى. وله أعضاء أعظم قدرة من تلك التي للأذرع المئة. له أذرع تتصل

بالأكتاف بقوة وسلاسة وقدرة رهيبات. أقدامه تعتمد على الأرض بثبات، لا تعرف التعب، وفي حركة دائبة. إنه كائن الحركة والنشاط، لا كما يُرى في بعض أساطير الشرق الأوسط مثالٌ له ليس إلا كتلةً ثقيلة ساكنة، لا يكبر إلا في بعض اللحظات، ولا يتحرك إلا كقوة مقاومة تهدد باحتلال كل الفضاء بين السماء والأرض، فعلى النقيض لاينفك تيفون يتحرك ويضرب ويهز ساقيه وقدميه. له مئة رأس أفعى، مئة رأس مزودة بلسان أسود ينقذف خارج الفم، ولكل من هذه الرؤوس المئة زوجٌ من الأعين يلفظ لهباً مشتعلاً، نوراً يضيء هذه الرؤوس الأفعوية ويلتهم في الوقت نفسه كلَّ ما توجه إليه نظراته.

وماذا يحكي هذا المسخ المريع؟ يستعمل عديداً من الأصوات: من وقت لآخر يتكلم لغة الآلهة، وأحياناً لغة

الناس، ويطلق في لحظات أخرى صرخات كل الحيوانات المتوحشة الخارجة عن حدود الخيال. يزأر كأسد ويخور كثور. صوته وطريقة كلامه متعددا الأشكال أيضاً، متنوعان وملونان كما أن مظهره مسخي تماماً. وجوده يعبر عن مزيج مختلط من كل الأشياء، عن اجتماع كل المظاهر والملامح الأكثر تناقضاً والمجموعة في فرد واحد، أكثر مما يعبر عن جوهر خاص. ولو أن هذه الفظاعة المسخية الخوائية في المظهر والكلام والنظرة والحركة والقدرة انتصرت لكان نظام زيوس قد انعدم.

بعد حرب الآلهة وبلوغ زيوس المُلْكَ تؤلف ولادة تيفيه أو تيفون خطراً على النظام الأولمبي. ولو أنه انتصر لعاد العالم إلى الحالة البدئية والخوائية، وكان الصراع الطويل للآلهة بعضِها ضد الآخر قد امّحى، وكان العالم قد عاد إلى نوع من الخواء، لا بالرجوع إلى الخواء البدئي الأصلي لأنه من هذا الخواء خرج عالم منظم، بل بالاستسلام إلى فوضى عظيمة عامة.

تيفون أو أزمة السلطة العليا:

يهاجم تيفون زيوس، والمعركة مرعبة. وكما جرى زمنَ الصراع بين التيتانات والأولمبيين يحرز زيوس النصر بفضل نوع من زلزلة أرضية وقلقلةِ عناصرَ. فالأمواج تزحف مسرعة على الأراضي، والجبال تنهار لحظة يُرعِد زيوس في محاولة لتحطيم هذا الوحش المسخ وإخضاعه بصاعقته. وفي جوف هاديس Hadés نفسِه، مغارةِ الأموات والليل، يختلط كل شيء، وكل شيء فاغر. إن صراع تيفون ضد زيوس هو صراع الوحش ذي مئات العيون ضد بريق النظرة الإلهية. ومن المعلوم أن عين زيوس

الصاعقة، مع النور الذي تقذفه، هي التي ستقهر هذه الشُعَلَ التي ترميها الرؤوس الثعبانية المئة للوحش. عيون مقابل عين، ومع ذلك فزيوس هو الذي يربح الحرب.

تقول إحدى الحكايات إن زيوس، وقد اقترف خطأً إغضاءِ نظره في أثناء نومه في مقر حكمه، وهو الذي يجب أن تكون عينه يقظة دون انقطاع، يقترب منه تيفون ويرى المكان الذي وضع فيه زيوس صاعقته، ويستعد لتناولها. ولكن زيوس يفتح عينه في اللحظة التي كان يهمُّ فيها الوحش بوضعِ يدِه على سلاحِ النصر، ويصعق عدوّه حالاً. قدرتان تتقابلان: القدرة الخوائية والقدرة الأولمبية؛ فأيٌّ قدرة ستسبق الأخرى بيقظتها ووميضها؟ هنا أيضاً يُصرع تيفون نهائياً، بفضل الصاعقة قُهرت أعصابُ أذرعه وسيقانه وكلُّ ما تتجسد فيه القدرة الحيوية في قدرته القتالية. وها هو عاجز عن الحركة تتراكم الصخور على جسده، يُقتاد من جديد إلى التارتار الضبابي حيث هناك أصله.

تعبّر حكايات أخرى مثيرة للفضول إلى حد ما تعبيراً مختلفاً عن الطابع الوحشي لتيفيه، وهي قصص رويت في القرن الثاني من عصرنا. ويعود القسط الأعظم من التغيرات بين تيفيه في حكايات هزيود Hésiode التي تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد، وتيفيه في حكايات الوقت الحاضر، إلى تأثيرات شرقية.

تلد جيا من تارتار، بعدما أرهقها الألهة الأولمبيون، مسخاً. ويوصف هذا المسخ بأنه وحش عملاق هائل: قدماه تستقران بقوة على الأرض، وجسمه بلا نهاية حتى إن جبهته تصدم السماء، وعندما يصالب ذراعيه تلمس إحدى ذراعيه أقصى الشرق، والأخرى أقصى الغرب. ويخلط، بطبيعته، الأعلى بالأسفل، والسماءَ بالأرض، واليمينَ بالشمال، والشرقَ بالغرب. وعندما يلمحه الأولمبيون يتحولون، مأخوذين برعب لايقاوم، إلى طيور وينجون بأنفسهم؛ فيواجه زيوس وحيداً هذا الوحش العريض العالي كالعالم، والواسع كالكون. يرعد زيوس ويضرب تيفيه المجبَرَ على التراجع، وحينئذ يأخذ زيوس المقضب ويحاول أن يهزمه. لكن الآخر يلتحم به جسداً لجسد. وتيفيه هو الذي ينتصر هذه المرة، لأنه بفضل كتلته الهائلة يتوصل إلى تطويق زيوس وشلِّ حركته. يقطع تيفيه أعصاب ذراعيه وقدميه. ثم ينطلق حاملاً جسد زيوس ويلقيه في كهف سيليسيا Cilicie. ويخفي الوحشُ في الوقت نفسه أعصابَ زيوس وصاعقته.

يمكن الاعتقاد بأن كل شيء قد ضاع. وأن من سينتصر هذه المرة هو عالم الفوضى الكاملة. والواقع أن الوحش يتوقف تماماً عند هذا الحد راضياً ومكتفياً أمام زيوس المسكينِ المحبوسِ في هذا الكهف، العاجزِ عن الحركة، المحرومِ من كل طاقة، بعدما

قُطعت أعصاب ذراعيه وساقيه وحُرم من صاعقته. ولكنْ، وكما سبق أن حدث من جانب الأولمبيين وزيوس، فإن الحيلة والدهاء والخديعة والذكاء هي التي ستنتصر على تيفيه. وهكذا تتمكن شخصيتان هما هرمس Hermés وإيجيبان Egipan من ترميم أعصاب زيوس دون أن يلحظ تيفونُ، فيعيدها زيوس إلى أماكنها كما لو كان يلبس عِلاقة سلاح، ويمسك الصاعقة ثانية. وعندما يستيقظ تيفون الذي كان نائماً ويكتشف أن زيوس غادر المغارة تستأنف المعركة من جديد بأعنف مما كان، لكنها تنتهي منذ الآن إلى الهزيمة الحاسمة للوحش.

تروي حكايات مماثلة أخرى أن زيوس هزم مؤقتاً، وسُجن وتُرك دون قوى ودون صاعقة، وأن الماكر قدموس Cadmos هو الذي سيشلّ حركة المسخ. يعلن تيفون الذي يعتقد أن كل شيء دان له، أنه ملك الكون وأنه سيعيد الآلهة البدئية إلى السلطة. يريد تحرير التيتان ومحو حكم زيوس. إنه ملك نغل، ملك أعرج. تيفون ملكُ الفوضى الذي سيخلع زيوسَ ملكَ العدالة عن عرشه، وآنذاك يبدأ قدموس العزف على المزمار. يجد تيفون موسيقاه رائعة ويصغي إليها ثم يغفو بهدوء، وينام ملء عينيه. يتذكر قصصاً تروي كيف أن زيوس أمر بخطف عدد من الفانين لأنهم سحروه بالموسيقى والشعر، يريد أن يفعل ما فعله زيوس ويقترح على قدموس أن يكون مغنيه، ليس مغنيَّ النظام الأولمبي بل مغنيَّ خواءِ تيفون. يقبل قدموس بشرط أن يمتلك آلة ممتازة، آلةً تسمح له أيضاً بالغناء. يسأل تيفون: «إلام تحتاج؟» يجيب قدموس: «أحتاج إلى أوتار لأجل كنّارتي Lyre». «عندي ما تريد: أوتار هائلة» يذهب تيفون حالاً يبحث عن أعصاب زيوس. ينبري قدموس يعزف بطريقة مدهشة إلى حد المطلق، فينام تيفون. يغتنم زيوس هذه الفرصة فيستعيد أوتارَ الآلة، بل أعصابَه هو، ويعيدها إلى أماكنها، ويلتقط الصاعقة ويستعد من جديد للمعركة. وعندما يستيقظ تيفون الملكُ النقيض والنسخةُ المضادّة لحاكم العالم يتمكن زيوس، وهو يمتلك كامل عتاده، من مهاجمته مجدداً ويهزمه.

وهناك قصة أخرى تؤدي فيها الحيلة دورها بالطريقة نفسها، ولكن تيفون لم يعد يُنظَر إليه فيها بوصفه حيواناً متعدد الأشكال أو نُصْباً هائلاً، بل هو حيوان مائي على هيئة حوت رهيب يشغل كامل الفضاء البحري، يعيش في كهف بحري حيث تستحيل محاربته لأن صاعقة زيوس لا تبلغ عمق البحر. ومن جديد تقلب الحيلة الوضع؛ فلما كان تيفون حيواناً له شهية عظيمة إلى الطعام يُحضِر هرمس ربّ الصيادين ـ وهو الذي علم ابنه بان Pan طريقةَ صيد الأسماك ـ وجبةً من السمك

طُعماً للوحش البحري. يخرج تيفون من كهفه ويملأ كرشه حتى إنه لا يستطيعُ العودة إلى مأواه بسبب انتفاخه خلافاً لرغبته. ويُضْحي، وقد وقع على الشاطئ، هدفاً مثالياً لزيوس الذي لا يجد أي عناء في صَرعِه.

تتضمن هذه الحكاية نوعاً ما الدرسَ نفسه: في اللحظة نفسها التي تبدو فيها السلطة قد توطدت نهائياً تنبثق أزمة في السلطة العليا. تنبثق قدرة تمثل كل ما كان النظام قد أُسس ضدّه من الخواء، إلى الخلط، إلى الفوضى، وتهدد سيد العالم. يبدو زيوس أعزل من السلاح، ويتوجب عليه أن يستدعي شخصيات ثانوية ليعود إلى العرش ثانية. وهذه الشخصيات، التي لا يوحي مظهرها بالثقة ولا بالخوف منها، لا ترعب قوى الفوضى التي لا تتوجس منها. ومع ذلك، وبفضل حِيَلهم، تسمح هذه الآلهة الصغيرة أو هؤلاء الفانون البسطاء الذين لا يَعْدُون أن يموتوا أخيراً، تسمح لزيوس أن يصعد ثانية ويحتفظ بالسلطة العليا.

هل حصل زيوس أخيراً على الهيمنة النهائية؟ ليس بعدُ. فالحقيقة أنه ما تزال لقصة تأسيس زيوس سيادَته تتمةٌ على شكل معركة مع شخصيات تدعى الجبابرة Géants.

الانتصار على الجبابرة:

الجبابرة كائنات ليست إنسانية تماماً ولا إلهية، بل تقع في موضع متوسط. وهم محاربون شبان يرمزون في الكون إلى المهمة الحربية والنظام العسكري في مواجهة نظام زيوس الملكي. يشبهون ذوي الأذرع المئة الذين ينطوون أيضاً على مظاهر القوة الحربية بالقوة والعنف اللذين يستخدمونهما. وقد رأينا أن ذوي الأذرع المئة انحازوا إلى زيوس وخضعوا له وقبلوا سلطته. لكن الجبابرة الذين يمثلون قوة الأسلحة والعنف الصِرف وقوة الجسد والشباب الطبيعي يبلغون بسبب هذه المؤهلات حدَّ التساؤل: لماذا لا يقبضون على زمام السلطة العليا. وهذا هو الموضوع الرئيس في حرب الجبابرة. هذه الحرب محفوفة جداً بالمخاطر لأن الأرض هي التي ولدتهم هم أيضاً. وفي كثير من الحكايات نرى الجبابرة يولدون من أرض مباشرة في هيئة محاربين بالغين سلفاً،لا أطفالٍ صغارٍ أو صِبيةٍ، ولا مسنين فضلاً عن ذلك. يتمثلون شباباً خرجوا لتوِّهم من أرض محاربين شبّان مكتملين. يأتون إلى العالم مدججين بكامل سلاحهم: الخوذة على الرأس، والحربة بيد، والسيف بالأخرى. وما إن يولدوا حتى يتقاتلوا، ثم يتحدون ويدخلون في حرب ضد الآلهة. وفي هذا الصراع الذي وُصف غالباً ومُثِّل، يُرى الأولمبيون وقد تدخلوا ضد الجبابرة، وكلٌّ من أثينا وأبولون Apollon وديونيزوس

Dionysos وهيرا Héra وأرتيميس Artémis وزيوس يحارب بأسلحته الخاصة؛ ولكن جيا تشرح لزيوس أن الآلهة لن تبلغ هزيمة خصومها. والواقع أن الأولمبيين، رغم أنهم قد أوقعوا خسائر فادحة في خصومهم، لا يتوصلون إلى إفنائهم، والجبابرة يهاجمون دوماً رغم الجراح والخسائر التي يُمْنَون بها.

إن قدرة الجبابرة قُدرة جيلٍ من العمر واحدٍ يتجدد دائماً، فالشبان على مشارف الحياة العسكرية، والآلهة بحاجة إلى كائن غير إلهي لينتصروا عليهم. وهكذا يجد زيوس نفسه ثانية مجبراً على الاعتماد على مخلوق فانٍ ليهزم الجبابرة، ربما يحتاج إلى فانٍ، والسبب بالضبط هو أن لهؤلاء الجبابرة الشبان الذين لم يكونوا البتّة أطفالاً، ولن يكونوا هرمين مطلقاً، مظهرَ الكائنات البشرية. وهم يحاربون الآلهة دون أن يستطيع هؤلاء إفناءَهم لأنهم في منتصف الطريق بين الفناء والخلود، ووضعهم ما يزال ملتبساً كالشاب في ريعان شبابه؛ لم يصبح بعد رجلاً،و لكنه لم يكن طفلاً، وهكذا هم الجبابرة.

الثمار الوقتية:

يضمن الأولمبيون لأنفسهم دعم هيراكليس Héraclés ليمارسوا فعلهم على وجهٍ حسن. لم يصبح هذا الأخير إلهاً بعدُ، ولم يصعد إلى الأولمب، إنه ببساطة ابن علاقة زيوس بامرأة فانية تدعى ألكمين Alcméne، وهو نفسه فانٍ. إن هيراكليس هو الذي سيجلب الأذى على عرق الجبابرة، على عشيرتهم، على شعبهم. والحال أنه رغم الأضرار لمّا يُسوَّ النـزاع. ومرة أخرى تؤدي جيا دوراً ملتبساً لأنها لاتريد لهذه الكائنات التي ولدتها بنفسها مدججين بالسلاح أن يفنَوا. تنطلق إذن بحثاً عن عشبة، عن نبتة للخلود تنجم في الليل. وتقرر أنْ تقطفها منذ الفجر لتقدمها إلى الجبابرة من أجل أن يغدوا خالدين لأنها تتمنى أن يحسب الأولمبيون حساب هذا الشباب المتمرد، وأن يتألفوا معهم ولا يكونوا قادرين على إفنائهم. لكن زيوس، وقد أخطِر بنية جيا، يستطيع أن يسبقها. وقبْل أن يبزغ الفجر بالضبط ويغزوَ النورُ الأرضَ وتغدوَ النبتة مرئية بوضوح يقطفها. ومنذ ذلك الوقت لم يعد على أرض قطعة واحدة من نبتة الخلود هذه؛ فلن يستطيع الجبابرة إذن التغذي بها، ولا محالة هالكون.

ويضم هذا التفصيل عنصراً آخر ينسب أحياناً إلى قصة الجبابرة، وأخرى إلى قصة تيفون؛ إذ يروى أن تيفون كان يبحث عن الفارماكون، أي عن شراب هو سمٌّ ودواء معاً. وهذا النوع من الشراب ـ الدواء الذي يمكن أن يميت أو ينقذ من المرض تقتنيها

المواريه Moirai، وهي آلهة مؤنثة تترأس تقسيم الأقدار. وهن اللاتي يُحضِرن إلى تيفون عقاراً زائفاً مؤكداتٍ له أنه يمنح الخلود، ويَعِدْنه بقدرة وطاقة مضاعفتين عشر مرات، وبالنصر على زيوس. يبتلع تيفون الشراب، وأما عقار الخلود فقد جعلته الإلهات يتناول بدلاً منه ما يسمى «الثمرة الوقتية»، أي النبتة المخصصة للفانين، وهو طعام البشر الذين يَحيون يوماً بيوم، والذين تتآكل قواهم. إن الثمار الوقتية هي علامة الفناء. وبدلاً من شراب الآلهة وغذائهم، وبدلاً من دخان الأضاحي الذي يُصعده الناس إلى الآلهة، يجعل هذا الغذاء تيفون هشّاً كإنسان، ولذلك تعرف الجبابرة التعب والعطب، ولا تملك الحيوية الثابتة والحياة الأبدية للآلهة.

يُرى كيف أنه تستقر في خلفية كل هذه القصص فكرةُ كونٍ إلهي مزودٍ بالامتيازات الخاصة؛ فالشراب والطعام الإلهيان هما العلامة الغذائية للفانين. منح زيوس للسيكلوبات ولأولي الأذرع المئة طعامَ الخلود كي يصبحوا آلهة مستقلة تماماً ويقفوا إلى جانبه، وعلى العكس، يقدم زيوس لكل الطامحين في السلطة العليا غذاء مؤقتاً هو ما يأكله الفانون الذين مصيرهم العطبُ. وعندما لا يبدو النصر أكيداً في خلال الصراع لا يتردد زيوس ليقلب النصر إلى جانب الأولمبيين في إطعام خصومه ما يجعلهم ضعفاء كالناس.

في محكمة الأولمب:

أخيراً، وعقِب الانتصار على الجبابرة، يمكن أن نقول إن انتصار زيوس تأكّد حقيقةً: الآلهة التي حاربت إلى جانبه يتمتعون إلى الأبد بامتيازات يستفيدون منها، ولهم السماء التي هي مكان لا يعرف إلا النورَ، النورَ المحض. وفي أسفل العالم الليلُ والظلمات، التارتار أو الهاديس. الآلهة مغلوبة هناك، الكائنات الخرافية الرهيبة مسيطرة، والجبابرة الذين استحالوا إلى الجمود موثقون أو نائمون مثل كرونوس. إنهم على نحو من الأنحاء خارج الفعل وخارج النظام. وبالإضافة إلى الآلهة يضم العالم الناسَ والحيواناتِ. هذه المخلوقاتُ تعرف كلُّها الليلَ والنهار، والخيرَ والشر، والحياةَ والموت. حياتهُم معدَّة للموت كالأغذية المستهلَكة التي يلتهمونها.

يمكن أن نفكر ونحن نراقب سير الأحداث: من أجل أن يوجد عالم متفاوت مع تراتُبِيّته ونظامه وجب أول فعل للتمرد، وهذا ما أنجزه كرونوس عندما خصى أورانوس. في تلك اللحظة دعا أورانوس على أولاده بلعنة تهددهم بذنب يجب تكفيره. وهكذا فإن مسير الزمن مسير متعثر يترك مجالاً للشر والانتقام للإيرينات رباتِ الانتقام اللاتي

يكفِّرن عن الذنوب، وللكير Kéres جنيات الموت. إنها قطرات الدم التي سالت من العضو المبتور لأورانوس تلك التي ولدت قوى العنف على امتداد العالم كله. لكن الأمور أكثر تعقيداً وإبهاماً؛ فبين القوى الليلية التي تحاصر الكون بسبب أول عمل تأسيسي لكون منظم، وهو بتر عضو أورانوس، وبين قوى الاتفاق، هناك نوع من الرباط: الإيرينات والجبابرة وحوريات الحرب من جهة، ومن جهة أخرى أفروديت.

وَلد خواء ليل، وولد ليل كل قوى الشر، هذه القوىالشريرة هي أولاً الموتُ وإلهات القدر Parques وجنيات الموت والجريمة والقتل والمذابح، وهي أيضاً كل أنواع السوء: **الوحشة والجوع والتعب والصراع والشيخوخة**. وبين اللعنات التي تنيخ على الكون يجب أن نعد الخديعة Apaté والوصال العشقي Philotés.

إن ليل هو الذي أنجبها إلى جانب جريمة وقتل. تتساقط كل هذه الأنواع من «النساء السود» إلى الكون. وبدلاً من فضاء متناغم منسجم، تصنع من العالم مكاناً للرعب والجريمة والانتقام والزور. ولكن إذا التفتنا إلى نزول أفروديت فسنجد إلى جانب القدرات الإيجابية قوى شريرة، فهناك إيروسُ وهيميروس، الرغبةُ والحب. من هذا الجانب كل شيء بخير، ولكن هناك أيضاً الأكاذيبَ والخِدع Exapatai، وأفخاخَ الإغراء التي تكمن في ثرثرة الفتيات العذبة، ومن جديدالوصال العشقي.

في حركة قوى الوصال والاتفاق والعذوبة التي تتولاها أفروديت، وفي نزول قدرة ليلية تولِّد كل التعاسات الممكنة، هناك تقاطعات ومقارنات ومزاوجات؛ فمن بين أولاد ليل الأقوالُ المغرية والوصالُ العشقي كما في بطانة أفروديت.تتجاور الابتسامات الساحرة للفتيات مع الأكاذيب في وصال الحب. ويمكن للرجل المخدوع المغفَّل أن يجد هناك التعاسة. إذن ليس كل شيء أبيضَ من جانب وأسودَ من الجانب الآخر، فهذا الكون نتيجة متواصلة لخليط الأضداد.

يساهم ليل، وهويثير غضب القدرات الانتقامية، في إعادة تأسيس الصفاء لنظام جعلته الأخطاء مظلماً. وترافق أفروديتَ المنيرة، أفروديتَ الذهبية، أفروديتُ سوداء، أفروديتُ ليلية مظلمة تحوك مؤامراتها في الظلام. يُعنى زيوس جيداً، وهو يطبق النظام على العالم، بتجنيب العالم الإلهي الليلَ والظلام والخصام. يخلق سلطة من شأنها إذا تخاصم الآلهة ألاتسمح لهذا الخصام أن يتحول إلى نزاع مفتوح. طرد زيوس الحربَ من أكناف الآلهة وأرسلها إلى عالم الناس. وستؤلف كل القدرات السيئة التي طردها زيوس من العالم الأولمبي النسيجَ اليومي للوجود البشري. طلب زيوس من بوزيدون أن يبني جداراً برونزياً ثلاثياً ليبقى باب التارتار مغلقاً، وحتى لا يستطيع ليل وقوى الشر

الصعود إلى السماء. إنها تعيش في العالم بالتأكيد لكن زيوس أخذ احتياطاته.

وإن نشب شجار بين الآلهة يهدد بالتفاقم فهاهم حالاً مدعوون جميعاً إلى مأدبة عامرة. وتدعى معهم كذلك ستكس Styx التي تسرع مع إبريق من الذهب يحتوي على ماء من نهر جهنم. تتناول القوتان الإلهيتان اللتان انخرطتا في النزاع هذا الإبريقَ وتصبان الماء أرضاً وتشربان منه، وتُقسمان تحت اليمين أنهما ليستا مسؤولتين عن الشجار وأن قضيتهما عادلة. ومن البديهي أن إحداهما تكذب. وما إن تتجرع هذه التي تكذب من هذا الماء حتى تسقط في غيبوبة أشبه بالسبات العميق، وتجد حالها أقربَ إلى حال الآلهة التي قُهرت، من نحو تيفون والتيتانات، وتكف عن التنفس والنشاط والحيوية. إنها ليست ميتة لأن الآلهة خالدة، ولكنها فقدت كل ما ينبع من طبيعتها الإلهية، فلا تعود قادرة على الحركة ولا على ممارسة السلطة؛ لقد غدت خارج الفعل، إنها موجودة بطريقة ما، خارج الكون، مغلقاً عليها في سبات يبعدها عن الوجود الإلهي. وتبقى في هذه الحالة مدة طويلة جداً يسميها الإغريق «العام المديد». وعندما تفيق من غيبوبتها لن يكون لها الحق في المشاركة في الوليمة، ولا أن تتناول الشراب والغذاء الإلهيين. ليست هذه القوة الإلهية فانية ولا غير فانية بوضوح، إنها في موقع أشبه بموقع التيتان أو الجبابرة أو تيفون: إنها منفية.

وبعبارة أخرى توقَّع زيوس أخطار النـزاع في هذا العالم الإلهي المتعدد والمتنوع، وأسَّس وهو حذِرٌ، لا نظاماً سياسياً فحسب، بل نظاماً شبه قضائي حتى لا يخاطر أيُّ نزاع بأن يهز منذ ظهوره أركانَ العالم. إن الآلهة المخطئة مطرودة من الأولمب حتى تتطهر بالقصاص، ثم تفيقُ من سباتها، ولكن لن يعود لها الحق في الغذاء الإلهي. وعليها أن تصبر عشرة أضعاف مدة قصاصها. وهذا نظام الآلهة، لا نظام البشر.

داء دون دواء:

قُهر تيفون إذن وفني تحت كل ما أهاله عليه زيوس. وربما كانت جثته قد نُفيت إلى هناك حيث حُصر سابقاً التيتان، أي إلى التارتار. وهو ما يبدو مألوفاً جداً نظراً إلى أن التيفون هو ابن التارتار. وربما سيبقى يئنُّ تحت وطأة هذه الكتل الجبلية الضخمة المكدسة فوقه، وخصوصاً تحت جبل إتنا Etna. تيفون في أصول ذاك الجبل مقيداً تحت بركان يطلق من وقت لآخر دخانَه أو حممَه التي تغلي أو لهيبَه. أهي بقايا صاعقة زيوس التي ما تزال حامية؟ أم تجلٍّ لفوضوية يمثلها تيفون؟ فإن كانت هذه الفوضى هي التي تتجلى حقاً في هزات إتنا تلك، وفي تلك الحمم، ومن تلك

الأعماق حيث يأتي إلى السطح شيء يغلي، إن كان هذا كله صحيحاً، فإنه يُثبت أن ما يمثله تيفون بوصفه قوة الفوضى، لم يختف نهائياً بهزيمته، ولا حتى بعد عجزه وموته.

رواية من روايات هذه الحكاية تستحق الإشارة، وهي أنه من جثة تيفون تنطلق رياحٌ وزوابع وتجليات على سطح الأرض، وعلى سطح البحر بخاصة، وهي مما كان لتيفون أن يمثلها في الكون لو كان هو القاهرَ. فلو أن تيفون انتصر على زيوس لغزا الكونَ داء بدون دواء، شرٌّ مطلق. والآن، وقد هُزم وأضحى خارج الفعل، بقي شيء منه، لا عند الآلهة بل عند البشرية البائسة. ومن تيفون تنفجر بغتة، وبطريقة لا يمكن التنبؤ بها، رياحٌ مريعة لا تهب البتة في اتجاه واحد كالرياح الأخرى. إن النوتوس Notos ريحَ الجنوب، أو البوريه Borée ريحَ الشمال، أو الزيفير Zéphyr ريحَ الغرب، رياحٌ منتظمة ترتبط بنجمة الصباح أو بنجمة المساء. وهي من هذه الجهة بنات الآلهة. وترشد هذه الرياح الملاحين ليوجهوا أشرعتهم، وتخطّ على سطح الأرض أو الماء ما يشبه الطرق الهوائية الواسعة. وعلى الماء الذي هو مساحة لامتناهية كخواءٍ سائلٍ، تدل الرياح على الاتجاهات المأمونة للملاحة فيجد بفضلها الملاحون نجاتهم. وليست هذه الرياح منتظمة فحسبُ بل هي أيضاً رياح موسمية؛ فالبوريه تهب في وقت معين، والزيفير في وقت آخر، بطريقة تجعل الملاحين يعرفون عندما يتوجب عليهم الإبحار ما هو الفصل المواتي لرحلة في هذا الاتجاه أو ذاك.

وعلى نقيضها تماماً رياح الزوابع وهبات الرياح الملفوفة بالضباب، فعندما تسقط على سطح البحر لا يعود يُرى شيء منه، فيحدث فجأة ليل مضلِّل، فلا تبقى اتجاهاتٌ ولا معالمُ ثابتة. هذه الرياح دوّامات تشوِّش كل شيء، فلا يعود هناك شرق أو غرب، ولا أعلى أو أسفل. والمراكب، وقد فوجئت وسط هذا البحر العمائي، تتيه وتهلك غرقاً. هذه الرياح سليلة مباشرة لتيفون، وهي علامة على أنه راسخ في الكون، على الطرق البحرية أولاً، ولكن على اليابسة أيضاً. والحقيقة أن هذه الزوابع غيرَ المفهومة البتة، والتي لا يمكن التنبؤ بها، لا تقتصر على الهبوب فوق سطح الماء؛ فبينها ما يخرب كل المحصولات ويقصف الأشجار ويُفني كل الجهد الإنساني، فينعدم كلُّ ما زرعه الإنسان وما جناه بعد ما أعده وكدَّسه بصبر: إن تيفون حقاً داء بلا دواء.

نرى إذن أن انتصار زيوس لم يضع حداً جذرياً لما يمثله تيفون بوصفه قوة عمائية في الكون؛ فقد أبعده الأولمبيون عن فلكهم الإلهي ولكن إلى عالم الرجال حيث ينضم إلى الفتنة والحرب والموت. وإذا كانت الآلهة قد طردت من ساحتها كل ما ينتمي إلى

العالم البدئي وإلى الفوضى فإنهم لم يعدموه، بل أبعدوه عن أنفسهم فحسبُ. وهاهو تيفون الآن يجتاح عالم الناس بعنف شديد يتركهم محرومين من كل شيء. إ نه داء دون دواء لا يجدي معه، مرة أخرى حسب تعبير الإغريق، أيُّ استغاثة.

العصر الذهبي: الرجال والآلهة

يتبوَّأ زيوس عرشَ الكون، فالعالم منظَّم من الآن فصاعداً. تحاربت الآلهة وانتصر بعضها، وطُرد كل ما كان من شر من السماء الأثيرية، سواء قُيِّد في عالم التارتار أم أُرسل إلى الأرض، إلى عالم الفانين.

والرجال ماذا يحدث لهم؟

لا يبدأ التاريخ من بداية العالم تماماً بل من الساعة التي غدا فيها زيوس ملكاً، أي ذلك الزمانِ الذي استقر فيه العالم الإلهي، فالآلهة لا تعيش على الأولمب وحده، بل تقاسم الناس قِطعاً من الأرض، وخصوصاً في مكان من اليونان قريب من كورانث Corinthe في سهلٍ بميكونيه Mékoné حيث يعيش الآلهة والرجال معاً مختلطين يتشاركون الوجبات نفسها، ويجلسون إلى الموائد نفسها، ويحتفلون معاً، مما يعني أن كل يوم في عالم الرجال والآلهة الذين يعيشون معاً هو يوم عيد وسعادة يأكلون ويشربون ويصغون إلى ربات الإلهام Muses وهن يغنين مجد زيوس ومغامرات الآلهة، وباختصار: كل شيء على خير ما يرام.

وسهل ميكونيه هو أرض الغنى والخصب. كل شيء فيه ينبت من تلقاء نفسه. وتبعاً للمَثَل يكفي امتلاك قطعة أرض في هذا الوادي ليفجأ الغنى المرءَ لأنه لا يخضع لمصادفات الزمن الرديء وتقلبات الفصول. عصراً ذهبياً كان عندما لم يكن الآلهة والرجال قد انفصلوا بعد، عصراً ذهبياً يسمى أحياناً عصر كرونوس، عصراً سبق الزمنَ الذي بدأ فيه الصراع بين كرونوس والتيتان من جهةٍ، وبين زيوس والأولمب من جهة أخرى، لم يكن فيه عالمُ الآلهة قد استسلم بعدُ للعنف الضاري؛ إنه عصرُ السلام، زمانٌ قبل الزمان. والرجالُ الذين كان لهم مكان فيه كيف عاشوا؟ ليسوا، كما نرى فحسب، يجلسون إلى المأدبة نفسِها التي يجلس إليها الآلهة، بل دون أن يعانوا أياً من الأدواء التي تبهظ اليوم جنس الفانين الوقتيين الذين يعيشون يوماً بيوم دون أن يعرفوا ما سيكون غداً أو يذوقوا التواصل الحقيقي مع ما حدث بالأمس الذي مضى، الذين لا يكفّون عن التغير، يولدون ويكبرون، يشتدُّ عودهم، ثم يضعفون... وأخيراً يموتون.

في ذلك الزمان كان الرجال يبقون شباباً، وأذرعُهم وسُوقهم تبقى دائماً شبيهة بما كانت عليه في البداية. ولم يكن لديهم ما يعرف بالولادة بمعناها الحرفي. ربما كانوا ينبثقون من الأرض، ربما ولدتهم جيا الأرض الأم كما ولدت الآلهة، وربما ببساطة أكثر، ودون أن يكون هذا طرحاً لمسألة أصلهم، كانوا، وهم المختلطون بالآلهة، كالآلهة. في ذلك الزمان إذن لم يَعرف الرجال، وهم الشباب دوماً، الولادةَ والموت. لم يخضعوا للزمن الذي يُبلي القوى ويُشيب. وكانوا يظهرون بعد مئات السنين، وربما بعد آلافها، شبيهين بما كانوا عليه في ريعان شبابهم. كانوا ينامون ويختفون كما ظهروا. كانوا ينقطعون عن الوجود في ريعان شبابهم. إلا أن هذا الاختفاء لم يكن في الحقيقة موتاً. ولم يكن بعدُ عملٌ ولا مرض ولا ألم إذ لم يكن على الرجال فلاحة الأرض ليعملوا فيها؛ ففي ميكونيه كانت كل الأغذية والخيرات في متناولهم، والحياةُ شبيهةً بما ترويه بعض الحكايات عن الأثيوبيين: مائدة الشمس تنتظرهم كل صباح فيجدون الشراب والطعام جاهزين. ولم تكن الأغذية واللحوم جاهزة فحسبُ، ولا الحبوب تنجم من الأرض دون أن يزرعها أحد، بل كانت المآكل تقدَّم أيضاً مطبوخة. الطبيعة تعطي من تلقاء نفسها كل خيرات الحياة الأهلية الأكثر رقياً وتحضراً. وهكذا عاش الرجال في تلك الأزمنة البعيدة، كانوا يعرفون السعادة.

لم يكن النساء قد خُلقن بعدُ. وُجدت الأنثى ووُجدت الآلهة، ولكن لم توجد نساء فانيات. كان الجنس البشري كله مذكراً، لمّا يعرف الأمراض والهرم والموت والعمل، لم يعرف معاشرة النساء. وما إن تَوَجّبَ على الرجل أن يتصل بامرأة تشبهه تماماً وتختلف عنه في آن واحد، ليرزق بطفل؛ ما إن حدث هذا حتى غدت الولادة والموت حظ الإنسانية. تؤلف الولادة والموت طورين من الوجود، فإذا أُريدَ ألا يكون موتٌ وجب ألا تكون ولادةٌ.

في ميكونيه عاش الرجال والآلهة معاً مجتمعين ولكن حان وقت الانفصال. وجاءت هذه اللحظة بعد أن رتب الآلهة فيما بينهم إعادة التوزيع الكبرى. وفي أجواء العنف نظموا أولاً مسألة المراتب والامتيازات التي حُفظت لكل منهم. كانت القسمة بين التيتان والأولمبيين نتيجة صراع تفوقت فيه القوة والسيادة الفظة. وما إن انتهى التوزيع الأول حتى أرسل الأولمبيون التيتانَ إلى التارتار وأغلقوا عليهم أبواب هذا السجن الليلي السفلي، ثم استقروا كلهم معاً في أعالي السماء. ووجبت تسوية القضايا بينهم، وتولى زيوس توزيع السلطات، لا بفرض القوة، بل بفضل اتفاق

جماعي بين كل الأولمبيين. يجري التوزيع بين الآلهة، سواء عقِب نزاع مفتوح أم عقب اتفاق؛ إن لم يكن بين أنداد فعلى الأقل بين الحلفاء والأقارب المتضامنين في القضية الواحدة، المساهمين في المعركة نفسها.

عالم البشر

بروميثيوس الحاذق:

كيف يتم توزيع الأماكن بين الآلهة والناس؟ لم يعد من الممكن التفكير في اللجوء إلى العنف الفظ؛ فالناس ضعفاء جداً حتى إنه تكفي دَفعة بالإصبع لإفنائهم. والخالدون كذلك لا يستطيعون الاتفاق مع الفانين اتفاقَهم مع أندادهم. وهكذا يفرض نفسَه حلٌ لا ينبع من تزايد القوة ولا من تفاهم بين المتكافئين. يستدعي زيوس، لأجل تحقيق إجراءٍ ما، أعرجَ منحرفٍ، شخصيةً تدعى بروميثيوس لها علاقة هي الأخرى بالطريقة الغريبة التي ستُستعمل للحكم بين الآلهة والناس، لتسوية حساب القدرة بينهم. لماذا بروميثيوس هو شخصية الساعة؟ لأن في عالم الآلهة موقعاً مبهماً غير محدد جيداً، متناقضاً هو موقع التيتان. فبروميثيوس في الواقع هو ابن جابيت أخي كرونوس. إذن أبوه هو التيتان. ليس بروميثيوس حقيقة من التيتان، ولكن دون أن يكون أولمبياً كذلك، لأنه لا ينتمي إلى خيط النسب نفسه، إذ أن له طبيعة تيتانية كأخيه أطلس Atlas الذي سيعاقبه هو الآخر زيوس.

لبروميثيوس فكر متمرد، وهو ماكر وعصيّ، ودائماً سريع الانجرار إلى الانتقاد؛ فلماذا يكلفه زيوس بتسوية هذه القضية؟ لأنه، وهو التيتان دون أن يكون تيتاناً تماماً،لم يحارب مع التيتانات ضد زيوس؛ فقد اتخذ موقف الحياد، ولم يكن طرفاً في المعركة. بل يقال في كثير من الموروثات إنه ساعد زيوس، وإنه لولا النصائح التي أغدقها عليه - لأن بروميثيوس حاذق وماكر - ما كان له أن يخرج من هذه المعركة منتصراً. وعلى هذا فهو حليف لزيوس، أجل حليف له لكنه ليس منضوياً تحت لوائه؛ فهو ليس في معسكر زيوس بل مستقلٌ في ذاته يعمل لحسابه.

يتقاسم زيوس وبروميثيوس كثيراً من الملامح المشتركة على مستوى الذكاء والفكر، إذ يتميز كلاهما بفكر ثاقب ماكر، وبهذه الصفة التي ستمثّلها أثينا لدى الآلهة،و سيجسدها أوليس Ulysse لدى الرجال، ألا وهي صفة الحذق. يستطيع الحاذق أن

ينسلّ من قضية ما في حالٍ بدا الوضع له ميئوساً منه كلياً، ويجد مخرجاً حيث كل شيء مسدود. ولا يتردد لتحقيق مأربه في الكذب ونصْبِ الشِراك ليوقع بالخصوم. ويلجأ إلى كل أنواع الخبث التي يمكن تصورها. هكذا هما زيوس وبروميثيوس يشتركان في هذه الصفة. وفي الوقت نفسه هناك مسافة شاسعة بينهما؛ فزيوس ملك حاكم يركز كل السلطات في يديه، وعلى هذا الصعيد ليس بروميثيوس منافساً لزيوس. كان التيتانات خصوم الأولمبيين، وكرونوس الذي يريد أن يبقى الحاكمَ، كان خصمَ زيوسٍ عندما كان الأخير يريد الحلول محله. لكن بروميثيوس لم يفكر قطّ أن يكون ملكاً، ولم يكن في أي وقت منافساً لزيوس على هذا المستوى. ينتمي بروميثيوس إلى هذا العالم الذي خلقه زيوس، عالم توزيع الامتيازات، العالم المترتب في طبقات حسب الدرجات وحسب اختلاف المقامات، ولكنه يشغل فيه مكاناً يصعب تحديده إلى حدّ ما؛ إنه وضع معقد،و لا سيما أن زيوس سيصطفيه وسيقيده قبل أن يحرره ويصالحه، وهذا ما يسِمُ في ضميره الشخصي تذبذباً بين العداء والوفاق. وباختصار يمكن أن تقول إن بروميثيوس يعبّر في هذا الكون المنظم عن المعارضة الداخلية؛ فهو لا يريد احتلال مكان زيوس، ولكنه يمثل داخل هذا النظام الذي أسسه زيوسُ الصوتَ الخفيض للمعارضة على جبل الأولمب في داخل النظام الإلهي، كتلك المظاهرات التي قام بها الطلاب في فرنسا في أيار عام ١٩٦٨.

بروميثيوس على علاقة تواطؤ واتحاد في الطبيعة مع الناس؛ فوضعه قريب من وضعهم لأن هؤلاء أيضاً مخلوقات ملتبسة يحتفظون بجانب من الألوهة ـ يتقاسمون الوجود في البداية مع الآلهة ـ وفي الوقت نفسه بجانب من الحيوانيةوالبهيمية. هناك إذن لدى الرجال، كما عند بروميثيوس، جوانبُ متناقضة.

مباراة شطرنج:

لِنَرَ المشهدَ: اجتمعت الآلهة والرجال كالعادة، وزيوس هناك في الصفوف الأولى، ويُكلّف بروميثيوس بإجراء القسمة؛ فكيف سيجري هذا؟ يصطحب ثوراً كبيراً بهياً، يذبحه ثم يقطّعه. ويجعل هذا الحيوان حصتين لا ثلاثاً. وستعبّر كل من هاتين الحصتين،كما هيّأهما بروميثيوس، عن الاختلاف في الوضع بين الآلهة والرجال، أي أنه على حدود القَطْع سيرتسم ما يفصل الرجال عن الآلهة.

كيف يتصرف بروميثيوس؟ كما يفعلون بالأضحية الإغريقية المعتادة: الحيوان مذبوح والجلد مسلوخ؛ ثم يبدأ التقطيع: الفعل الأول هو على نحو خاصٍ تجريدُ العظام

الطويلة كاملاً، عظام الأعضاء الداخلية والخارجية التي تُشَفّى حتى لا يبقى عليها لحم. وما إن ينتهي هذا العمل حتى يجمع بروميثيوس كل العظام البيضاء للدابة ويجعلَ منها حصة، ويغلفَها بغطاء رقيق من الشحم الأبيض المشهّي. ها هي اللفافة الأولى قد لفَّت. ثم يجهز صرّة أخرى يضع فيها بروميثيوس كلَّ اللحم، أيْ كلَّ ما يؤكل. هذا اللحم الصالح للأكل مغلف بجلد الدابة. وهذه اللفافة مع الجلد الذي يحيط بكل ما يمكن أن يؤكل من الحيوان من غذاءٍ مغلفٌ بدوره بمعدة الحيوان اللزجة القبيحة التي لا تسرّ رؤيتها العين. وهكذا تقدَّم القسمة: من جهةٍ الشحمُ الأبيض المشهيّ الذي يحيط بالعظام البيضاء المشفّاة فقط، ومن جهة أخرى كرش مقزِّزة نوعاً ما، في داخلها كلُّ ما هو طيب المذاق. يضع بروميثيوس هاتين الحصتين على الطاولة أمام زيوس، وتبعاً لاختيار هذا الأخير سترتسم الحدود بين الناس والآلهة. ينظر زيوس إلى الحصتين ويقول: «آه يا بروميثيوس، أنت الماكر المخادع جداً قمت بقِسمة ضِيزي حقاً» ينظر إليه بروميثيوس مع ابتسامة خفيفة. من المؤكد أن زيوس رأى الحيلة سلفاً لكنه يقبل قواعد اللعبة. يُقترح عليه أن يختار ما يريد أولاً. وبهيئة الرضا التام يأخذ أجملَ الحصتين، الحزمةَ الملفوفة بالشحم الأبيض المشهّي. وعلى مرأى من كل الحضور يفكّ الحزمة ويكشف عن العظام البيضاء العارية تماماً، وآنذاك يصاب بغضب حانق على من أراد استغفاله.

ها قد اكتمل الفعل الأول من هذه القصة التي تتضمن ثلاثة على الأقل: في نهاية هذا المشهد الأول من الحكاية تترسخ الطريقة التي يدخل بها الرجال في علاقة مع الآلهة عن طريق الأضحية كما أنجزها بروميثيوس مقطعاً الحيوان الذبيح. وعلى المذبح، وخارج المعبد، تشتعل الطيوب التي ترسل دخاناً معطراً ثم تُلقى فيها العظام البيضاء. إن حصة الآلهة هي هذه العظام البيضاء المطلية بالشحم اللامع والتي تصعد إلى السماوات على هيئة دخان؛ أما الرجال فيتلقون بقية الحيوان التي سيستهلكونها مشوية أو مسلوقة. على أسياخ الحديد الطويلة أو البرونز يَصفُّون قطعاً من اللحم، ولا سيما الكبد وبضع قطع هامةٍ أخرى سيشوونها مباشرة على النار.وفي قدور كبيرة قطعٌ أخرى.تُشوى بعض القطع ويُسلق بعضها: على الرجال من الآن فصاعداً أن يأكلوا لحوم الحيوانات المضحّى بها، ويرسلوا إلى الآلهة حصتهم وهي الدخان المعطر.

هذه القصة مدهشة لأنه يبدو أنها تشير إلى أن بروميثيوس استطاع أن يخدع زيوس بإعطائه للناس الجزءَ الطيب من الأضحية. يقدم بروميثيوس للناس الجزءَ الذي يؤكل، المموَّه، المخفيّ تحت مظهرِ ما لا يؤكل! وللآلهة الجزءَ الذي لا يؤكل، المغلفَ، المخفيَ

المستور في هيئة الشحم المشهّي الزاهي. يتصرف بروميثيوس في قسمته بطريقة ماكرة لأن المظهر زائف، يختفي الطيب تحت القبيح، والسيىء يستعير مظهر الجميل؛ ولكن هل أعطى البشرَ حقاً الجزء الأفضل؟ هنا أيضاً كل شيء ملتبس؛ فالبشر تلقوا بالتأكيد الجزء الذي يؤكل من البهيمةِ الأضحيةِ؛ ولكن هذا يعني أن الفانين يحتاجون إلى الطعام، وشروط حياتهم تتعارض مع شروط حياة الآلهة؛ فالبشر لا يستطيعون العيش دون طعام كامل، ولن يكفُوا أنفسهم بأنفسهم، عليهم أن يستنفدوا مصادر الطاقة في العالم المحيط بهم، وبدونها سيهلكون. وما يميز الكائنات البشرية هو أنها تأكل الخبز ولحم الأضاحي وتشرب خمر العنب؛ أما الآلهة فلا تحتاج إلى الطعام، بل لا تعرف الخبز والخمر ولا لحوم الأضاحي، تعيش دون أن تتغذى، لا تتناول إلا أغذية زائفة هي الشراب والغذاء الإلهيان اللذان هما غذاء الخلود. إن حيوية الآلهة إذن من طبيعةٍ أخرى مختلفةٍ عن تلك التي للبشر. فحيوية البشر هي حيوية أدنى، ووجودهم وجود أدنى، وقوتهم كذلك طاقة من النوع الذي يختفي، وعلى هذا يجب بلا انقطاع أن يحافظوا عليها؛ فما إن يبذل كائن بشري جهداً حتى يشعر بنفسه متعَباً منهَكاً جائعاً. وبتعبير آخر فالجزء الأفضل في القسمة التي أجراها بروميثيوس هو الذي يخفي العظم المعرّق تحت مظهرٍ مُشَهٍّ. والحقيقة أن العظام البيضاء تمثل أثمنَ ما يمتلكه الحيوان أو الكائن البشري، الجزءَ الذي لا يَفْنى، فالعظام لا تفسد وتؤلف هيكل الجسم. اللحم يفسد ويتحلل. أما الهيكل العظمي فيمثل عنصر الدوام. وما ليس مأكولاً في البهيمة هو ما ليس فانياً، هو الباقي، وهو بالنتيجة ما يقترب إلى الحد الأقصى من الإلهي. والعظامُ، في نظر أولئك الذين ابتدعوا هذه القصص، مهمةٌ ولا سيما أنها تحتوي على النِقْيِ، هذا السائلِ الذي هو على علاقة بالدماغ في نظر الإغريق، وعلى علاقة بمَنّي الذكَر. إن النقي يمثل حيوية الحيوان في استمراره عبر الأجيال، ويؤمّن الخصوبة والإنجاب، وهو علامة على أنه ليس فرداً معزولاً، بل حامل للأولاد.

إن ما قُدّم في المحصلة إلى الآلهة عَبْرَ التغليف الذي ابتدعه بروميثيوس هو حيوية البهيمة؛ في حين أن ما تلقاه البشر وهو اللحم ليس إلا البهيمة الميتة، إذ على الرجال أن يقتاتوا بقطعة من بهيمة ميتة لأن خاصيّة الفناء التي تسِمهم بسبب هذه القسمة خاصية حاسمة: غدت الكائنات البشرية من الآن فصاعداً هي الفانية وهي الوقتية خلافاً للآلهة التي هي نقيض الفانية. وبقسمة الغذاء هذه دُمِغَ الكائن البشري بخاتم الفناء في حين دُمغ الآلهة بطابع الخلود، وهذا ما رآه زيوس جيداً.

ولو أن بروميثيوس قَسَم إلى قسمين فحسب، بأن جعل العظام جانباً واللحم جانباً،

لكان زيوس استطاع اختيار العظام وحياة البهيمة. لكن لمّا كان كل شيء مزوَّراً بفعل المظاهر الخادعة كاللحم المخفي في الكرش، والعظام المخفية تحت الشحم الزاهي، رأى زيوس أن بروميثيوس كان يريد خداعه، فيقرر إذن عقابه. وبداهة، في صراع الحيل هذا الذي يقوم بين زيوس والتيتان، يحاول كل منهما أن يخدع الآخر، ويلعب كل منهما مع الآخر ما يشبه مباراة شطرنج: ضربات مخاتلة لطرح الخصم أرضاً «الشاه مات». ينتصر زيوس في هذا النـزاع نصراً حاسماً. ومع ذلك فإنه مختل التوازن بسبب حيل التيتان.

نار فانية:

في غمرة المشهد الثاني سيدفع بروميثيوس ثمن غِشِّه؛ فابتداء من هذا اليوم سيقرر زيوس إخفاء النارِ، وفي الوقت نفسه القمحِ، عن الناس، وكما تجيب كلُّ نقلة الأخرى في لعبة الشطرنج،كان بروميثيوس قد أخفَى اللحم داخل ما هو مقزِّز، والعظمَ فيما كان يبدو، على العكس، معجِباً. وبالمقابل سينتقم زيوس الآن، ويريد في إطار معركة القسمة هذه بين الآلهة والرجال أن يختلس من البشر ما كان تحت تصرفهم آنفاً؛ فسابقاً كان الرجال يتصرفون بالنار بحرِّيةٍ لأن نارَ زيوس، نارَ الصاعقة، كانت في أعلى بعض الأشجار، وهي أشجار الدردار، فلم يكن على الرجال إلا أن يتناولوها. وكانت النار نفسها تدور بين الآلهة والرجال عَبْر هذه الأشجار العظيمة التي كان يضعها عليها زيوس. وهكذا كان الرجال يتصرفون بالنار كما بالأغذية وبالزروع التي كانت تنجم من تلقاء نفسها، أو اللحومِ التي تُطبَخ في اللحظة التي تظهر فيها. يخفي زيوس النار، وهو وضْعٌ شاقٌ، ولا سيما أن الرجال الذين يحصلون على لحوم الحيوانات المضحى بها يريدون طبخها؛ إذ ليس الفانون من أكلة لحوم البشر، ولا من الحيوانات المتوحشة التي تأكل اللحم النيء، إنهم لا يستطيعون أن يأكلوا اللحم إلا إذا كان مطبوخاً، مسلوقاً أو مشوياً.

البقاء دون نار! كارثة على البشر. يفرح زيوس في سره، ويجد بروميثيوس حينئذ مخرجاً من الكارثة. يصعد إلى السماء دون أن يظهر عليه أي انفعال، كمسافر يتنـزه، وبيده نبتة هي غصن شُمْرةٍ أخضرُ من الخارج. وللشمرة وضع خاص فإن بنيتها تمثل، بطريقة ما، نقيضَ الأشجار الأخرى؛ فالأشجار جافة من الخارج، من جانب القشرة، رطبة في الداخلِ حيث يدور النسغ؛ والشمرة على العكس رطبة خضراء من الخارج، لكنها جافة تماماً في الداخل. يستولي بروميثيوس على بذرة من نار زيوس ويدفعها إلى

داخل شمرته. تبدأ هذه بالاشتعال في داخلها على امتداد ساقها. وينـزل ثانية إلى الأرض، ودائماً على هيئة مسافرٍ لا مبالٍ يتنـزه تحت مظلة شمرته، لكن النار تشتعل داخل النبتة. يعطي بروميثيوس هذه النار التي استمدها من بذرة النار السماوية إلى البشر. فيشعلون مواقدهم ويطبخون اللحم. وفجأة يرى زيوس المتمدد في أعلى السماء راضياً بالضربة التي سددها بإخفائه النار، بريقاً في كل البيوت فيستولي عليه الحنق. ويلاحظ هنا أن بروميثيوس يسلك السلوك نفسه الذي سلكه سابقاً فيما يخص قسمة الأضحية، إذ يعزف من جديد على وتر التناقض بين الداخل والخارج، على الاختلاف بين المظهر الخارجي والحقيقة الداخلية.

و في الوقت نفسه الذي أخفى فيه زيوس النار عن البشر أخفى الحياة. الحياة تعني غذاء الحياة، الزروع، القمح، الشعير، فلم يعد يعطي ناراً ولا مزروعات كذلك. في زمن كرونوس، في عالم ميكونيه،كانت النار تحت تصرُّف البشر، وذلك في أعالي أشجار الدردار. وكانت المزروعات تنجم وحدها، ولم يكن من الضروري فلاحة الأرض. ولم يكن ثمة عمل ولا حراثة. لم يكن على المرء أن يساهم بحيويته في جَني غذائه، لم يعان الجهد ولا التعب ولا الإنهاك للحصول على الأغذية التي تتوقف عليها تحديداً حيويته، أما الآن، وباختيار زيوس، فقد غدا ما كان تلقائياً بالأمس متعباً صعباً؛ فقد اختفى القمح.

وبالطريقة نفسها التي توجَّبَ بها على بروميثيوس إخفاءُ بذرة النار في شمرته لنقلها إلى البشر، سيتوجب عليه منذ الآن، نحو البشر الفقراء، إخفاءُ بذرة القمح والشعير في بطن الأرض. ففي جوف الأرض يجب حفْرُ أخدود وطمْرُ البذرة حتى تنبت السنبلة. وباختصار فإن ما أصبح فجأة ضرورياً هو الزراعة. والهدف هو الحصول على القمح بعَرَقِ الجبين الذي يرشَح على الأخاديد والبذورُ تُرمى فيها. ولكن سيتوجب أيضاً الحرص على هذه البذور من سنة إلى أخرى، وسيتوجبُ ألا يؤكَل كل ما يُنتج. وستكون الجِرار ضرورية لتخزن في بيت الزارع المحاصيلُ التي لا يجب استهلاكها كلها. ولن يكون مفرٌّ من الاحتياط حتى لا يجد الرجال أنفسهم ثانية محرومين من الطعام في الربيع، في الفاصل الصعب بين الشتاء والمحصول الجديد.

وكما كانت بذرةُ النار فهناك بذرة القمح: على البشر أن يعيشوا منذ الآن وهم يعملون. حقاً يجدون ثانية ناراً، لكنها نار،كالقمح، ليست تلك التي وُجدت سابقاً؛ فالنار التي أخفاها زيوس هي النار السماوية، هي النار المتاحة دائماً. إنها نار لا تنضب البتة ولا تفنى، أي النار الأبدية. أما النار التي في متناول الرجال الآن، منذ بذرة النار

تلك، فهي نار «مولودة» نظراً إلى أنها سليلة بذرة، وبالتالي: نار تموت. وستتوجب حمايتها والسهر عليها؛ وعليه فإن النار تملك شهية كتلك التي للفانين، فإن لم تغَذَّ باستمرار انطفأت. والناس بحاجة إليها، لا ليتدفؤوا فحسب، بل كذلك ليأكلوا؛ فخلافاً للحيوانات لا يأكل الرجال اللحوم النيئة بل يطبخونها. وسيتبع هذا الطبخَ مجموعةُ طقوس، ولها قواعد يجب التقيد بها تَفرض أن تكون الأغذية مطبوخة.

والقمح في نظر الإغريق نبات يطبخه قيظُ الشمس ولكنْ أيضاً بتعبِ البشر. ثم يجب خبزه عند الخباز بوضعه في الفرن؛ فالنار إذن علامة على الثقافة الإنسانية إذ أن هذه النار البروميتية التي اختلسها بالحيلة هي نارٌ تقنية، عملٌ عقلي يميز الرجال من البهائم، وتخصُّهم بوصفهم كائنات متحضرة. ومع ذلك لما كانت هذه النار إنسانية، على نقيض النار الإلهية، فهي بحاجة إلى أن تتغذى لتعيش، وترتدي كذلك مظهر حيوان متوحش لا يستطيع أن يتوقف حين يفلت من عقاله. إنها تشوي كلَّ شيء، لا الغذاءَ الذي يقدَّم إليه فحسب، بل البيوتَ والمدن والغابات؛ إنها نوع من الوحش الضاري الجائع لا يُشبعه شيء. وتدل النار بطبيعتها المبهمة إبهاماً خارقاً للعادة على خصوصية الإنسان؛ إنها تذكّر دون انقطاع وفي آن معاً بأصله الإلهي وسِمَتِه الحيوانية، فهي تتعلق بالاثنين كالإنسان نفسه.

باندورا Pandora أو ابتداع المرأة:

في الوقت الحاضر يمكن أن نعتقد أن القصة قد اكتملت. ولكن لا شيء من هذا؛ فالفعلِ الثالث يبدأ. حقاً يمتلك الرجال الحضارة، وسلّمهم بروميثيوس كل التقانات. وقبل أن يتدخل كان الرجال يعيشون كالنملِ في الكهوف. كانوا ينظرون دون أن يروا، ويُصغون دون أن يسمعوا؛ لم يكونوا شيئاً. ثم بفضله أصبحوا كائنات متحضرة تختلف عن الحيوانات والآلهة. لكن حرب الحيَلِ بين زيوس وبروميثيوس لم تنته. أخفى زيوس النار فسرقها منه بروميثيوس، أخفى زيوس القمح فالرجال يعملون ليحصلوا على خبزهم. لكن زيوس لمّا يكتفِ، ويرى أن سقوط خصمه ليس كلياً. يحتفظ زيوس وهو يقهقه، كما يحب أن يفعل، بخيبة أمل جديدة، وهاهو الفعل الثالث.

يستدعي زيوس هيفايستوس وأثينا وأفروديتَ وآلهةً صغرى كالحوريات Horai، ويأمر هيفايستوس أن يبلل الطين بالماء ويكيّفه تمثالاً على صورة امرأة parthénos، أو بدقة أكثر، امرأةٍ شابة، امرأةٍ في سن الزواج لكنها لمَا تتزوج، وعلى نحوٍ أخصَّ امرأةٍ

ليس عندها أطفال. فيشرع هيفايستوس حينئذ في صوغ نوع من التمثال، من النُصُب، بملامحَ لطيفةٍ لعذراءَ جميلة. وفي هذه اللحظة يأتي دور هرمس ليبعث الحياة فيها ويضفي عليها قوةَ كائن بشري وصوتَه وكذلك بعضَ الخصوصيات التي ستكون موضع بحث فيما بعد في الحكاية. ثم يطلب زيوس من أثينا وأفروديت أن تُلبسا التمثال وأن تغمرا جماله ببريق الحلي المقرونة إلى الجسد المؤنث: الزينةِ والحلي ورافعة النهدين والتيجان. تُلبسه أثينا كساء بهياً لامعاً كالشحم الأبيض الذي كان يغلف العظام في المشهد الأول من هذه الحكاية، فتزهر العذراء الشابة بكل نيرانها، ويطرح هيفايستوس على رأسها تاجاً يتفرع منه حجاب امرأة متزوجة. وهذا التاج مزين بإطار حيواني تتمثل فيه كل الحيوانات التي تستوطن العالم من طيور وأسماك ونمور وأسود. ويُشعّ جبين المرأة الشابة بحيويةِ كلِّ الحيوانات؛ إنها بهية المنظر، أعجوبة تتركك مرتعداً من الذهول، مفتوناً كلية.

تقف المرأة الأولى هناك أمام الآلهة والرجال الذين مازالوا مجتمعين. إنها تمثال مصنوع لكن ليس على صورة امرأة لأنه لم توجد بعدُ امرأة، إنها المرأة الأولى، المثال الأول archétype للمرأة. وُجدت الأنثى قبل الآن لأنه وُجدت إلهات؛ أما هذا الكائن المؤنث فمشكّل على صورة الإلهات. تَخلق الآلهةُ كائناً من تراب ودم أودِعت فيه قوةُ رجل وصوتُ كائن بشري، لكن هرمس يضع أيضاً في فمها كلماتٍ كاذبةً، يمهرها روح كلبة وجِبِلّة سارق. هذا التمثال الذي هو المرأة الأولى التي يتناسل منها كل «عِرْق النساء» يتمثل كأجزاء القربان أو الشُمرة بمظهر خارجي خداع. لا يمكن تأمُّلُها دون الانبهار بها والذهول أمامها. تملك جمال الإلهات الخالدات، ومظهرها إلهي يخطِف البصر كما يقول هزيود. جمالها الذي تزيده الحلي والتاج والثوب والحجاب تألقاً جمالٌ باهر، منها يُشعّ السحر، سحرٌ بلا نهاية، بريقٌ يغمر ويقهر من يراها. إن سحرها لا متناهٍ متعددٌ يَسقط الرجالُ والآلهة تحته. إلا أن شيئاً آخر يختفي في داخلها، صوتها يعِد الرجل بأنها ستصبح رفيقته وزوجه الإنساني، إنهما سيتحادثان، لكن الكلام مُنح لهذه المرأة، لا لتقول الحقيقة وتعبر عن مشاعرها، بل لتقول الكذب وتموّه به انفعالاتها.

في نزول ليل كانت كل الشرور قد ولدت: الموت والجرائم وحوريات الانتقام بداهة، ولكن أيضاً كائنات يمكن ترجمتها إلى (كلمات كاذبة أو مغرية... وصال وحنان عشقي). على أن أفروديت منذ ولادتها رافقتها كذلك كلماتٌ كاذبة وجاذبية عشقية. ويجتمع الأكثرُ إظلاماً والأكثر إشراقاً وما يَشِعُّ سعادةً والصراعُ الأكثر سواداً، يجتمع كل هذا في صورة هذه الأكاذيب وهذا الإغراء العشقي؛ هاهي إذن باندورا

مضيئةً على طريقة أفروديت، وشبيهةً بولد من أولاد ليل مصنوعةً من الأكاذيب والدلال. يخلق زيوس هذه المرأة، لا للآلهة بل للفانين وحدهم. وكما تخلَّص من الخصام والعنف بإرسالهما إلى عالم الفانين يرسل إليهم هذه الصورة المؤنثة.

يرى بروميثيوس نفسه ثانية مقهوراً. يفهم حالاً ما يهدد الجنس البشري المسكين الذي حاول إيثاره. وكما يدل اسمه (Pro - méthée) فهو الذي يفهم مسبقاً ويرى الأمور قبل أن تقع؛ في حين أن أخاه (Épi - méthée) يفهم متأخراً فإن «Épi» تعني «متأخراً جداً»، أي الذي هو مغرَم وخائب، الذي لا يرى شيئاً مما يأتي. ونحن الآخرين الفقراءَ التعساء الفانين بروميتيون دائماً وإيبيميتيون في آن واحد، نستبق رؤية الأمور، ونهيىء مخططات، وغالباً ماتسير الأمور بعكس ما نتوقع، تفاجئنا وتتركنا دون قدرة على الدفاع. إذن يفهم بروميثيوس ما سيجري قريباً ويُخطر أخاه: «أصغ إليّ يا إيبيميثيوس: إن أرسلت لك الآلهة في أي وقت هديةً فلا تقبلها وأعِدْها إلَى حيث صدرت». يُقسم إيبيميثيوس أنه لن يقبل شيئاً منها. ولكنْ هاهم الآلهةُ المجتمعون يرسلون إليه الشخص الأكثر سحراً: هاهي باندورا أمامه هديةُ الآلهة إلى البشرية تقرع بابه. يفتح لها الباب وهو ذاهل مفتون ويُدخلها مسكنه. وفي الغد كان تزوجها، واستقرت باندورا زوجةً لدى الجنس البشري. وهكذا تبدأ كل المآسي.

الإنسانية الآن مزدوجة فلم تعد مؤلفة من جنس واحد بل من جنسين مختلفين، جنسين كلاهما ضروري للتناسل الإنساني. وابتداء من اللحظة التي أنتجت الآلهة فيها المرأة لم يعد الرجال يوجدون دفعة واحدة بل يولدون من النساء، وعلى الفانين أن يتزاوجوا من أجل أن ينجبوا أنفسهم، وهو ما يطلق حركةً في الزمان مختلفةً.

لماذا، تبعاً للحكايات الإغريقية، كان لباندورا المرأةِ الأولى قلبُ كلبة وجِبِلَّة لص؟ ليس الأمر منفصلاً عن الجزأين الأولين من هذه الحكاية؛ إذ لم يعد القمح والنار في متناول الرجال كما كان الأمر سابقاً تلقائياً تماماً دون جهد وباستمرار؛ أضحى العناء من الآن فصاعداً جزءاً من الوجود. والرجال يزاولون حياة صعبة ضيقة مؤقتة؛ عليهم دون انقطاع أن يقتصدوا من نفقاتهم. الفلاح في حقله ينقصم ظهره ولا يجني شيئاً ذا بال، ولا يتمتع الرجال بأي خير إلى حد الكفاية، ولذا وجب عليهم أن يكونوا مقتِّرين حذِرين ألا ينفقوا إلا ما هو ضروري. على أن لهذه «الباندورا»، مثلَ كل عرق النساء المؤنثات التي هي سلالتها بالضبط، خصيصةَ عدم الرضاء واللجاجةِ والاغتلام. لا تقنع بالقليل المتاح، تريد أن تشبع إلى التخمة. وهذا ما تريد أن تعبر الحكاية عنه حين تحدد أن هرمس وضع فيها روح كلبة. إن كلبيّتها ذات نوعين؛ فهي أولاً كلبية طعامية إذ أن

لها شهية ضارية، لا تتوقف عن الطعام، يجب أن تكون دائماً إلى المائدة، ربما بسبب ذكرى مبهمة لها، أو أنها تحلم بالعصر الذهبي، العصر المبارك في «ميكونيه» حيث كان الرجال دائماً إلى الموائد دون أن يكون لهم شيء يفعلونه. وفي كل عش زوجي حيث هناك امرأة، هناك جوع جشِع لا يبرح، جوع يلتهم. وبهذا المعنى فالوضع يشبه ما يجري في خلية النحل؛ فمن جهة هناك نحلات عاملات يطرن منذ الصباح إلى الحقول، يقعن على كل الأزهار ويجنين العسل الذي يصحبنه إلى خليتهن، ومن الجانب الآخر هناك ذكور النحل التي لا تترك قط مساكنها، والتي لا تشبع البتة، هي الأخرى، فتلتهم كل العسل الذي جَنَتْه العاملات من الخارج بشق الأنفس. وكذا في البيوت البشرية: من جهةٍ هناك الرجالُ الذين ينضحون عرقاً في الحقول، وتنقصم ظهورهم ليحفروا الأخاديد ويسهرون على حبوبهم ثم يجنونها. ومن الجانب الآخر هناك النساء اللواتي، كذكور النحل، يلتهمن كل المحصول.

لا تكتفي المرأة بأن تلتهم وتستنفد كل ما يدَّخره الرجل فإن هذا هو السبب الرئيس الذي تبحث لأجله المرأة عن إغراء الرجل. ما تريده المرأة هو مستودع الحصيد، هو الهُرْي؛ فببلاغة أقوالها المغرية وروحها الكاذبة وابتسامتها و«ردفيها المبهرجين»، كما يكتب هزيود، تتمثل أمام الشاب العازب في هيئة الإغراء لأنها في الواقع تتشوف إلى مخزون القمح. وكل رجل، كما هي حال إيبيميتوس قبله، يستسلم لإغرائها ذاهلاً كلية، مأخوذاً بمظاهرها.

ولا تقتصر بلية النساء على هذه الشهية الغذائية التي تقوض صحة أزواجهن لأنه لا يأتي إلى بيته مطلقاً بما يكفي من الغذاء، بل لهن فضلاً عن ذلك شهوة جنسية ضارية بوجه خاص. إن كليتمنستر Clytemnestre وزوجاتٍ أخريات معروفاتٍ بخداع أزواجهن لم يكففن عن القول إنهن كنّ الكلبة التي تحرس المنزل. ومن المفهوم أن هذا الجبلة الكلبية يجب أن تُحمل على معناها الجنسي. النساء، حتى فُضلياتهن، أي اللواتي لهن طبيعة متزنة، لهن خصوصاً، كما يروي الإغريق، المزاجُ الذي ينتمي إلى الكون الرطب لأنهن جُبلن من الطين والماء، في حين أن الرجال لهم مزاج ينتمي إلى الجاف، إلى الحار، إلى النار.

وفي بعض المواسم، وخصوصاً في الموسم الذي يسمى حَمَارَّة القيظ، موسم الكلْب، أي عندما يكون سيريوس Sirius، أي الكلبُ، مرئياً في السماء قريباً جداً من الأرض، عندما تتعانق الأرض والسماء، عندما يشتد الحر بفظاعة، يضعف الرجال ويُستنـزَفون، وهم الذين خُلقوا جافّين. أما النساء فعلى النقيض، فبفضل رطوبتهن

يتفتحن، ويُلححن على أزواجهن المواظبةَ على واجباتهم نحوهن، وهذه المواظبة تنهكهم.

وإذا كان بروميثيوس قد دبَّر حيلة أودتْ إلى سرقة نار زيوس فإنه جلب على نفسه رداً تجسِّده المرأةُ مرادفةُ النار، السارقةُ التي خلقها زيوس لإرباك الرجال. والحق أن المرأة الزوجة نار تحرق زوجها باستمرار يوماً بعد يوم، تجففه وتُهرمه قبل الأوان. باندورا هي النار التي أقحمها زيوس في البيوت والتي تحرق الرجال دون أن تحتاج هي إلى أي شعلة كانت، نار سارقة تتجاوب مع النار التي كانت قد سُرِقت.

ما العمل في هذه الظروف؟ لو لم تكن المرأة إلا روحَ الكلب تلك، إلا هذه الكذبةَ التي تنظر من طرف إلى الهُري «بردفيها المبهرجين»، والتي تصدِّع الأزواج بالشيخوخة، لو لم تكن إلا هذه، لربما بحث الرجال عن الاستغناء عن الزوجات. ولكن الداخلِ والخارج يتعارضان هنا أيضاً؛ فالمرأة بشهيتها الحيوانية، الطعاميةِ والجنسية، كرشٌ، بطنٌ، إنها تمثل إلى حد كبير حيوانيةَ الجنس البشري، نصيبَها من البهيمية. ولما كانت بطناً فهي تبتلع كل ثروات زوجها. وعندما غلف بروميثيوس كرشَ الثور، حصةَ الطعام التي خصَّ بها الرجال، لم يكن يعتقد أنه يفعل خيراً فقد كان مأخوذاً آنذاك بحيله الخاصة. والمأزق منذ ذلك الحين هو التالي: إذا تزوج رجل ما فستكون حياته جحيماً شبه مؤكد إلا إذا وقع على امرأة طيبة جداً، وهذا نادر جداً. الحياة الزوجية جحيم إذاً تضاف فيه الشرور إلى الشرور. وبالمقابل إذا لم يتزوج أمكنه أن يعيش حياة سعيدة ويشبع ولن ينقصه شيء أبداً؛ ولكن إلى من ستؤول في ساعة الموت ثروتُه التي جمعها؟ إنها ستتبدد، وستذهب إلى أيدي الأقرباء الذين لا يُكنُّ لهم أي ودّ خاص. إن تزوج فهذه هي الكارثة، وإن لم يفعل فهاهو شكل آخر للكارثة.

المرأة مزدوجة، إنها هذه المعدة، هذا البطن الذي يلتهم كل ما جناه زوجها بشق النفس، بنصَبه وتعبه. إلا أن هذا البطن أيضاً هو الوحيد الذي يمكنه أن ينجب ما يمد في حياة الرجل: الولدَ. يمثل البطن بطريقة متناقضة الجزءَ الليلي من الحياة الإنسانية، الاستنزافَ، ولكنه كذلك جزءُ أفروديت، أي ما يحمل الولادة الجديدة. تمثل الزوجة النهَمَ الذي يُفني والخصوبة التي تُنتج؛ إنها تلخص تناقضات وجودنا كلها. إنها كالنار علامة على خصوصية الإنسان لأن الناس هم الوحيدون الذين يتزوجون. يميز الزواج الناس من الحيوانات التي تتلاقح كما تأكل، بمصادفة الظروف، دون أن يهمها كيف يجري ذلك. المرأة إذن هي علامة الحياة المثقفة، وهي في الوقت نفسه مخلوقة على صورة الإلهات الخالدات؛ فعندما ننظر فيها نرى أفروديت وهيرا. وعلى نحو من

الأنحاء هي بجمالها وإغرائها وسحرها وجودُ الإلهي على هذه الأرض. تجمع المرأة كلبيةَ الحياة الإنسانية وجزءَها الإلهي. إنها تترجح بين الآلهة والحيوانات، وهذه هي الصفة الخاصة بالإنسانية.

الزمن الذي يمضي:

لنعدْ إلى القصة بطريقة أكثر حكائية: دخلت باندورا بيت إيبيثيميوس وغدت الزوجة الإنسانية الأولى. يوشوش زيوس في أذنها ما يجب أن تفعله. في منزل ايبيثيميوس، كما في منـزل كل زرّاع إغريقي كمية من الجرار، وبينها واحدة كبيرة مخبأة لا يجوز مسُّها. من أين أتت هذه الجرة؟ يقال إن بعض الساتير Satyres هم الذين جلبوها، لكن هذا ليس أكيداً. ذات يوم، وفي أثناء خروج زوجها، يهمس زيوس في أذن باندورا أن تفتح هذه الجرة، ثم تضعَ حالاً السِّدادَ دون انتظار. وهكذا تفعل باندورا، تقترب من الجرار الكثيرة جداً، بعضها يحتوي على الخمر، وبعضها على القمح أو الزيت، كلُّ المدخرات الغذائية مجموعة هناك. ترفع باندورا غطاء الجرة المخفية، وفي لحظتها تنتشر كل الشرور وكل الأمور السيئة في العالم. وفي اللحظة التي تعيد فيها باندورا الغطاء يبقى في الداخل ما يسمى الأملَ، انتظارَ ما سيحدث، ما لم يجد الوقت للخروج من الجرة.

إذن كل الشرور في العالم سببها باندورا، مجرد حضور باندورا هو الذي يجسِّد كل الشرور، والآن ضاعفتها الجرة المفتوحة. ما هذه الشرور؟ هناك منها عشرات الآلاف: التعب، الأمراض، الموت، الحوادث. إن التعاسات متحركة بشكل لا يصدق، إنها تتنقل دون انقطاع، تذهب إلى كل الجهات، ولا تبقى في مكانها البتة. غيرُ مرئية، ولا شكل لها، ولا تُسمع، خلافاً لباندورا التي مرآها لذيذ ومسمعها مُعجِب. رفض زيوس أن تكون لهذه الشرورِ صورةٌ وصوتٌ حتى لا يستطيع الرجالُ اتقاءَها ولا تجنُّبها. الشرورُ التي يحاول الرجال انتحاءها لأنهم يعلمون أنها كريهة تبقى متلبّدةً في اللامرئي مبهمةً، أما الشر الذي يُرى ويُسمع، المرأةُ ملفوفةً بإغراء جمالها وعذوبتها وأقوالها، فهي تشدك وتسحرك بدل أن ترعبك. إن أحد ملامح الوجود الإنساني هو الانفصال بين المظاهر التي تبدو لك وتغزو أذنك وبين الوقائع. ها هو شرط وجود الرجال كما طبخه زيوس على نارخفيفة رداً على خِدع بروميثيوس.

ولا ينفلت بروميثيوس من هذا الشر فإنّ زيوس يسمّره بين السماء والأرض، في منتصف ارتفاع جبل، على عمود، حيث يقيده. فيضحي بروميثيوس الذي كان قد

سلّم البشرَ غذاءَ الفانين، الذي هو اللحم، غذاءً لطائرِ زيوس، العُقابِ الذي يحمل صاعقتَه، مبعوثِ قدرته التي لا تُقهر. إنه بروميثيوس الذي يغدو الضحيةَ، قطعةَ اللحم المقطوعةَ من الجسد. كلَّ يوم يلتهم عقابُ زيوس كبدَه كاملة لا يبقى منها شيء. وخلال الليل تنبثق الكبد مرة أخرى. وكل يوم يجد العقاب زاده كاملاً. ويستمر هذا حتى ينقذَ هيراكليس Heraclès بروميثيوس بناء على موافقة زيوس. يتلقى نوعاً من الخلود مقابل موت السنتور Centaure شيرون Chiron. وشيرون هذا هو بطلُ نشرِ الحضارة، الذي علّم أخيل Achille وكثيرين آخرين كيف يكونون أبطالاً كاملين، وقد جُرِح ويتعذب، جرحه لا يُشفى. لا يستطيع أن يموت رغم أنه يتمناه. جرى إذن تبادلٌ؛ فمُنح شيرونُ الموتَ ومُنح خلوده لبروميثيوس. فتحرر كلاهما.

أُخذ بروميثيوس بذنبه، لقد أراد أن يقدم إلى الفانين اللحمَ، وخصوصاً الكبدَ التي تمثل قطعة ثمينة في الحيوانِ الأضحيةِ لأنه يمكن أن يُقرأ على هذا العضو إن كانت الآلهة قبلت أضحيتك. وبدوره يصبح بروميثيوس عن طريق كبده غذاءً مفضَّلاً لعقاب زيوس. هذا العقاب رمز للصاعقة الإلهية. هو حامل نار زيوس، هو الصاعق. وعلى نحوٍ ما عادت النار التي سرقها التيتان إلى كبده لتقتطع منها جزءاً من مأدبةٍ تتجدد أبداً.

وفضلاً عن هذا، هناك أمر إضافي لا يخلو من الدلالة: بروميثيوس كائن غامض، ومكانه في العالم الإلهي غير واضح. وقصة هذه الكبد التي تُلتَهَمُ كل يوم ثم تندفع شبيهتها في الليل تُظهر أن هناك على الأقل ثلاثة نماذج للزمن وللحيوية: هناك زمنُ الآلهة، الخلودُ حيث لا يجري شيء، كل شيء موجود هناك مسبقاً ولا شيء يختفي. وهناك زمن الرجال الذي هو زمن خطيٌّ، دائماً في الاتجاه نفسه: يولد فيكبر فيبلغ فيهرم فيموت. وكل الكائنات تخضع لهذا الخط. وكما يقول أفلاطون هو زمن يسير في خط مستقيم. هناك أخيراً زمن ثالث تَبعثُ كبد بروميثيوس على التفكير فيه، هو زمن الدوران والتعرج، يدل على وجودٍ شبيه بالقمر مثلاً؛ فهو يكبر ويموت، ثم يولد من جديد، ويجري هذا بلا نهاية. هذا الزمن البروميتي شبيه بحركة الأفلاك، أي هذه الحركاتِ الدورانيةِ التي تندرج في الزمن وتسمح بقياسه بواسطتها. إنه ليس خلودَ الآلهة، وليس أيضاً الزمنَ الأرضي، الزمنَ الفاني الذي يذهب في الاتجاه نفسه. إنه الزمن الذي سيستطيع الفلاسفة أن يقولوا فيه: إنه الصورة المتحركة للخلود الجامد. إن شخصية بروميثيوس أيضاً مسحوبة منه، كما كبدُه، بين الزمن الخطي للبشر والوجود الأبدي للآلهة. وتظهر وظيفته في هذه القصة، بصفته وسيطاً، واضحةً جداً. وقد

وُضِعَ فضلاً عن ذلك بين السماء والأرض، على منتصف ارتفاع عمود بين الاثنتين. ويمثل المُفَصّلةَ بين العصر السحيق حيث لم يكن بعدُ زمنٌ في عالم منظم عاشت فيه الآلهة والبشر مجتمعين، حيث اللاموت والخلود، وبين عصر الفانين الذين سينفصلون من الآن فصاعداً عن الآلهة، والذين يخضعون للموت وللزمن الذي يمضي. إن كبد بروميثيوس شبيهة، على هيئة الأفلاك، بما يعطي الإيقاع والمقياس للخلود الإلهي، والذي يؤدي إلى دور التوسّط بين الإلهي والعالم البشري.

حرب طروادة

خلافاً لما زعم جيرودو Giraudoux فقد جرت حرب طروادة. ولا فائدة في روايتها بعد الشاعر الذي عرّفنا بها وهو هوميروس لأن هذه الرواية لا يمكن أن تكون إلا ملخصاً سيئاً. وبالمقابل ربما نتمكن من رواية أسباب هذا النـزاع ومغزاه. ولمحاولة فهم هذه المجابهة التي تمتد جذورها في زمن قديم جداً يجب أن نتنقل بين عدد من الجبال التي تمثل أصول هذه الدراما التي عاشها الفانون. هناك جبل بيليون Pélion في اليونان، وجبل إيدا Ida في طروادة، وجبل التايجيت Taygéte في إسبارطة، وهي جبال عالية جداً، أي أماكنُ تكون المسافة فيها بين البشر والآلهة أقربَ مما في الأماكن الأخرى، أماكنُ تصبح الجبهات فيها بين الفانين والخالدين بطريقة ما، ذاتَ مسامَّ قابلة للنفوذ، دون أن تمّحي تماماً. ويحدث أن تجري تبادلات في المواضع بين ما هو إلهي وما هو بشري. وأحياناً، وهذه هي حال حرب طروادة، تستفيد الآلهة من هذا القرب ومن هذا التلاقي في القمم لتنقل إلى البشر الشرور والمصائب التي يريدون التخلص منها، بإبعادها عن المجال المنير الذي أسسوا فيه مقرّهم لترسيخها على سطح الأرض.

وهكذا يبدأ كل شيء على جبل بيليون مع عرس Ple ملكِ فْتي Phthie وتيثيس النيريدية. وتيثيس، كأخواتها الخمسين اللواتي يعمُرن بحضورهن المحبب واللطيف سطحَ المياه وأعماق البحار، هي ابنة نيريه Nérée الذي يسمى «عجوز البحر». ونيريه هو نفسُه ابنُ بونتوس Pontos، الموجِ البحري الذي أنجبته جيا في الوقت نفسه الذي ولدت فيه أورانوس زمنَ تأسيس الكَون. والنيريدات، من جهة أمهنّ دوريس Doris، هن من سلالة أوقيانوس النهرِ الكوني البدئي المحيط بالكون ضاماً إياه في شبكة مياهه الدائرية. وربما تيثيس، مع أمفيتريت Amphitrite، واحدةٌ من أكثر الصور النموذجية للنيريدات، إذ تمتلك كبعضِ الإلهات البحريات الأُخر موهبةً خارقة في الاستحالة؛ فهي تستطيع اتخاذ كافة الأشكال: الأسدِ، والشعلة، والنخيل، والطير، والسمكة. تملك قائمة واسعة من التحولات، لا يحبسها أي شكل فهي سيولة كاملة كالماء لأنها إلهة بحرية. تستطيع الانتقالَ دائماً من مظهر إلى آخر والهروبَ إلى مظهرها الخاص

كالماء الذي يتسرب عبر الأصابع دون أن تستطيع الإمساك به. ربما كانت هذه الإلهة، بسبب هذه اللدونة العظيمة نفسِها والسيولةِ العصيّة على الإمساك، تمثل في نظر الإغريق شكلاً من القدرة التي حصلت عليها بعض الإلهات في القسمة. ومن هذا النوع على وجه الخصوص الإلهةُ التي تزوجها زيوس في زواجه الأول وهي ميتس. وقد رأينا أن زيوس لم يتزوج فحسبُ من ميتس، بين إلهات أخَر، بل جعل منها قرينته الأولى لأنه يعلم أنه لهذا السبب نفسه، أعني صفاتها الخارقةَ من الليونة والرقة والسيولة، سيكون الطفل الذي ستضعه منه أكثرَ منه خبثاً وقدرة في يوم من الأيام. ولذلك ما إن حبلت الإلهة منه حتى أسرع إلى ابتلاعها كي تصبح ميتس في جوفه. والطفلة التي ستولد هي أثينا، ولن يكون له طفل آخر منها.

إن القدرة المتموجة الحاذقة التي تمثلها ميتس محجوزٌ عليها منذ ذلك الوقت داخل شخص زيوس، فلن يكون بعد الآن طفلٌ ينتصر على أبيه عندما تحين الساعة. وعلى هذا ينعكس حظ الناس: مهما كان الرجل قوياً جداً، قادراً جداً، ذكياً جداً، ملكياً جداً وحاكماً، فسيأتي اليوم الذي يُضنيه فيه الزمن ويُبهظه العمر، وعليه، سيصبح السليلُ الذي أنجبه، الفتى الصغيرُ الذي كان يُسمح له بالقفز على ركبتي أبيه، والذي كان يحميه ويغذوه، سيصبح رجلاً أقوى من أبيه، وسيقدَّر له أن يتبوّأ مكانه، في حين أن أحداً لا يستطيع، منذ أن أسس زيوس عرشه وتبوأه، أن ينحّيه ليستولي على عرشه.

هذه «التيثيس»، مع موهبتها وسحر تحولاتها، مخلوقةٌ خلابة تمتلئ إغراءً. ولها إلهان رئيسان عاشقان: زيوس وبوزيدون. يتنازعان عليها، وكلٌّ منهما يحسب نفسه حقاً هو الذي سيتزوجها. والسلاحُ الذي يحتفظ به التيتان بروميثيوس احتياطاً، والورقةُ الرابحة في لعبته في خِضَمِّ هذا النزاع الذي يتجابه فيه زيوس وبروميثيوس، هو أنه يحتفظ بسرٍ رهيب يتعلق بهذه القضية: إن حقق زيوس أمنيته وضاجع تيثيس فسيَفجع ابنُهما يوماً أباه بمثل ما فَجع به، هو نفسُه، أباه كرونوسَ، وكرونوسُ أباه أورانوسُ. إن صراع الأجيال والخصام الذي يضع الشبابَ في مواجهة الشيوخ، والابنَ في مواجهة أبيه، سيدخل حينئذ وإلى الأبد العالم الإلهي. وسيضع ثانية النظام الذي أراده زيوس ثابتاً كما أسسه بوصفه حاكمَ العالم موضعَ تساؤلٍ لا نهاية له.

كيف نجح زيوس في معرفة هذا السر؟ تقول إحدى الحكايات إن بروميثيوس تصالح مع زيوس، وإن هيراكليس، بموافقة ملك الآلهة، سيحرر التيتان بروميثيوس على أن يقبل كشفَ سره. لقد حُذّر زيوس بالخطر، وكذلك بوزيدون بدوره؛ فهل يتخلى الآلهة عن مجامعة تيثيس؟ هل ستبقى عذراء ولن تعرف الحب إلى الأبد؟ لا؛ فالآلهة

يتمتعون بالشهامة، وسيرمون على الرجال عبء هذه اللعنة التي تحتِّم إخلاءَ الساحة للشباب عندما يؤون الأوان. ستنجب تيثيس طفلاً من جنس الفانين، فذّاً من كل ناحية، وسيتجاوز على كل الصُعُد من أنجبه. إنه بطلٌ مثالٌ يجسد في عالم الرجال قمةَ الفضائل الحربية، وسيكون الأفضلَ الذي لا يمكن لأحد مضاهاته؛ فمن هذا الطفل؟ إنه أخيل ابن تيثيس وبيليه، إحدى الشخصيات الرئيسة في حرب طروادة التي ارتبط حتى انطلاقُها نفسُه بهذه القضية كلها.

زواج بيليه:

هكذا يقرر زيوس والآلهة بالإجماع أن على التساليّ Thessalien بيليه ملكٍ (فتْيٍ) الزواجَ من تيثيس؛ فكيف يمكن الحصول على موافقة الإلهة؟ كيف يمكن إقناعها بأن عليها انتقاصَ شأنها بالزواج من مجردِ فانٍ؛ حتى لو كان هذا الفاني ملكاً؟ ليس على الآلهة أن تتدخل وتفرض على إحداهن زواجاً غير متكافىء. إذن على بيليه أن يتدبر أمره وحده لإقناع زوجته، كما فعل أبطال آخرون نجحوا في إخضاع إلهات بحريات والحصول منهن على ما كانوا ينتظرون. هكذا فعل مينيلاس Ménélas وهو يناضل مظفراً ضد بروتيه Protée وتحولاتها. على بيليه إذن أن يختطف تيثيس ليجعلها تنتقل وفقاً للطقوس من المسكن البحري، حيث تقيم، إلى بيت زوجها المقبل، مقر حكمه ومسكنه ومأواه.

هاهو بيليه يأتي ذات يوم إلى شاطىء البحر. يرى تيثيس تنبجِس، يكلمها، يلتقطها بذراعيه، يجذبها إليه. تتخذ كل الأشكال لتهرب منه. لقد أخطر بيليه مسبقاً أن الشيء الوحيد الذي يجب أن يفعله مع هذه الإلهة المتموجة المتحولة هو سجْنُها بالإمساك بها بطريقة لا تدعها تفلت وبتطويقها. يجب أن يحصر الإلهةَ داخلِ محيط ذراعيه، يقيدها بذراعين ملتحمتين لا تتراخيان مهما تشكلت: خنزيراً برياً، أسداً ضارياً، شعلة ملتهبة، ماءً، ولا تدعانها تهرب مهما حدث. حينئذ تتخلى الإلهة المهزومة عن استعراض مجموعة الأشكال التي تتخذها والتي لا نهاية لها. عندما تتجاوز كل حلقة المظاهر المستعارة تجد ثانية شكلها الأولي الأصلي، شكلَ الإلهة الشابة الجميلة؛ لقد هُزمت. والشكل الأخير الذي ترتديه تيثيس لتحرر نفسها من القبضة التي تقيِّدها الآن شكلُ أخطبوط؛ ومنذ ذلك الوقت يحمل اللسان الأرضي الذي يتقدم في البحر، حيث جرتِ المعركة التي سبقت زواج بيليه وتيثيس، اسمَ «رأس سيبياس Sépias، أي رأس الأخطُبوط. لماذا الأخطبوط؟ لأنه في اللحظة التي يراد فيها التقاطه،

أو عندما يهدده حيوان بحري، يقذف في الماء المحيط به حبراً أسود يحجبه تماماً، فيختفي كليةً كما لو كان غارقاً في ظلمة ينتجها وينشرها هو نفسه. وهذه هي الورقة الرابحة الأخيرة لتيثيس، عليها أن تلعب بها كما يقذف الأخطبوط حبره. يمسك بها بيليه ملفوفاً بالضباب في هذا السواد، لا يتخلى عنها. وأخيراً فإن تيثيس هي التي يجب أن تستسلم، وسيكون الزواج. يُحتفل بزواجه على قمة جبل بيلون تحديداً. وليس بيلون مجرد جبل يقرِّب الآلهة إلى البشر، بل إنه يوحِّد بينهم إلى حد التبادل غير المتكافىء. وما أرسلته الآلهة إلى بيليه بهذا الامتياز، امتيازِ مضاجعة إلهة، هو كافة الأخطار التي يمثلها هذا الزواج على الفانين، والتي لا يريدونها لأنفسهم، وعليهم دفعُها بطريقة ما إلى عالم البشر. تجتمع كل الآلهة وتنـزل من الأولمب، من السماء الأثيرية، حتى قمم جبل بيليون، وهناك يُحتفَل بالزواج.

ليس الجبل نقطة التقاء بين الآلهة والبشر فحسب، بل إنه كذلك مكان ملتبس؛ فالسنتورات، وخصوصاً السنتورَ شيرونَ أهرمَها وأشهرَها، تقيم فيه. وللسنتورات وضعٌ متناقض ومكان ملتبس إذ أن لهارأس إنسان ولِباناً كان لحصان ثم لإنسان، وأخيراً جسمَ حصان. وهي كائنات متوحشة تحت صنف الإنسان، قاسية ــ تستطيع أن تسكر وتخطف النساء ــ وفي الوقت نفسه هي فوق الصنف البشري لأنها على غرار شيرون تمثل نموذجاً من الحكمة والشجاعة وكل الفضائل التي يجب أن تجتمع في الشاب ليصبح شخصية بطولية: الصيدِ، استخدام كل أنواع السلاح، الغناءِ، الرقصِ، والتفكيرِ والمحافظة على استقلال الرأي دائماً. وهذا ما سيعلِّمه شيرون لأطفالٍ كثيرين وخصوصاً لأخيل. إذن في هذا المكان، حيث تختلط الآلهة بالبشر وتستوطن كائنات حيوانية، وفوق صنف البشر في الوقت نفسه، احتُفل بالزواج. ربات الإلهام هن اللاتي يغنين أغنية العرس. يجلب كل الآلهة هدايا. يتلقى بيليه رمحاً من شجر المرّان، وهو سلاح صنعه هيفايستوس بنفسه، وحصانين مدهشين خالدين هما باليوسBalios وكسانتوس Xantos لاشيء يلحق بهما، سريعان كالريح، ويحدث لهما أن يتكلما بدلاً من الصهيل. وفي لحظات خاصة، عندما يلوِّح قَدَرُ الموت الذي أرادته الآلهة للناس بتهديده فوق ساحة المعركة، يكتشفان أنهما وُهِبا صوتاً إنسانياً فينطقان بكلام نبوئي كما لو أن الآلهة البعيدة جداً كانت تتكلم بأصواتها عن كثب. وفي معركة أخيل وهكتور Hector، وبعد هزيمة هكتور وموته، سيتوجه الحصانان إلى أخيل ليصارحاه بأنه هو الآخر سيموت عما قريب.

ووسْط الفرح والغناء والرقص، وسط السخاء الذي تبديه الآلهة في وجه بيليه

بمناسبة زواجه، تحطُّ على جبل بيليون شخصيةٌ لم تكن مدعوة: الإلهةُ إيريسُ إلهةُ الشقاق والغيرة والبغض. تنبثق وسط العرس تماماً وتحمل، رغم أنها لم تكن مدعوة، هديةَ حبٍّ مدهشةً: تفاحةً ذهبية، ضمانةَ العاطفة التي تُكنُّ للمحبوب، ولكن الثمرة تحمل نقشاً، شعاراً: «إلى أجمل النساء». وهناك ثلاث إلهات كل واحدة منهن مقتنعة بالتأكيد أن التفاحة من حقها: أثينا وهيرا وأفروديت؛ فإلى من ستؤول التفاحة؟

هذه التفاحةُ، هذه الحليةُ المتلألئة المضيئة راقدة هناك على قمة بيليون بانتظار أن يلتقطها أحد. الآلهة والرجال مجتمعون. نجح بيليه في حبس تيثيس رغم كل رُقاها المؤذية في حلقة ذراعيه المقرونتين. في هذه اللحظة تماماً انبجست التفاحة التي خرجت منها حرب طروادة. إن جذور هذه الحرب لا تكمن في مصادفات التاريخ الإنساني فحسب، بل تقوم على وضع أشد تعقيداً يتعلق بطبيعة العلاقات بين الآلهة والبشر. فالآلهة التي لا تريد أن تعرف الهرم ولا صراع الأجيال المتعاقبة تقدّرهما على الرجال في الوقت نفسه الذي تقدم لهم فيه زوجات إلهات. وهكذا يبرز هذا الوضع المأسوي: لا يمكن للرجال أن يقيموا احتفالات الزواج دون أن يقيموا أيضاً طقوس الحداد. وفي غمرة هذا الزواج نفسه، في اتفاق هذه الكائنات المختلطة التي هي الرجال والنساء هناك اختلاطات أخرى، فمن جهةٍ آريسُ Arés إلهُ الحرب الذي يفصم العُرى وينشر الخلاف، ومن الجهة الأخرى أفروديتُ التي توفّق وتوحّد. والحب والهوى والإغراء واللذة الجنسية هي بطريقة ما الوجهُ الآخرُ لهذا العنفِ، لهذه الرغبةِ في الاستيلاء على الخصم؛ فكلما أنتج تواصُلُ الجنسين تجدُّدَ الأجيال، وكلما أنتج البشرُ أنفسَهم بأنفسهم وعَمَرَت الأرض مجدداً بهذه الزيجات، زاد البشر أكثر مما ينبغي مخلّين بالتوازن مع الآلهة.

وحين سيتأمل الإغريق أنفسهم في حرب طروادة سيقولون أحياناً إن السبب الحقيقي لهذه الحرب هو أن الآلهة، وقد تزايد البشر بالجملة، غضبت من هذا الجمع الصاخب، وأرادت أن تطهِّر سطح الأرض منهم كما في الحكايات البابلية حيث تقرر الآلهة إرسال الطوفان. لقد أثار البشر ضوضاء عظيمة جداً. هناك الأفق الأثيري الصامت حيث تتقابل الآلهة وتتبادل النظر، ثم هناك هؤلاء البشر الذين يضطربون ويتذبذبون ويرهقون صدورهم بالصراخ والجدال. إذن يجب من وقت لآخر إشعال «حرب خيِّرة» في نظر الآلهة. وهذه الحرب ستسوّي المشكلة إذ ستعيد الهدوء.

ثلاث إلهات أمام تفاحة ذهبية:

وهكذا اكتمل الفعل الأول من هذا السيناريو الذي سيقود إلى حرب طروادة؛ فإلى من ستؤول مع التفاحة الذهبية جائزةُ الجمال الإلهي؟ لا تستطيع الآلهة أن تجزم. فإن اختار زيوس فسيُرضي واحدة منهن على حساب الأخريين. ولما كان حاكماً منصفاً فقد حدد سلفاً السلطات والمجالات والامتيازات الخاصة بكلٍّ من هذه الإلهات الثلاث. إن فضّل زيوس هيرا اتُّهم في نزاهته لأنها زوجته، وإن اختار أثينا عزف على الوتر الأبوي فهي ابنته، وإن اختار أفروديت رُئيَ في هذا الاختيار البرهانُ على أنه لا يستطيع مقاومة رغبة العشق. لا شيء في سلّم الصدارة يصلح للتحول، ولذا من المستحيل عليه أن يحكم. مرة أخرى في هذا الموقف سيتوجب على مخلوق فانٍ بسيط أن يتحمل هذا العبء. وهنا أيضاً ستدفع الآلهة إلى الرجال مسؤولية القرارات التي يرفضون هم الاضطلاع بها نظراً إلى أنهم كتبوا عليهم هذه التعاسات أو الأقدار المنحوسة التي لا يريدون منها شيئاً لأنفسهم.

الفعل الثاني على جبل إيدا. في هذا المكان من طروادة يتلقى الأبطال الشباب دروسهم. ساحةٌ كجبل بيليون: منبسطاتٌ عالية غيرُ مزروعة بعيدةٌ عن الحواضر، وعن الحقول المحروثة ومزارع للعنب والرياض.وهي فضاء للحياةالريفية القاسية والوحدة دون رفيق سوى الرعاةِ وقطعانِهم وصيدِ الوحوش. والشاب نفسُه المتوحشُ يجب أن يتعلم فيه الشجاعة والجلَد والكفاءة التي تصنع الرجل البطل. يسمى الرجل الذي اختير للحكم بين الإلهات الثلاث المتنافسات باريس Pâris، وله اسم آخر حمله في بداية حياته وهو ألكسندر Alexandre. وباريس هو أصغر أبناء بريام Priam. وعندما نزل هرمس تتبعه الإلهات الثلاث نحو قمم جبل إيدا ليطلب من باريس أن يحكم ويقول مَن أجملُهن في نظره، كان باريس يرعى قطعان أبيه الملكية على جبل إيدا؛ فهو على هذا من جنس الملوك - الرعاة، أو الرعاة الملكيين، وهو شاب جداً ما يزال في ريعان المراهقة وله طفولة وشباب غير عاديين. وهو الابن الأصغر سناً لهيكوب Hécube زوجة سيدِ طروادةَ، هذه الحاضرةِ الآسيوية العظيمة على الشاطىء الأناضولي، الغنيةِ جداً والجميلة جداً، والقوية جداً.

حلمت هيكوب وهي على أهبة وضع ولدها أنها تلد مشعلاً يذرّ النار في مدينة طروادة، لا كائناً بشرياً. وبديهي أنها سألت العراف أو بعض أقاربها المعروفين بتميزهم في تأويل الأحلام عما يعنيه حلمها، فأجابوها جواباً بديهياً إلى حد ما: سيكون هذا الولدُ موتَ طروادة وخرابَها بالنار واللهب؛ ما العمل إذن؟ ليس إلا ما كان يفعله القدماء في مثل هذه الحالات: نذْرُ الطفل للموت دون قتله، أي التخلي عنه. يودِع بريامُ الطفلَ لدى

راعٍ ليتركه دون طعام أو عناية ودون دفاع في تلك الأمكنة نفسها، أمكنةِ العزلة حيث يتدرّب الشباب الأبطال، لا في السهل المزروع المأهول، بل على منحدرات هذا الجبل البعيد عن الناس، المتروك للوحوش. التخلي عن طفل يعني نذْره للموت دون تلطيخ اليدين بدمه، وإرسالَه إلى العالم الآخر وإفناءه. ولكن يحدث أحياناً ألا يموت الطفل. وإن ظهر ثانية بالمصادفة فسيعود بشِيَم سببُها تحديداً أنه، وهو المنذور للموت، قد خاض محنة واستطاع أن ينجو منها. إن اجتياز أبواب الموت منذ الولادة منتصراً يضفي على الناجي بريق كائن خارق، كائنٍ مصطفًى؛ فماذا جرى مع باريس؟ يقال إن دبة أرضعته في البداية من حليبها بضعة أيام؛ فأنثى الدب بمشيتها واهتمامها بالصغار يُنظر إليها على أنها نوع من الأم البشرية. تُرضع الدبة مؤقتاً هذا الوليد الجديد، ثم يكتشفه الرعاة وحراس القطعان الملكية على جبل إيدا. يحتضنونه ويربونه دون أن يعرفوا بالطبع مَن هو. ويسمونه ألكسندر بدلاً من باريس، الاسمِ الذي أطلقه عليه أبوه وأمه لدى ولادته.

وتمر الأعوام. وفي يوم ما تأتي بعثة من القصر تبحث عن أجمل ثور في القطيع الملكي ليقدَّم قرباناً للمأتم الذي ينوي بريام وهيكوب إقامته على شرف ذاك الطفل الذي اضطُروا أن يتخلوا عنه فأرسلوه إلى الموت. هذا الثور المختار هو الأثير لدى ألكسندر الذي يقرر مصاحبته ليحاول إنقاذه. وكما في كل مرة تقام فيها مراسم جنائزية على شرفِ متوفًّى لا تقتصر الشعائر على القرابين، بل ترافقها ألعاب ومسابقات مأتمية في الجري والمصارعة والملاكمة ورمي الرمح. ينخرط ألكسندرُ الشابُ في الألعاب ليتبارى مع أولاد بريام الآخرين، ضد نخبة شباب طروادة، ويغلبهم في كل السباقات.

الناس كلهم يتساءلون مذهولين: من هذا الراعي الشاب المجهول، الذي في منتهى الجمال والقوة والمهارة. يقرر ديفوب Déiphobe أحد أولاد بريام ـ سنجده ثانية في هذه القصة ـ وقد تملكه الغضب أن يقتل هذا الدخيل الذي غلب الجميع. يلاحق ديفوبُ ألكسندرَ الشاب الذي يلجأ إلى معبد زيوس حيث تكون أختهم كاساندرا Cassandre أيضاً، وهي شابة عذراء جميلة جداً عشقها أبولون لكنها رفضته، وانتقاماً منها منحها موهبةً في العرافة معصومةً عن الخطأ. غير أن هذه الموهبة لا تنفعها في شيء؛ بل على العكس لم تعد عليها إلا بمزيد من التعاسة لأن أحداً لن يصدِّق نبوءاتِها. تصرخ حيال هذا الموقف الذي أمامها: انتبه! هذا المجهول هو صغيرنا باريس. يُبرز باريس ـ ألكسندر الأقمطةَ التي كانوا قد لفّوه بها حين تخلوا عنه. ويكفي أن يعرضها ليتعرفوه. تُجنّ أمه هيكوب من الفرح، ويُذهل بريام الملك العجوز أمام ولده الذي وجدوه ثانية. وهكذا هاهو باريس وقد انخرط من جديد في الأسرة الملكية.

كان باريس قد استعاد مكانه في الأسرة الملكية حين أتت تزوره الإلهاتُ الثلاث يقودهن هرمس بتكليف من زيوس لحل قضية انتخاب أجملهن.كان قد استعاد مكانه في الأسرة الملكية، لكنه حافظ على عادته في زيارة القطعان نظراً إلى أنه أمضى شبابه كله راعياً، فهو رجل من جبل إيدا. يرى باريس إذن هرمسَ يصل والإلهاتُ الثلاث برفقته. يفاجَأ قليلاً ويضطرب عندها لأنه، عموماً، عندما تتبدى إلهة لرجل صراحةً وهي عارية فإن أصالتها،كأبدية، تعود بالشر على من يشاهدها؛ إذ ليس من حق البشر مشاهدة الألوهة.إن مشاهدتها امتياز خارق ولكنها في الوقت نفسه خطر لا نجاة منه. وهكذا فقد تيريزياس Tirésias بصره لدى رؤية أثينا. وعلى جبل إيدا نفسه جامعت أفروديتُ التي نزلت من السماء أنشيزَ Anchise والد مَن سيكون إينيه Éné.وبعد أن نام معها أنشيز كما ينام مع أي امرأة فانية، رآها في الصباح في كامل جمالها الإلهي فتملَّكه الرعب وتوسَّل إليها قائلاً: «أعرف أني هالك، ولن أستطيع أبداً أي اتصال جنسي بمخلوقة أنثى لأن من يضاجعُ إلهة لن يجد نفسه مرة أخرى بين ذراعي امرأة فانية بسيطة. لقد فقد حياتَه وعينيه، وعلى أي حال، «ذكورتَه»،».

لنبدأ القصة إذن: باريس مروَّع، وهرمس يُطمئنه ويشرح له أن عليه الاختيارَ وتحديدَ الفائزة بالجائزة لأن الآلهة قررت هذا، وعليه أن يحكم معلناً من هي الأجمل في نظره. يشعر باريس بضيق شديد، والإلهات الثلاث اللاتي ربما تكافأن جمالاً يحاولن، كلٌّ بدورها، إغراءه بوعود جذابة. تُقسم كل واحدة أنها إن اختيرت ملكةَ جمالٍ لتحملنّ إليه السلطة المستبدة المتميزة، وأنها وحدها فحسبُ مَن لها مثلُ هذا الامتياز.

ماذا ستمنحه أثينا؟ تقول له: «إن اخترتني دان لك النصرُ في كلِ معاركك والحكمةُ التي سيحسدك عليه الناس». وتعلن هيرا: «إن اخترتني فستحوز المُلك وستكون حاكم آسيا كلها لأنني بصفتي زوجة زيوس يُبتُّ على سريري في أمور الحكم». أما أفروديت فتعِده: «إن فضّلتني امتلكت صفاتِ الإغراء كاملةً، كلَّ ما تراه الأنثى جميلاً، ستكون مرغوباً، وخصوصاً من الفاتنة هيلين Héléne، تلك التي ذاع صِيتُها في كل مكان. عندما تراك هيلين لن تصمد أمام إغرائك. ستكون العاشقَ والزوج لهيلين الجميلة. وستكون لك الانتصاراتُ الحربيةُ، الحكمُ، هيلينُ الجميلة، الجمالُ، المتعةُ، السعادةُ مع امرأة...». يختار باريس هيلين. وهاهي بحركة تشابكت فيها عناصر آلية العمل، مع خلفيتها، تظهر عقدةُ العلاقات بين الآلهة والبشر والآليةُ التي يبني وضعُها قيد العمل الفعلَ الثاني من هذه القصة. وهكذا انتقلت دفعةً واحدة، مع اتساعها، عقدةُ العلاقات بين الآلهة والبشر التي يبني وضعها قيد العمل الفعل الثاني من هذه القصة.

هيلين مذنبة أم بريئة؟

الفعل الثالث يدور حول هيلين. من هي هيلين؟ إنها هي نفسُها ثمرة تدخُّلٍ من الآلهة في العالم البشري. أمها ليدا Léda، المرأةُ الفانية، لا الإلهةُ، هي ابنة ملك كاليدون Calydon تيستيوس Thestios. تقابل وهي في ريعان شبابها رجلاً من لاسيديمون Lacédémon هو تنداريوس Tyndare الذي كانت مصادفات الحياة السياسية قد طردته من وطنه فلجأ إلى تيستيوس. يعشقها تنداريوس قبل عودته إلى إسبارطة ليستعيد مملكته التي انتُزعت منه، ويطلب يدها. يُحتفل بالعرس في أبّهة عظيمة، لكن الجمال الخارق للشابة لم يُغْرِ زوجها فحسب، فإن زيوس اكتشفها من أعالي الأولمب. ودون أي حساب، لا لهيرا ولا لأي من زوجاته الإلهات الأخريات، استولت على رأسه فكرة واحدة هي مضاجعة هذه الشابة. وفي يوم الزواج، وفي الليلة نفسها التي يتقاسم فيها تنداريوس وليدا الفراش، يلحق بها ويضاجعها على هيئة تمّ، فتحمل ليدا في رحمها أطفال تيندار وأطفال زيوس معاً، تحمل أربعةً: ولدين وبنتين. ويقال أحياناً إن إلهة هي نيميزيس Némésis هي التي أرغمها زيوس، وإنها اتخذت هيئة إوزة لتهرب منه فاتخذ زيوس هيئة تمّ ليحضنها. جرى الحدث على أعالي جبل تايجيت قرب إسبارطة. وعلى قمة هذا الجبل أودعت نيميزيسُ - الإوزةُ البيضةَ (أو البيضتين)، فيسرع راعٍ فيحملها إلى ليدا. وفي قصر الملكة فقست البيضة فخرج الصغار، فتبنّتهم ليدا أطفالاً حقيقيين لها.

ونيميزيس إلهة مرعبة؛ فهي ابنة ليل ومن نفس جنس إخوتها وأخواتها الذين ولدتهم قدرة ظلمة: موت والآلهة الثلاث اللاتي يغزلن خيط الحياة ويحللنه ويقطعنه Parques وصراع مع توابعها: الجرائم والقتل والمعارك. لكن نيميزيس تحتوي أيضاً على الجانب الآخر للأنثى الليلية: الأكاذيبِ المنمقة والحنان العشقي التي تجمع الملذات والخِدَع. نيميزيس منتقمة تسهر على تكفير الذنوب، لا تعرف الراحة ما لم تصل إلى المذنب وتعاقبه، وما لم تُذلّ المتكبر الذي علا أكثر مما ينبغي مثيراً بإفراط نجاحه غيرةَ الآلهة. نيميزيس - ليدا هي إلى حدٍّ ما نيميزيسُ الإلهةُ التي تتخذ شكل ليدا المرأةِ العادية لتجعل الفانين يدفعون ثمن عدم كونهم آلهة، وهو التعاسة.

الحصيلة إذن أربعة أطفال: ولدان هما ولدان لزيوس ولتنداريوس أيضاً وهما: كاستور castor وبولكس pollux، وبنتان هما هيلين وكلتيمنستر Clytemnestre. وفيهم اقترن الإلهي بالإنساني لأجل الأحسن والأسوأ. امتزجت بذورُ تنداريوس الزوجِ الرجلِ، وزيوس العاشقِ الإله، في رحم نيميزيس - ليدا لتتحد وتبقى في الوقت نفسه متميزة ومتعارضة.

توأمان ذكران أحدهما بولوكس أتى مباشرة من زيوس فهو خالد، والآخر كاستور ينتمي إلى تنداريوس. وفي المعركة التي يشنونها على أولاد عمهما إيداس Idas ولانسيه Lyncée يموت كاستور وينـزل إلى أعماق الجحيم في حين أن بولوكس المنتصرَ، لكنِ الجريحَ، ارتفع ممجَّداً إلى الأولمب بفضل زيوس.وعلىالرغم من أصليهما وطبيعتيهما المتباينتين يبقى التوأمان مرتبطين أحدهما بالآخر، لا يمكن لهما الانفصال كطرفي عارضة خشبية أفقية تمثلهما في أسبارطة. يحصل بولوكوس من زيوس على تقاسم الخلود بينه وبين شقيقه بأن يقيم كل منهما شطراً في السماء لدى الآلهة والشطرَ الآخر في منفى تحت الأرض في الجحيم، في مملكة الظلام مع الفانين. أما كليتمينستر وهيلين فهما أيضاً تتوازيان ككارثة مزدوجة، لكن كليتمينيستر التي يقال إنها الابنة الفانية الصِرْف لتنداريوس سوداءُ تماماً، وتجسد اللعنة التي تُبهظ سلالة الأتريديين Atrides، إنها الروح المنتقمة التي تجلب موتاً مخزياً لقاهر طروادة أغاممنون Agamemnon.

أما هيلين سليلةُ زيوس فتحتفظ من جهتها، حتى في التعاسات التي تتسبب بها، بنفحة إلهية. إن بريق جمالها الذي يجعل منها بسلطة إغرائها كائناً مرعباً لا تنـي مع ذلك تُشِعُّ من شخصها ومن هالتها نوراً ينعكس فيه الجانب الإلهي. أهي مذنبة أم بريئة عندما تترك زوجها وقصرها وأولادها لتتبع خطا الشاب الغريب الذي يعرض عليها الفاحشة؟ يقال أحياناً إنها استسلمت بسهولة إلى نداء الشهوة والمتعة الحسية، وعلى نحو أخصَّ إنها فُتنت بمظاهر الأبهَّة والغنى واليُسر والبذخ الشرقيةِ التي كانت تتجلى في الأمير الغريب. وأحياناً، على النقيض، يؤكدون أنها اختُطفت بالقوة خلافاً لرغبتها ورغم مقاومتها.

وعلى أي حال فالمؤكد أن اختفاء هيلين مع باريس أطلق حرب طروادة. إلا أنه لم يكن لهذه الحرب أن تكون ما كانته لو لم يوجد لها سببٌ إلا غيرةُ زوج قرر أن يستعيد زوجته؛ فالموضوع أخطر من هذا، فقد دخل الوفاق والضيافة وعلاقات الجوار والالتزامات في مواجهةٍ مع جانب العنف والبغض والشقاق.

عندما أصبحت هيلين في سن الزواج قال أبوها لنفسه وهو يرى مثل هذا الجمالِ والحليةِ الثمينة: ليست مسألة زواجها سهلة؛ فاستدعى كلَّ من كان في اليونان من شباب وأمراء وملوك ما يزالون أعزاباً ليحضروا إليه ويجري الاختيار من بينهم وهم على بيِّنة بالوقائع. يمكث الضيوف بعض الوقت في بلاط الملك؛ فماذا سيتقرر؟ تنداريوس في ضيق. يذكِّر أوليسُ والدَ هيلين: «ليس أمامك إلا وسيلة واحدة للتنصُّل من تبعات هذا الأمر: قبل أن تقرر اختيارك، وهو ما سيثير بعض الاضطراب، عليك أن

تجعل كل طالبي الزواج يُقسمون جماعياً على أنهم سيوافقون على قرار هيلين مهما كان، فضلاً عن أنهم سيلتزمون جميعُهم بهذا الزواج.وإن حدث لذاك الذي ستختاره أيُّ سوء يمسّ علاقاته الزوجية فسيتكاتفون مع الزوج». يقسم الجميع على هذا. ويُطلب من هيلين أن تعلن اختيارها. وسيكون مينيلاس هو من ستختاره.

كان مينيلاس يعرف باريس من قبل؛ فقد حل ضيفاً عليه في إحدى رحلاته إلى طروادة. وعندما سافر باريس بدوره، يصحبه إينيه إلى بلاد الإغريق، استقبله أخوا هيلين من زيوس قبل أن يُدخلهما مينيلاس إلى إسبارطة حيث تقيم هيلين. يغدق مينيلاس لبعض الوقت على ضيفه الهدايا وعباراتِ المجاملة. ثم كان عليه أن يذهب إلى جنازةِ قريبٍ، فيوْكل إلى هيلين أن تحل محله في واجبات الضيافة. ويتاح لباريس، بمناسبة الحِداد وفي غياب مينيلاس، أن تستقبله هيلين استقبالاً أكثر حميمية. ويمكن افتراض أنه مادام مينيلاس في الجنازة فإن نساء القصر الملكي في إسبارطة لم يكنّ يعشنَ في ألفة حميمة مع غريب فهو من شأن الملك؛ والآن هو شأن هيلين.

يبحر باريس وإينيه دون مزيد من الانتظار، ويتجهان إلى طروادة مع هيلين الحسناء، شاءت أم أبت، في قلب المركب. وما إن يعود مينيلاس إلى إسبارطة حتى يسرع إلى أخيه أغاممنون يُعلِمه بخيانة هيلين، وعلى نحو أخص، بغدر باريس. يكلف أغاممنون بعضِ الشخصيات، ومنهم أوليس، أن يدوروا على كل طالبي هيلين السابقين ويذكّروهم بالعهود التي قطعوها على أنفسهم؛ فالإهانة تجاوزت مينيلاس وأغاممنون إلى بلاد الإغريق كلها التي عليها أن تجتمع لتقتصّ من باريس على اختطافه امرأةً ليست أجمل النساء فحسب؛ بل إنها إغريقية وزوجة وملكة. ومع ذلك يمكن في قضايا الشرف أن تسبقها المفاوضات، بل تحل محل اللجوء إلى السلاح. وعلى هذا يسافر مينيلاس وأوليس في وقت سابق على الحرب.

يبحر مينيلاس وأوليس أولاً في وفد إلى طروادة ليحاولا تسوية الأمور ودّياً ليسود الانسجام والوفاق والضيافة من جديد بدفع غرامة أو بإصلاح الخطأ الذي جرى. استُقبلا في طروادة، وكان بعض أوائل الطرواديين أنصاراً لهذا الحل السلمي وخصوصاً ديفوب، ولكن القرار كان بيد مجلس مسنّي طروادة، فالقضية تتجاوز حتى صلاحيات السلطة الملكية. استُقبل الإغريقيان إذن في المجلس حيث لم يكتف بعض آل بريام بالتآمر لإفسادكل تفاهم؛ بل أوعزوا أيضاً بألا يتُرك أوليس ومينيلاس يعودان حيين. لكن ديفوب الذي استقبلهما ضيفين شملهما بحمايته فعادا من مهمتهما خائبين ليعلنا للإغريق إخفاق محاولة الصلح.وهكذا فمنذ الآن كل شيء معدّ للانفجار.

الموت شاباً خلود مجيد:

يبدو أن الهجوم على طروادة لم يثر بادئ الأمر حماسة مجُمَعاً عليها لدى الإغريق؛ فحتى أوليس ربما كان يحاول التملص منه. كانت بينيلوب Pénélope قد ولدت له ولداً هو تيليماك Télémaque؛ فبدا له أن اختيار الوقت لم يكن مناسباً لهجر الأم والطفل. ولذا يتظاهر بالجنون عندما يأتونه ليخبروه أنه يجب أن يبحروا ويستردوا بقوة السلاح هيلين التي اختطفها الأمير الطروادي. وهكذا فإن أعقل الرجال وأدهاهم يتظاهر بالبلاهة. كان العجوز نسطور Nestor هو الذي أتاه إلى إيتاك Ithaque ليبلغه بأمر الاجتماع. يَرى العجوزُ أوليسَ يجر محراثاً مربوطاً إلى حمار وثور، والبطل يمشي القهقرى وهو يبذر الحصى محل القمح. فُجع كل الناس لِما حدث له إلا نسطور الذي عنده من الخبث ما يكفي ليخمن أن أوليس يلعب أحد أدواره المعتادة. وبينما أوليس يمشي القهقرى ومحراثه يتقدم، يمسك نسطور بتيليماك الصغير ويضعه أمام المحراث. يسترد أوليس في هذه اللحظة عقله ويحتضن الطفل كي لا يصيبه سوء.هاهو قد انكشف، لذا يقبل الانطلاق مع نسطور.

أما العجوز بيليه زوج تيثيس الذي شهد موت كثير من أطفاله ولم يبق لديه إلا أخيل فلا يحتمل فكرة أنه يستطيع يوماً انطلاق ابنه إلى الحرب؛ لذا يتخذ احتياطاته فيُبعد الصبي الصغير إلى سكيروس Skyros ليخفيه بين بنات ملك الجزيرة. عاش أخيل هناك في خِدْر الحريم على أنه فتاة. وبعد أن رباه في شبابه الأول شيرونُ Chiron والسنتوراتُ بلغ السن التي لا يتَّسِم فيها الجنسان بسماتهما ولا يتمايزان بعدُ بوضوح. لمّا ينبت ذقنه، ولمّا يكثُّ الشعر، له هيئة صبية فاتنة. له هذا الجمال غير المتميز للمراهقين الذين هم صبيان كما هم بنات؛ أو بنات كما هم صبيان. يبقى بين رفيقاته غير مبال. يأتي أوليس يبحث عنه فيُجابُ بأنه ما من صبي في هذا المكان. يطلب أوليس الذي تنكر في هيئة بائع جوالٍ الدخولَ. يرى خمسين بنتاً وأخيلُ لا يتميز منهن. يُخرِج أوليس من سلته أقمشةً وتطريزاتٍ ومشابكَ وحلياً ليعرضها. وإذا بتسع وأربعين بنتاً يتهافتن عليها لإعجابهن بهذه الأمور الصغيرة، لكن واحداً من بينهن يبقى جانباً بلا مبالاة. يُخرج أوليس من سلته حينئذ خنجراً؛ وإذا بهذه «الصبية الفاتنة» تسرع إلى الخنجر. يدوي بوق حربي وراء الجدران فيدبُّ الذعر في جناح النساء، تهرب الفتيات التسع والأربعون مع أشيائهن الصغيرة. تثبت «واحدة» والخنجر في يدها متجهة إلى الموسيقى لتنطلق إلى المعركة. وهكذا يكشف أوليس القناع عن حقيقة أخيل كما فعل نسطور معه.

لم تكن تيثيس أمّ أخيل تستطيع الاقتناع بأن كل الأطفال الذين أنجبتهم قبله ليسوا سوى أناس فانين كأبيهم. كانت تبحث منذ الأيام الأولى لولادتهم عن وسيلة تجعلهم خالدين، فتغمسهم في النار لتحرق فيهم كلّ الرطوبة التي تحمل الانحلال والتي تمنع البشر من أن يكونوا شعلة برّاقة صرفاً؛ لكن أولادها كانوا يذوبون في النار ويهلكون. كان الأب المسكين بيليه مفجوعاً حتى إنه عندما وُلِدَ أخيل حدّثَ نفسه بأن يحاول إنقاذ هذا الولد على الأقل. وفي اللحظة التي تغمسه فيها الأم في النار يتدخل الأب ويلتقطه فلا تمسُّ النار إلا شفتي الطفل وعظمةً من العقب تموت. يتفق بيليه مع السنتور شيرون على أن يذهب إلى قمة جبل بيليون وينبش عن جثة سنتورٍ كان سريعاً في الجري سرعة خارقة، فيقتطعَ عقباً من الجثة ويركّبَها للصغير أخيل الذي يركض منذ حداثته أسرعَ من زرافة. هذه رواية أولى للحكاية؛ أما الرواية الثانية فتروي أن تيثيس التي لا تستطيع غمسه في النار وتريد في الوقت نفسه أن تجعله خالداً، غمسته في ماء ستكس النهرِ الجهنمي الذي يفصل الأحياء عن الموتى. ومن المفهوم أن من يُغمسُ في ماء ستكس ويخرج منه يحصلُ على فضائل الطاقة الخارقة ومزاياها. صمد أخيل، وقد غُمِر في هذه المياه الجهنمية، للتجربة، لكن العقب وحدها التي أبقته أمه معلقاً منها لم تمس الماء. لم يكن أخيل محارباً ذا عدْو سريع فحسب، بل إنه المحارب الذي لا يتأثر بالجروح الإنسانية إلا في مكان واحد هو العقب التي يمكن أن ينفذ منها الموت.

إن إحدى نتائج الزواج غير المتكافئ بين إلهة وإنسان هي أن كل البهاء وكل القدرة اللتين تخصان الآلهة سيذهبان جزئياً ليتوّجا شخصية أخيل. وفي الوقت نفسه لا يمكن لصورته إلا أن تكون مأساوية؛ وماكان لأوليس، ولو أنه ليس إلهاً، أن يستطيع الموت والحياة كعموم الناس، كمجرد إنسان فان، لكن الهروب من الشرط الطبيعي للإنسانية لا يصنع من مثله كائناً إلهياً ضامناً للخلود. إن قَدَرهُ الذي يمتلك في نظر المحاربين وكل إغريق ذلك الزمان قيمةً نموذجية ما يزال يسحرنا إذ يوقظ فينا، على شكل صدى، الوعيَ بما يَصنع من الوجود الإنساني المحدود والممزق والمقسم دراما يمتزج فيها بلا انفكاك، النورُ والظلامُ، والفرح والألم، والحياة والموت. إنه نموذجي: قدَرُ أخيل موسومٌ بخاتم الإشكال لأنه، وهو في الأصل نصف إنساني ونصف إلهي، لا يمكن أن يكون تماماً في هذا الجانب أو ذاك.

على أعتاب حياته، منذ خطواته الأولى، تتشعّب الطريق التي يجب أن يسير فيها. ومهما كان الاتجاه الذي سيختار السير فيه فإن عليه، وهو يتبعه، أن يتخلى عن جزء أساسي من نفسه. إنه لا يستطيع في الآنِ نفسِه الاستمتاع بأعذب ما يقدمه الوجود

في ضوء الشمس للبشر، ولا يضمن لنفسه امتيازَ عدم الحرمان منها، أي ألا يموت. إن الاستمتاع بالحياةِ، أثمنِ ثروةٍ لدى الكائنات السريعة الفناء، هذه الثروةِ الوحيدة التي لا تقارن بشيء آخر لأنها الوحيدة التي ما إن تُفقد حتى تُفقدَ إلى الأبد، هو التخلي عن كل أمل بالخلود. وإرادةُ الخلود هي جزئياً قبولٌ بفقد الحياة حتى قبل أن تعاش تماماً. فإن اختار أخيل، كما كان أبوه العجوز يتمنى، أن يبقى في مكانه وعنده في (فْتي) ضِمْن أسرةٍ وفي أمانٍ عاش حياة طويلة وادعة سعيدة، مجتازاً كل مراحل الزمن التي تُمنح للفانين حتى شيخوخةٍ محاطة بالمحبة. ولكن مهما كانت براقة، بل مشرقةً بأحسنِ ما يحمله المرور في هذه الأرض من سعادة للناس، فإن وجوده لن يترك أي أثر من بريق الحياة؛ فما إن تكتمل حتى تسقط في هاوية الليل، هاويةِ العدم. وفي الوقت الذي تستمر فيه الحياة بالوجود يختفي البطل كلياً وإلى الأبد. ويمَّحي، وقد انغمر في الهاديس، في الأعماق، دون اسم ودون وجه ودون ذاكرة، يمَّحي كأنه لم يوجد قطّ.

وإن اختار العكس: الحياةَ القصيرة والمجد الدائم، اختار الانطلاق إلى البعيد، أن يتخلى عن كل شيء ويغامر بكل شيء وينذر نفسه سلفاً للموت. يريد أن يدخل في عداد نخبة قليلة لا تهتم بالراحة ولا بالغنى ولا بالشرف المألوف بل تريد الانتصار في معارك يراهنون فيها كل مرة على حياتهم الخاصة. إن مجابهة الخصوم الأشد ضراوة على أرض المعركة هو وضع للذات في اختبارِ تقويم حيث يجب على كل أحد أن يبيِّن مَن هو، ويبديَ أمام عيون الجميع امتيازه الذي يبلغُ الأوج في المغامرة الحربية التي تجد اكتمالها في «الميتة الكريمة». وهكذا وسْطَ المعمعة، في ريعان الشباب، لن تعرف قوى الرجولة والشجاعة والطاقة ونعمة الشباب، التامةُ كلِّها، لن تعرف مطلقاً عجز الشيخوخة.

يختار أخيل الموت المجيد في الجمال المصون لحياةٍ جدٌ شابة،حياة مقصّرةٍ مبتورة ومجد خالد، كما لو أنه من أجل أن تلمع شعلة الحياة في صفاء بريقها يجب أن تُرفعَ إلى درجة من التوهج تجد نفسها معها فانية في اللحظة التي توهجت فيها. إن اسم أخيل ومغامراته وقصته وشخصه تبقى حية إلى الأبد في ذاكرة الرجال الذين تعاقبت ذراريهم من قرن إلى قرن لتختفي الواحدةَ تِلْوَ الأخرى في ظلام الموت وصمته.

أوليس أو المغامرة البشرية

الإغريق منتصرون. فبعْد أعوام عديدة من الحصار والمعارك أمام أسوار طروادة سقطت المدينة أخيراً. لم يكتف الإغريق بقهرها والاستيلاء عليها، فقد سلبوها وأحرقوها بفضل حيلة الحصان الخشبي الشهير الذي أدخله الطرواديون في مدينتهم وهم يظنون أنها تقدمة تقوى للآلهة. استطاعت طليعة أن تخرج من خاصرتي الحصان وتفتح أبواب المدينة لتسمح للجيش الإغريقي أن ينتشر في المدينة ويَذبح الجميع في طريق مروره. قُتل الرجال واقتيد النساء والأطفال سبايا ولم يبق إلا الأطلال. يتصور الإغريق أن القضية سُوّيت أخيراً. غير أنه الآن فحسب ينكشف المنحدر الآخر لهذه المغامرة الحربية العظيمة إذ سيتوجب بطريقة أو بأخرى على الإغريق أن يدفعوا حتى في غمرة انتصارهم ثمن الجرائم والتجاوزات التي وسمتهم بالذنب. ومنذ الانطلاق انفجر خلاف بين أغا ممنون ومينيلاس. مينيلاس يرغب في الانطلاق حالاً والعودة بأسرع ما يمكن. أما أغا ممنون فعلى النقيض يريد أن يبقى في مكانه ليقدم الأضاحي إلى أثينا التي بتّت في انتصارهم بدعمها لقضيتهم لدى الآلهة. يختار أوليس أن يعود دون انتظار مع المراكب الاثني عشر التي صحبها باتجاه إيتاك. ويبحر مع مينيلاس على المركب نفسه الذي يحمل العجوز نسطور أيضاً. لكن أوليس يتخاصم مع مينيلاس عند جزيرة تينيدوس Ténédos ويعود إلى طروادة ليلتحق بأغا ممنون. سينطلقان إذن معاً على أمل أن يصلا في الوقت نفسه إلى الجزء اليابس من بلاد الإغريق، ولكن الآلهة تقرر شيئاً آخر: تنطلق الرياح والعواصف والأعاصير، وتتخلع الطوافة ويغرق كثيرٍ من السفن جارّةً معها مَن عليها من بحارة ومحاربين. الإغريق الذين قَدَّر لهم الحظُ العودةَ إلى مساكنهم نادرون. وسيلاقي بعض الذين أبقى البحرُ على حياتهم الموتَ على عتبات بيوتهم. وهكذا ماإن وضع أغا ممنون قدمه على أرض وطنه حتى سقط في الشَرَك الذي نصبته له زوجته كليتمنستر وإيجست Égisthe عاشقُ هذه الزوجة الخائنة. يعود أغا ممنون واثقاً كثور شجاع مسرور بلقاء عشِّه الأسري، ولكن العاشقَين المتآمرَين سيقتلانه دون شفقة.

ستجلب العاصفةُ الفناءَ لسفن أغا ممنون التي تؤلف معظم الأسطول ولسفن أوليس. وهكذا يجد أوليس نفسه معزولاً على البحر مع أسطوله الصغير يجابه المحن والعواصف نفسَها التي جابهها رفاقه ذوو الحظ العاثر. وعندما يحطّ أخيراً في تراس Thrace عند السيكون Cicones يُقَابَل بعِداء. يستولي على مدينتهم إيسماروس Ismaros ويسلك حيال المهزومين ما كان يفعله كثير من الأبطال الإغريق فيقتل أكثر سكان هذه المدينة، ولكنه يُبقي على واحد هو كاهن أبولون Apollon الذي يسمى مارون Maron. يقدّم له مارون عندما يتعرفه كثيراً من جرار الخمر التي ليست شراباً عادياً بل هي نوع من الشراب الإلهي. يحمّل أوليسُ الجرارَ على سبيل الاحتياط إلى سفنه، ويخيّم الإغريق في الليل على طول الشاطئ راضين تماماً بانتظار معاودة الانطلاق في الصباح. لكن السيكون الذين في الأرياف، وقد أنذِروا بوصول العدو، يهاجمونهم في الصباح ويقتلون عدداً كبيراً منهم، ويبحر الذين بقوا على قيد الحياة مستقلين بأسرعِ ما يستطيعون مراكبَهم التي تبحر في البحر.

في بلاد النسيان:

هاهم يعاودون الانطلاق.لقد تضاءل الأسطول جداً. يحاذي أوليس رأس ماليه Malée من بعيد ثم يتجاوزه. ومن هناك يستطيع مسبقاً أن يرى شواطىء إيتاك وطنِه. يشعر كما لو أنه عاد إلى بيته. وفي الوقت الذي يتصور فيه أن مسيرته انتهت يرتفع الستار عن جزء آخر من رحلة أوليس البحرية. كان إلى ذلك الوقت قد أنجز رحلة بحار يعود من حملة بحرية وراء البحار، لا أكثر. ولكن عندما يتجاوزون رأس ماليه تنقضّ عليهم فجأة عاصفة تهب سبعة أيام متواصلة تنقل الأسطول إلى فضاء مختلف جداً عمّا كانوا يبحرون فيه قبلُ. ومنذ الآن لن يعرف أوليس أين هو، ولن يقابل أناساً كالسيكون الذين هم محاربون أعداء إلا أنهم يشبهونه. إنه يخرج نوعَ خروجٍ من حدود العالم المعروف، من العالم البشري ليدخل في مجال اللاإنسانية، في عالَم الآخَر.

وابتداء من الآن لن يصادف أوليس إلا كائنات إما ذاتَ طبيعة نصف إلهية تتغذى بالشراب والطعام الإلهيين، من نحو سيرسيه Circé أو كاليبسو Calypso، وإما كائنات دون ـ إنسانية، مسوخاً، من نحو السيكلوب أو الليستريغون Lestrygons، وهي أكَلَة لحوم البشر التي تتغذى على اللحم البشري. وبالنسبة إلى الإغريق فإن خاصة الإنسان، أي ما يميزه بصفته إنساناً هو أنه يأكل الخبز ويشرب الخمر، وبأن له نموذجاً من الغذاء، ويعرف قواعد الضيافة واستقبال الغريب بدلاً من التهامه. أما العالم

الذي وجد أوليسُ نفسَه ورفاقه قد قُذفوا إليه بفعل هذه العاصفة الرهيبة فهو العالم المناقض بالضبط لهذا العالم الإنساني المألوف. وما إن تهدأ العاصفة حتى يرى الإغريق شاطئاً. يحاذون هذا الشاطىء الذي لا يعرفون عنه شيئاً. وليتعرفوا مَنْ يسكنه نوعَ تعرُّف وليتزودوا منه أيضاً يختار أوليس بضعة محاربين يرسلهم في بعثة على هيئة طليعة ليحتكوا مع أناس البلاد. يُستقبلون بلطف عظيم، كان أهل البلد كلهم مبتسمين. يعرضون على البحارة الغرباء فوراً أن يشاركوهم غذاءهم المألوف. غير أن سكانٍ هذه البلاد هم من أكَلة اللوتُس Lotos. فكما أن الناس يتغذون بالخبز والخمر فهم أكَلة نبات شهي يدعى اللوتس. وإن أكل كائن بشري هذا الغذاء الشهي نسي كل شيء، فلا يعود يتذكر ماضيه، ويفقد كل فكرة عن ماهيته ومِن أين أتى وإلى أين يذهب. فمن يأكلْ من اللوتس يمتنعْ عن العيش كما يعيش الناس الذين تستقر في ذواتهم ذكرى الماضي والوعي بمن يكونون.

عندما يلتقي مبعوثو أوليس برفاقهم يمتنعون، وهم غير قادرين على أن يقولوا ماذا جرى لهم، عن ركوب البحر. إنهم إلى حد ما مخدَّرون في نوع من السعادة التي تشلُّ كل ذكرى. لا يتمنون إلا البقاء هناك حيث هم، وكما هم، دون روابط مع الماضي بعد الآن، ودون قصد، أيْ دون رغبة في الرجوع. يحملهم أوليس من رقابهم ويضعهم في مراكبهم ويبحر، فالمرحلة الأولى من رحلتهم إذن هي الأرض التي هي بلاد النسيان.

يمثل النسيانُ ومحوُ ذكرى الوطنِ والرغبةِ في الرجوع إليه، وهي أرضية كل مغامرات أوليس ورفاقه، تمثل هذه الأمورُ على امتداد الرحلة البحرية الطويلة التي ستلي، وفي كل لحظة، الخطرَ والشر. إن الوجود في العالم الإنساني معناه الحياةُ في نور الشمس ورؤيةُ الآخرين ورؤيتهم لك، الحياةُ بالتبادل وتذكُّرُ النفس والآخرين. أما هناك، فينتمون على العكسِ إلى عالم ستمد فيه قوى الظلام وأطفال ليل، كما يسميهم هيزيود، شيئاً فشيئاً ظلـّها البغيضَ على فريق أوليس، وعلى أوليس نفسه، سحابةً من الظلمة تبقى دائماً معلقة فوق البحارة تهدد بتضليلهم إن تُركوا يمضون في طريق النسيان.

أوليس شخصياً في مواجهة السيكلوب:

تركوا جزيرة أكلة اللوتس. تبحر سفينة أوليس. وهاهو ذا الأسطول الصغير يجد نفسه ملفوفاً بنوع من الضباب لا يُرى فيه شيء. وفي المساء يتقدم المركب دون أن

يجذفوا، ودون أن يعرفوا مسبقاً ما سيأتي. هاهم يسقطون على جزيرة صغيرة لم يكونوا لمحوها، ولم يميزوا فيها شيئاً. إن البحر نفسه أو الآلهة هي التي تدفع المركب إلى هذه الجزيرة الصغيرة غير المرئية التي يحاذونها في ظلمة مطلقة. حتى القمر لا يبدو، فلا يُميز شيء منها. إنهم هناك دون أن يستطيعوا التنبؤ بشيء مما يحدث لهم كما لو أن بابَ الظلام، بابَ الليل، انفتح أمامهم بعد جزيرة النسيان، وسيجتازون في هذا الممر مغامرات جديدة؟ ينزلون إلى الأرض. هذه الجزيرة الصغيرة تنفتح على مرتفع هو أنف جبل يخرج منها ويدخل في البحر، تقطنه الوحوش الخرافية العملاقة التي لها عين وحيدة وسط الجبهة، والتي تسمى السيكلوبات Cyclopes.

يضع أوليس مركبه في حماية خليج صغير، ويصعد مع اثني عشر رجلاً إلى أعلى التل حيث يكتشف كهفاً يتمنى أن يجد فيه ما يتزود به من مؤونة. يدخلون في هذه المغارة المجوفة العظيمة فيجدون فيها شِباكاً عليها الأجبان، ويكتشفون فيها حضارة رعوية؛ فما من زروع بل قطعان وأجبان، وربما أيضاً بعض العنب البري في الأسفل. بديهي أنه ليس لرفاق أوليس إلا فكرةٌ واحدة: نهْبُ بعض الأجبان والنـزولُ ثانية بأسرعِ ما يمكن بعيداً عن هذا الكهف الواسع الذي لا يشي بشيء مهم. يقولون لأوليس: هيا ننطلق، لكن أوليس يرفض. يريد أن يبقى لأنه يريد أن يرى، يريد أن يعرف ساكنَ هذا المكان. ليس أوليسُ الرجلَ الذي عليه أن يتذكر فحسب، بل يريد أن يرى، يعرفَ، يختبرَ كل ما يمكن للعالمَ أن يقدمه له، حتى هذا العالم دون الإنساني الذي قُذف إليه. يدفعه الفضول دائماً إلى البعيد، إلى ما يجازف هذهَ المرة بأن يجره إلى موته. هذا الفضول سيسبب في كل الحالات موت كثير من رفاقه. يصل السيكلوب حالاً مع ماعزه وخرافه وكبشه. وتدخل كل هذه المخلوقات الكهف.

السيكلوب عملاق ضخم هائل، لا يلحظ للتو هؤلاء السذَّجَ الصغار أشباهَ البراغيث، والذين يحتمون في زوايا الكهف مرتعدين من الخوف. وفجأة يكتشفهم السيكلوب ويتوجه إلى أوليس الذي يتقدمهم قليلاً سائلاً: «من أنت؟ » طبعاً يروي له أوليس قصصاً، يقول له، وهي الكذبة الأولى «لم يبق لي مركب» في حين أن مركبه ينتظره، «تحطّم مركبي ولذا أنا تحت رحمتك تماماً، أتوسل إليك مع رفاقي أن تقدم لنا الضيافة، نحن إغريق، حاربنا ببسالة مع أغاممنون على شواطىء طروادة، استولينا على المدينة، وها نحن الآن غارقون تعساء». يجيب السيكلوب «أجل أجِل، ولكن لا يعنيني شيء من هذه الحكايات». ثم يمسك باثنين من رفاق أوليس ويصكهما بجدار الصخرة فيفجِّر دماغيهما ثم يبتلعهما نِيّين. يتجمد البحارة الآخرون رعباً، ويتساءل أوليس «في

أي موضع وضعت نفسي»؟ لا سيما أنه لا أمل في الخروج لأن السيكلوب، وقد حل الليل، أغلق مدخل عرينه بصخرة ضخمة لا يستطيع أي إغريقي، بل فريق كبير، أن يحركها. في صباح الغد يتكرر السيناريو نفسه، يأكل السيكلوب أربعة رجال آخرين، اثنين صباحاً واثنين مساء، وهكذا يكون قد التهم ستة، أي نصف الفريق. السيكلوب مسلوب اللب. وعندما يحاول أوليس أن يتملقه بكلام معسول جداً ينعقد بينهما نوع من علاقات الضيافة، يقول له أوليس «سأقدم لك هدية أعتقد أنها ستملؤك رضاً». ينشأ بينهما حوار تنفتح خلاله علاقةٌ شخصية بينهما، علاقةُ ضيافة. يقدّم السيكلوب نفسه: اسمه بوليفيم Polyphéme، وهو رجل يتكلم كثيراً ويعرف كثيراً من المشاهير. يسأل أوليسَ عن اسمه؛ فالعادة من أجل أن تقوم علاقة ضيافة أن يعرِّف كلٌّ الآخرَ بشخصه، ومِن أين يأتي، ومَن هم أقاربه ووطنه. يصرح أوليس أنه يدعى أوتيس Outis أي: لا أحد. يقول له أوليس «الاسم الذي يطلقه عليّ أصدقائي وأقاربي هو أوتيس». هناك لعبة كلمات لأن مقطعَي أوتيس يمكن أن يتبدلا بطريقة أخرى؛ فيقال: ميتس: مي وتيس، فإن Ou و me في الإغريقية هما صيغتا النفي، ولكن إذا كان «أوتيس» تعني «لا أحد» فإن «ميتس» تعني الخدعة. ومن البديهي أنه إذا قيل «ميتس» انصرف التفكير حالاً إلى أوليس الذي هو بالضبط بطل الخداع والقدرة على إيجاد مخارج في أقصى حدود الإبهام، وعلى الكذب، وخداع الناس، وحكاية الترّهات، والخروج من المشكلات على أحسن حال. يتعجب السيكلوب «أوتيس، لا أحد!» بما أنك «لا أحد» سأجعل أنا أيضاً منك هدية: سآكلك بعد رفاقك. وعند ذاك يقدم أوليس هدية هي قسم من الخمر التي أودعها لديه مارون والتي هي شراب الآلهة. يشرب السيكلوب، يجده ساحراً، يشرب منه ثانية. ينام مخموراً متخماً بالجبن وبالرجلين اللذين ابتلعهما للتو. يجد أوليس الوقت ليحمّي على النار وتداً قوياً مسنون الطرف من شجر الزيتون. يساهم كل بحار ما يزال حياً في نجْر الجذع ثم في إنشاب الوتد المشتعل في عين السيكلوب الذي يفيق هادراً: لقد عميت عينه الوحيدة. هاهو وقد أُسلم هو الآخرُ لليل، للظلمة. بديهي أن يطلب النجدة عندئذ وأن تفزع له السيكلوبات المجاورة. تعيش السيكلوبات كلٌّ وحده، وكلٌّ سيد نفسه، لا يعرفون آلهة ولا زعماء خارج منـزل أحدهم، لكنها مع ذلك يُغيث بعضها بعضاً حتى لو كانت الاستغاثة خارج ما يعده كلٌّ منهم منـزله. يصرخون نظراً إلى أن الكهف مغلق: «بوليفيم، بوليفيمْ ماذا جرى لك؟» «آه هذا مريع، لقد قُتلت». «لكن من فعل بك هذا؟ ». «لا أحد، أوتيس». «لكن إذا كان لا أحد فعل بك شراً فلماذا تثقب آذاننا؟!» ثم ينصرفون.

وعليه فإن أوليس الذي اختفى وانسلّ، والذي تلاشى وراء الاسم الذي انتحله، يجد نفسه وقد نجا نوعَ نجاةٍ، ولكن ليسٍ تماماً، لأنه مازال عليه الخروج من الكهف المغلق بصخرة عظيمة. يرى أنّ على كلٍ من الإغريق الستة الذين مايزالون أحياء أن يختفي في سلة معلقة تحت بطن خروف حتى يستطيع الخروج من الكهف. وعليه هونفسه أن يتمسك بالصوف الكثيف للكبش الأثير على السيكلوب. جعل السيكلوب، وقد أزاح الصخرة التي تغلق المدخل، كلَّ خروف يمر بين ساقيه ويجسُّ ظهره ليتأكد أن أي إغريقي لن يغتنمه ليهرب عليه. ولا يلحظ أن الإغريق مختبئون تحت بطونها. وفي اللحظة التي يخرج فيها الكبش مع أوليس يتوجه السيكلوب إلى هذه الدابة، وهي محدِّثته الوحيدة، ليقول لها «انظري في أي حال جعلتني قسوة «لاأحد» المريعة، سأجعله يدفع ثمن هذا» يتوجه الكبش إلى المخرج، وينسلّ معه أوليس.

يدفع السيكلوب الحجر معتقداً أن الإغريق ظلوا في الكهف في الوقت الذي كانوا فيه خارجاً ينزلون بأقصى سرعة في الدروب الوعرة الصغيرة حتى الفرجة التي فيها مركبهم مموهاً. يقفزون إليه، يرفعون حبال المركب ويبتعدون عن الشاطىء. يلمحون السيكلوب في الأعلى منتصباً على قمة الصخرة يرمي نحوهم أحجاراً ضخمة رمْيَ عشواء. لا يقاوم أوليس في هذه اللحظة فرح التبجُّح والزهو فيصرخ نحوه «ياسيكلوب إذا سألوك من فقأ عينك فقل لهم إنه أوليس ابنُ لايرت Laërte، ابنُ إيتاك ناهبُ المدينة، قاهرُ طروادة، أوليسُ ذو الألف حيلة». من البديهي أنك إذا بصقت في الهواء سقطت البصقة على أنفك؛ السيكلوب هو ابن بوزيدون الإلهِ العظيم لكل الأمواج وكذلك لكل ما هو تحتَ الأرض: الزلازلِ والأعاصير لأن بوزيدون هو الذي يحْضرها. يطلق السيكلوب تجاه أوليس لعنة مدوية لا قيمة لها إلا إذا صرّح فيها باسم الذي تُوجَّهُ إليه اللعنة. لو قال «لاأحد» ربما بقيت اللعنة دون تأثير، ولكن السيكلوب يسلِّم اسم أوليس إلى أبيه بوزيدون ويطلب منه الانتقام له: «ألا لِيعجزْ أوليس عن العودة إلي بلاده إيتاك قبل أن يقاسي ألف عذاب، قبل أن يهلك كل رفاقه، ألا لِيغرقْ مركبُه ولْيتركْه وحيداً ضائعاً غريقاً، وإذا كان لأوليس أن يخرج من هذه اللعنة في وقت ما فلْيعدْ على الأقل كغريب على سفينة غريبة، لا كبحار ينتظره الناس ويعود إلى بيته على قاربه الخاص».

يسمع بوزيدون لعنة ابنه. وفي هذه الحلقة من القصة تبدأ إرادة بوزيدون تهيمن على كل المغامرات التالية لأوليس. وتتجلى إرادته في أن يقاد أوليس إلى أقصى حدود الظلمات والموت، وأن تكون تجاربُه الأعظمَ رعباً ما أمكن، كما ستشرح، فيما بعد،

أثينا الحامية العظيمة لأوليس. غير أن أثينا لا تستطيع التدخل إلا في نهاية هذا التيه، عندما كان قد عاد تقريباً لأن بوزيدون لا يمكن أن يسكت على الأذى الذي لحق بابنه السيكلوب. لماذا؟ لأن إلقاءَ عين بوليفيم في الظلام، إعماءَه، ستكون نتيجته أن يجد أوليس نفسه بدوره على طريقِ كلِ ما هو ليليٌّ مظلم ومشؤوم.

مغامرة عاطفية صغيرة مع سيرسيه:

يبتعد المركب عن موطن بوليفيم، ومن ثَمَّ يبلغ جزيرة إيول Éole، وهي أحد الأماكن التي يصادفها أوليس والتي أراد بعضهم تحديد موضعها، ولكنه حصراً من الأماكن التي لا يمكن تحديدها. إن جزيرة إيول مهجورة تماماً، محاطة بجدار من الصخور الشاهقة كحزام دائري من البرونز. هناك يعيش إيول مع أسرته دون أي علاقة بأحد. الإيوليون يتناسلون إذن متبعين نظاماً زواجياً محرماً بين الأقارب، وهم في وحدة شاملة، عزلة محلية. الجزيرة مكان تحويل الطرق البحرية، وهي العقدة التي تتوسط كل الاتجاهات في الوسط المائي. وإيول هو سيد البحار التي تبعاً لهبوبها من جهة أو أخرى تنفتح أو تنغلق، وأحياناً تغشّي وتُلبس طرق البحر. يستقبل إيولُ أوليسَ بحفاوة ولطف ولا سيما أن أوليس هو بطل حرب طروادة، أحد الذين ستُنشَد لهم الإلياذة Iliade. وما يحمله أوليس إلى إيول هو رواية ما يجري في العالم، هو ضجيج الكون الذي هو مفصول عنه كلياً؛ إنه سيد الرياح ولكن لاسلطة أخرى لديه. يتكلم أوليس ويروي، ويصغي إيول سعيداً جداً. وبعد بضعة أيام يقول له إيول: سأعطيك ما تحتاجه لتنطلق ثانية من جزيرتي وتمضي دون مشقة في إبحارك إلى إيتاك مباشرة. ويعطيه قِربة مغلقة بعناية أوصد فيها إيول على كل أصول الرياح باستثناء تلك التي تقود إلى إيتاك في خط مستقيم. يوصي إيولُ أوليسَ ألا يمسّ البتّة هذه القربة: إذا أفلتت الرياح فلن يمكن السيطرة على ما يفلت منها «انظر: الريح الوحيدة التي تهب الآن في الكون هي الريح التي تقودك من عندي إلى إيتاك». يتخذ من تبقّى من فريق الرحلة أماكنهم على السفينة؛ وهاهم ينطلقون مباشرة إلى إيتاك.

يلمح أوليس من سفينته في البعيد، وقد أتى المساء، شواطئَ إيتاك. يرى بأمِّ عينه أرضَ وطنه. ينام سعيداً جداً. يثقل جفناه وتغمض عيناه كما أغلق عين السيكلوب. هاهو قد عاد إلى العالمِ الليلي، عالِم هبنوس Hypnos، عالم النوم. إنه نائم على مركب يبحر نحو إيتاك. ينسى أن يسهر. يتساءل البحارة وقد خلدوا إلى أنفسهم عما أودعه إيول لدى أوليس في هذه القربة. يريدون تحديداً إلقاء نظرة عليها ثم إغلاقها.

وأخيراً على مقربة من شواطىء إيتاك يفتحون القربة. تنفلت الرياح مضطربة فيثور البحر وتنطلق الأمواج من عقالها. ينعطف المركب من جانب وينقلب إلى الجانب الآخر، إلى عكس الاتجاه الذي كان قد سلكه. يجد أوليس نفسه ثانية، وهو مغتاظ جداً، في المكان الذي انطلق منه، عند إيول. يسأله إيول عما فعل. يجيب «لست أنا من فعل، فقد نمت، أخطأت، تركت ليل النوم يغلبني، لم أسهر. والخلاصة هي أن رفاقي هم الذين فتحوا القربة». لا يحتفي به إيول هذه المرة. يتوسل إلى إيول «دعني أنطلقُ ثانية، أعطني فرصة ثانية» يغضب إيول ويقول له إنه أسوأ من كل سيء، إنه ليس إنساناً، لم يعد شيئاً، إن الآلهة تكرهه. يقول له: «من أجل حادثة سيئة كهذه التي حدثت لك يجب أن تكون ملعوناً. لاأريد أن أسمعك». وهاهم أوليس وبحارته ينطلقون ثانيةً دون أن يجدوا عند إيول السند الذي كانوا يرجونه.

وهكذا تصل بقايا أسطول أوليس عبر إبحارها إلى مكان جديد هو جزيرة الليستريغون Lestrygon. ينـزلون على الشاطئ هناك. توجد موانئ متميزة ومدينة. يقرر أوليس، وهو الأخبث دائماً من غيره، أن يضع مركبه بعيداً قليلاً في خليج صغير بعيد بدلاً من أن يرسوَ به. ونظراً إلى أن مغامراته جعلته حذراً يرسل جماعة من بحارته، ولا يذهب بنفسه، ليقدموا له تقريراً عن سكان هذه الأماكن. يتسلق البحارة باتجاه المدينة ويصادفون في طريقهم امرأةً شابةً ضخمة، من صنف الفلاحات، امرأةً نَصَفاً بدينة من النوع المألوف أكبر منهم كثيراً وأنشط تثير مشاعرهم. تدعوهم إلى مرافقتها «أبي الذي هو الملك مستعدٌ دائماً لاستقبالكم، سيعطيكم كل ما تريدون». البحارة راضون جداً كما أن قامة هذا الشخص الساحر لا تني تثير انفعالهم. يجدونها قوية وكبيرة جداً. يصلون إلى حضرة ملك الليستريغون الذي ما إن يراهم حتى يختطف أحدهم ويبتلعه. يُغذّ رجال أوليس في الهرب، وينحدرون إلى السفن ثانية وهم يصرخون «اهربوا، اهربوا، لِنختفِ من هنا» وفي أثناء ذلك يسرع كل الليستريغون وقد هيّجهم ملكهم إلى الخارج. يلمحون في الأسفل الإغريق الذين ينهمكون في الإقلاع بمراكبهم محاولين ترك المكان بأسرع ما يستطيعون. يصطادهم اللسيسترلغون كأسماك التُّنّ، ويأكلونهم. يهلك كل رفاق أوليس إلا الذين كانوا بعيدين على المركب المموه بعناية. ينطلق أوليس ثانية مع سفينة وحيدة وملاحيها.

سترسو هذه السفينة الوحيدة على جزيرة أيا Aea التي تقع في البحر الأبيض المتوسط. يجد أوليس ورفاقه هناك مكاناً لإخفاء السفينة ثم يغامرون قليلاً فينـزلون إلى البر. هناك صخور وغابة ونباتات؛ لكن البحارة، مَثَلُهم مَثَلُ أوليس، غدوا مرتابين؛

حتى إن أحدهم يرفض أن يتحرك من مكانه. يشجع أوليس الآخرين على استكشاف الجزيرة. ينطلق زهاء عشرين بحاراً مستطلعين ويكتشفون منـزلاً جميلاً هو قصر محاط بالزهور يبدو كل شيء فيه هادئاً. الأمر الوحيد الذي أقلقهم قليلاً ووجدوه غريباً هو أن في حدائق الضواحي عدداً كبيراً من الوحوش، من ذئاب وأسود، تقترب منهم بكثير من اللطف، تتمسّح بسيقانهم. يندهش البحارة ويقولون في أنفسهم «ربما نحن في عالم مقلوب، عالم في لا مكان، حيث الوحوش مدجّنة، وحيث البشر، فحسب، هم القتلة». يطرقون الباب فتأتي امرأة جميلة جداً لتفتح لهم. كانت منهمكة في الغزل والنسج وهي تترنم بصوت بديع. تُدخلهم وتدعوهم للجلوس وتقدم لهم شراب الضيافة بعد أن تصب فيه سائلاً سحرياً قوياً حتى إنهم ما إن شربوا منه قطرة حتى تحولوا إلى خنازير. اتخذوا جميعُهم مظهر الخنازير من الرأس إلى القدمين واكتسبوا منها أوبارها وأصواتها ومشيتها وغذاءها. تستمتع سيرسيه، وهو اسم هذه الساحرة، برؤية هذه الخنازير القادمة حديثاً إلى قائمة حيواناتها. تسرع إلى سَجْنهم في حظيرة للخنازير ستقدم لهم فيها العلف المألوف لهذه الحيوانات.

يبدأ القلق يراود أوليس وبقية البحارةالذين ينتظرون عودة رفاقهم المنطلقين أمامهم. يتوغل أوليس نفسه بدوره داخل الجزيرة ليرى أيستطيع حقاً أن يكتشف أحداً منهم. يظهر فجأة هرمس هذا الإله الماكر الخبيث ويشرح له ما جرى «حوّلت ساحرةٌ رجالك إلى خنازير، وستقدم لك حتماً الشراب نفسه، ولكن، لك فقط، سأعطيك دواء من شأنه أن ينجيك من التحول، فتبقى أنت أنت نفسك، تبقى دائماً أوليسَ نفسَه» ثم يمد له قطعة من النبات. يعود أوليس إلى رفاقه ويعلن لهم قراره بالذهاب إلى هناك. يحاولون جميعهم ثنْيه عن عزمه «لا تذهب إلى هناك، إذا كان الآخرون لم يعودوا فهذا يعني أنهم ماتوا». «سأذهب لأحررهم». يتناول الدواء الذي قدمه هرمس ويذهب إلى الساحرة. تُدخله الساحرة حالاً وسيفُه إلى جنبه. تُجلسه على كرسي مذهَّب جميل؛ أما هو فلا يلمِّح مطلقاً إلى رفاقه. يبدأ في تنفيذ ما عزم عليه عندما تذهب لتبحث عن الشراب السحري الذي تقدمه إليه. يرشف أوليس الشراب وهي تنتظر وتراقبه غير أنه لا يتحول إلى خنـزير. أوليس ينظر إليها دون انقطاع مع ابتسامة ودّ قبل أن يستلّ سيفه ويهجم عليها. تفهم الأمر وتقول له: «أنت أوليس، كنت أعلم أن سحري لا ينفع معك، ماذا تريد؟». «حرري رفاقي أولاً!».

سيتوطد في خلال هذا النوع من الاختبار بين ساحرة هي خالة ميديه Médée وبين أوليسَ، ومن خلاله هرمسَ الإلهِ الساحر وصانع الأشباح، نوعٌ من المباراة، ثم يتوطد

الوفاق أخيراً. سيعيش أوليس وسيرسيه علاقةَ حب سعيدةً جداً. إلا أنه يجب إطلاق سراح رفاقه. لماذا مسخَتْهم سيرسيه خنازيرَ؟ لماذا كانت تُضْمِر لكل المسافرين الذين يرسون على جزيرتها مصيراً مماثلاً؟ لأنها وحيدة تريد أن تحيط نفسها بكائنات حية عاجزة عن فراقها. من المفهوم بوضوح تام أن ما تتمناه بتحويلها هؤلاء المسافرين خنازيرَ أو حيواناتٍ أخرى هو أن ينسَوا العودة، ينسوا ماضيهم، ينسوا أنهم بشر. وهذا في الحقيقة ما يحدث لرفاق أوليس، ولكنهم يحتفظون مع ذلك بشيء من صفاء الذهن وبشيء من الذكاء يجعلانهم يفرحون برؤية أوليس ويتعرفونه. تلمسهم سيرسيه بعصاها، وبهذه اللمسة يعودون إلى شكلهم الإنساني؛ بل يصبحون بعد هذه التجربة أجملَ وأغضَّ شباباً وأعظم إعجاباً للنظر مما كانوا عليه قبلُ. كان هذا المرور بحالة الخنـزير نوعاً من المُسارّة، كما لوأنه يتوجب عليهم أنِ يعلِّموا الطريق الذي يقود إلى الموت بعلامات ليجدوا أنفسهم ثانية أكثر شباباً وجمالاً وحيوية، وهذا ما يحدث لهم في الوقت الذي يعودون فيه بشراً. كان بوسْعِ سيرسيه قتلُهم، وإذن فما كان ليبقى لهم الفكر؛ فالأموات ملفوفون كلياً بالليل، لَم يبق لديهم فكرٌ إلا واحداً منهم هو تيريزياس الذي سنجده تواً ثانية. ولكن هذه التجربة لم تكن لرفاق أوليس الموتَ تماماً؛ إنها انتقال إلى الحالة الحيوانية يقتلعهم من العالم البشري، ينسيهم ماضيهم، غير أنه يكسوهم عندما يخرجون من هذه الحالة ببريق جديد من الشباب.

سيعيش أوليس وسيرسيه فيما بعد مغامرة عاطفية صغيرة ساذجة؛ بل ربما ينجبون أطفالاً كما يؤكد بعضهم، غير أن هذا مشكوك فيه جداً. يتحابان ويتضاجعان فحسبُ، وتغني سيرسيه بصوتها العذب. وبداهة يستقدم أوليس رفاقه الذين ظلوا لدى انطلاقهم في المؤخرة فاقدين كل ثقة، ولكن لا صعوبة في إقناعهم «تعالوا تعالوا، لاخطر عليكم بعد الآن!» يبقى أوليس ورفاقه لدى سيرسيه طويلاً. وسيرسيه هذه الساحرة التي كانت قد اقترفت إثمَ مسْخِ كلِّ الرجالِ الذين تراهم يأتون إلى خنازير برية ليست سعلاة ولا ساحرة شريرة؛ فعندما يعيشون معها تفعل كل ما بوسعها ليكونوا سعداء. ورغم ذلك فإن رفاق أوليس الذين لم يحظَوا، إذ لم يبلغوا فراش سيرسيه، بالمُتَع نفسها التي حظي بها سيدهم، يشعرون بثقل الوقت. وعندما يذكّرون أوليس بأنه يجب التفكير بالرحيل لا تحتجّ سيرسيه ولا تحاول التمسك به، بل تقول له «إن أردتم الانطلاق فمن البديهي أن لكم الحق، انطلِقوا». وتزوّده بكل التعليمات التي تستطيع أن تضعها في تصرفهم لتنتهي رحلتهم نهاية سعيدة. تتوجه إلى أوليس خصوصاً وتقول له «أصغِ إليّ: المرحلة القادمة من إبحارك يجب أن تقودك إلى بلاد

السيميريين Cimmériens، هناك لا يظهر النهار البتة، بلادُ الليل، بلادُ الضباب الدائم، حيث ينفتح فم العالم الجهنمي». لم تعد المغامرة هذه المرة مجردَ الانقذاف فيِ الحد الأقصى للعالم البشري مع خطورة نسيان الماضي ونسيان الإنسانية، بل الوصولَ إلى حدود عالم الأموات نفسها. تشرح سيرسيه لأوليس الطريق الذي يجب أن يسلكه «ستوقف مركبك في مكان كذا، وتمشي على قدميك، وهناك سترى حفرة. سيكون معك شيء من الطحين، وستأخذ كبشاً وتذبحه؟ تنثر دمه. وسترى جمهوراً من المتشابهين يصعد من الأرض وأشباحاً ونفوسَ موتى. عليك حينئذ أن تتعرفَ من بينها نفسَ تيريزياس، تمسكَ بها وتسقيها من دم كبشك ليستعيد شيئاً من الحيوية، فيقولَ لك ما يجب أن تفعله».

الذين بلا أسماء، بلا وجوه:

ينطلق رفاق أوليس ويذهبون إلى هناك حيث أشارت سيرسيه. ينجز أوليس الطقوس الضرورية. إنه الآن أمام الحفرة وقد صب الطحين وذبح الكبش، والدم جاهز للشرب. عند ذاك يرى جمهرة أولئك الذين «ليسوا أحداً» كما كان قد زعم هو نفسه في معركته مع السيكلوب أنه «لا أحد»، أولئك الذين بلا أسماء، الذين لم تبق لديهم وجوه، لم يعودوا مرئيين، لم يعودوا شيئاً. يؤلفون كتلة غير متمايزة من الكائنات التي كانت في الماضي أفراداً ولكن لم يعد يُعرف عنهم شيء. من هذه الكتلة التي تصطف أمامهم تتصاعد إليه ضجة مرعبة مختلطة: لا أسماء لهم، لا يتكلمون؛ إذن هو ضجيج خوائي. يتملك أوليسَ خوفٌ مريع في مواجهة هذا المشهد الذي يحضِر أمام عينيه ومسمعيه النذيرَ بالتحلل الكاملِ في ضُهارة الأرض التي لا شكل لها، ويهدد كلامَه الأريب جداً بأن يغدو همهمةً غيرَ مسموعة، ومجدَه، وسمعتَه، وشهرتَه المنسياتِ كلَّها بخطر الضياع في هذا الليل؛ غير أن تيريزياس يظهر.

يسقيه أوليس، فيخبره تيريزياس أنه سيعود إلى بيته حيث تنتظره بينيلوب. ويخبره أخبار الجميع وموت أغاممنون، ويرى أوليس أيضاً ظلال عدد من الأبطال، يرى أمه، يتعرف أخيل ويسأله: يتكلم أخيل بعدما شرب قليلاً من هذا الدم الذي يعيد شيئاً من الحيوية. ماذا يقول أخيل في ذلك الوقت الذي يتغنى فيه العالم كله بمجده، وتشعّ شهرته ضوءاً حياً في العالم بأسره إذ غدا أنموذج البطل، وحيث يزعمون أنه لم ينكر تفوقَه في الجحيم نفسه؟ لِنُصْغِ إليه «كنت أفضّل أن لو كنت أحقر فلاح من أولئك الغارقين في الوحل والزبل، الذين يستحقون الرثاء، أفقرَ مَنْ يعيش تحت نور الشمس،

على أن أكون أخيل في هذا العالم من الظلمات، عالم هاديس» إن ما يقوله أخيل في الأوديسة هو عكس ما ترويه الإلياذة؛ ففيها أن أخيل كان له الخيار بين حياة مجيدة قصيرة وبين حياة طويلة بلا أمجاد؛ لكنه لم يتردد، ولم يشكّ: كان عليه أن يختار حياة المجد والموتَ البطولي في ريعان الشباب لأن مجد الحياة القصيرة التي تكتمل بميتة كريمة يساوي أكثر من كل ما تبقّى. الآن يقول النقيض تماماً؛ فلو قُيِّض له، منذ أن مات، أن يختار، لاختار أن يكون فلاحاً فقيراً يأكله القمل، وفي أفقر أرجاء اليونان على أن يكون أخيل العظيم في عالم الأموات.

يسمع أوليس هذا الاعتراف ثم ينطلق. يتوقف عند سيرسيه التي تستقبله من جديد. تطعمه هو ورفاقه، تقدم له خبزاً وخمراً. ثم ترشدهم إلى الطريق الذي عليهم اتباعه، وتدلّه على نحو خاص على الطريقة التي يجب عليهم أن يواجهوا بها الخطر الرهيب للصخورِ الهائمة Planctes، هذه الصخورِ الرجراجة التي تنضم ساعةَ يمر أحد بينها، عليهم لتجنُّبها أن يبحروا بين كاريبد Charybde وسيلا Seylla. كاريبد هاوية تهمُّ أن تلتهمهم، وسكيلا صخرة تصعد نحو السماء مع مسخ يلتقطك ويلتهمك. ترشدهم أيضاً أنهم سيقابلون، لا الصخور العملاقة فحسب، مع الاختيار الصعب بين هذين الخطرين، بل سيقابلون أيضاً السيرينات Sirènes على جزيرتهن الصغيرة: كل سفينة تمر أمامهن وتسمع غناءهن هالكةٌ لا محالةَ، لأن البحّارة لا يقاومون سحر هذا الغناء، ولأن سفينتهم ستتحطم حينئذ على الصخور. يصل أوليس بمركبه إلى مكان يرى منه الصخرة حيث تقيم المغنيات.

ماذا يفعل أوليس العبقري؟ تزوّد بشمع العسل. وفي اللحظة التي يلمحون فيها الجزيرة الصغيرة حيث تقيم السيرينات اللاتي هن عصافيرُ - نساءٌ أو نساء - عصافير، مغنياتٌ ذوات أصوات جميلة، يسد آذان أفراد فريقه بالشمع حتى لا يسمعوا شيئاً، ولكنه لا يتنازل هو عن الاستماع إليهن؛ إنه ليس رجل الوفاء والذاكرة فحسب، بل، كما في الجزء الخاص بالسيكلوب من هذه القصة، هو الرجل الذي يريد أن يعرف حتى ما لا يجب أن يعرفه. لا يريد أن يعبر بجانب السيرينات دون أن يسمع غناءهن، ودون أن يعرف ماذا يغنين وكيف يغنينه. يُبقي أذنيه مفتوحتين إذن ولكنه يربط نفسه بإحكام إلى سارية السفينة بطريقة لا يستطيع معها التحرك. تمر السفينة، وفي اللحظة التي تقترب فيها من جزيرة السيرينات يسُود فجأة هدوء كامل، تتوقف الريح، وينقطع الضجيج، ويبقى المركب شبهَ ثابت. وهاهن السيرينات يبدأن غناءهن. ماذا يغنين؟ يتوجهن إلى أوليس كما لو كنّ ربات الإلهام، كما لو كنّ بناتِ الذاكرة Mémoire

اللاتي يُلهِمن الشاعرَ هوميروس أشعارَه، تلك اللاتي يلهمن الشاعرَ المنشد عندما يروي مآثرَ الأبطال، يقلن له «أوليس، ياأيها المجيد، أوليس الحبيب، تعال، تعال، أصغِ إلينا، سنقول لك كل شيء، سنغني لك مجد الأبطال، مجدك الشخصي».

وفي الوقت نفسه الذي يكشفن فيه الحقيقة، أي كلَ ما جرى بالضبط، كلَ الحقيقة، فإن جزيرة السيرينات محاطة بكومة من الجثث التي تتحلل لحومها تحت الشمس على الساحل الرملي، إنها جثث كل الذين أذعنوا لهذا النداء، نداءِ الرغبة في المعرفة، والفتنةِ الجنسية، إنهن الإغراءُ نفسُه والموت. إن ما يقلنه لأوليس هو بطريقة ما، هو ما سيقال عنه عندما يكون قد خرج من هناك، عندما يكون قد اجتاز الحدود بين عالم الضوء وعالم الظلمات، عندما يكون هذا «الأوليس» قد أصبح الحكاية التي يصنعها الناس منه، والتي أنا في غمرة التذكير بمغامراتها. يروينها له وهو ما يزال حياً كما لو أنه مات من قبل، أو بالأحرى كما لو كان يوجد في مكان وفي زمان تبقى فيه الحدود بين الأحياء والأموات، بين نور الحياة وظلمة الموت، غيرَ متميزة بسبب عدم وضوحها، مشوَّشةً وقابلة للاختراق. يجذبنه نحو الموتِ الذي سيكون بالنسبة له تقديساً لمجده، هذا الموتِ الذي يقول عنه أخيل إنه لم يعد يريده حتى لو أنه رغب في هذا المجد عندما كان حياً لأن الموت فحسبُ يمكن أن يجلب للإنسان سمعة لن تفنى.

يسمع أوليس غناء السيرينات في حين يجتاز المركب ببطء. يتصارع مع نفسه ليلتحق بالمغنيات إلا أن بحارته يشدون أربطته بقوة. وأخيراً تبتعد السفينة عن السيرينات إلى الأبد. ثم يجد نفسه قرب الصخور التي ينضم بعضها إلى بعض وتتصادم. يفضل أوليس اتجاه سيلا على كاريبد، والنتيجة هي أنه في اللحظة التي يمر بها المركب تمسك سكيلا بعدد من البحارة برؤوسها الستة وأقدامها الاثنتي عشرة التي تشبه قوائم الكلب وتلتهمهم وهم أحياء. بضعةٌ منهم فقط ينجون. لم يبقوا كثيرين جداً. يصلون بعد قليل إلى جزيرة أخرى صغيرة هي تريكلاريا Triclaria، أرضُ الشمس. تخص هذه الجزيرةُ الشمسَ، هذه العينَ التي ترى كل شيء. هناك قطعان إلهية خالدة لا تتناسل، فعددها ثابت يتوافق مع عدد أيام السنة. لا يجب تغيير شيء فيها، لا إلى الأكثر ولا إلى الأقل. وهي كلها حيوانات بهية. وأحد الأسرار التي كاشف بها تيريزياسُ أوليسَ هو التالي: عندما تجتاز إلى جزيرة الشمس عليك بأي ثمن ألا تمسَّ أياً من حيوانات هذا القطيع المقدس. إن لم تمس أحدها فلك الحظ في العودة إلى منزلك. وإن فعلت خسرت كل شيء. يتذكر أوليس طبعاً قبل أن يرسو على تريكلاريا هذا الأمر ويُخطر به رجال سفينته: «سنصل إلى هناك حيث ترعى قطعان

الشمس، ولكن إياكم أن تتعرضوا لها، هذه الحيوانات لا يجوز مسُّها فهي منذورة، تشرق عليها الشمس بعناية خاصة؛ سنتناول ما ندّخره من طعام على السفينة، ولن نتوقف على هذه الجزيرة»؛ غير أن بحارته منهكون، اجتازوا لتَوِّهم مخاطرَ جسيمة فقدَ فيها بعضهم حياته، مرهقون أضناهم التعب. يجيبونه: «أنت قوي جداً لتقاوم الرغبة في التوقف».

يمسك أوريلوك Euryloque زمام الحديث باسم الجماعة ويقول «سنتوقف». يقول أوليس «حسناً ولكن لن نمد أيدينا إلا إلى الزاد الذي موَّنتنا به سيرسيه». كانت الساحرة تتناول الغذاء الإلهي لكنها أعطتهم الخبزَ والخمر، غذاءَ البشر. تحاذي السفينة الشاطىء الرملي فينـزلون ويأكلون زادهم. وفي الصباح يثور هواء عاصف يدوم أياماً وأياماً فلا يستطيعون الانطلاق. لقد حوصروا على الجزيرة، وشيئاً فشيئاً يستنفدون زادهم من الطعام. يضيّق الجوع عليهم ويعصر بطونهم.

الجوع هو أحد الكائنات التي يذكرها هزيود بين أطفال ليل، الجوع جزء مما أنجبه ليل في الوقت الذي أنجب فيه جريمة وظلمة ونسيان ونوم. نسيان ونوم وجوع، هذا الثلاثي المشؤوم، بين القدرات الظلامية الليلية يتربص بهم.

هناك، الجوع هو الذي ينفلت أولاً. إذن يلجؤون إلى الصيد. يلتقط الصيادون سمكة من وقت إلى آخر، ولكن هذا لا يكفي؛ فلا شيء تقريباً يأكلونه. يبتعد أوليس هذه المرة أيضاً عن رفاقه. يصعد إلى قمة الجزيرة ليرى ما يمكن رؤيته، وينام. مرة أخرى يجد أوليس نفسه ملفوفاً بليل النوم الذي أرسلته الآلهة. وفي أثناء نومه تخلو الساحة للجوع، وعن طريق فم أوريلوك يتوجه إلى كل الأصحاب «لن تبقوا هنا لتموتوا من الخَوَر، انظروا إلى هذه الأبقار البهية التي يسيل اللعاب لمجرد رؤيتها» يطوّقون القطيع مستغلين غياب أوليس المسجون في عالمه الليلي، ولم يعد هناك. ويضحُّون منها بكثير من الحيوانات التي اصطادوها. يتبعونها، يأسرونها، يذبحونها،ثم يطبخونها. يضعون قطعاً منها في القدور وقطعاً على النار. وفي هذه اللحظة يستيقظ أوليس في أعلى الجزيرة. يشم رائحة الدهن واللحم المشوي. يتوجه إلى الآلهة وقد ا ستولى عليه قلق رهيب قائلاً: «أيتها الآلهة لقد غررتم بي، أرسلتم إليّ ظلمة النوم الذي لم يكن نوماً هانئاً بل نوم النسيان والموت. وهاأنذا أجد نفسي الآن أمام هذه الجريمة» ينـزل، يشتم أصحابه، ولكن أولئك الذين نسوا ماائتُمنوا عليه ونسوا وعْدَهم لا يفكرون إلا في بطونهم.

غير أنه تظهر معجزات؛ فهذه الحيوانات التي قُطّعت أجزاء وطبخت تستمر في

خوارها كما لو كانت حية. إنها ميتة لكنها ماتزال حية لأنها خالدة. جرى الذبح بطريقة سيئة وآثمة، كما لو أنهم يصيدون حيوانات متوحشة؛ وهكذا اختلط الوحشي والحضري. الآن تتعدد المعجزات غير أن رفاق أوليس يستمرون في الطعام، في الالتهام، ثم ينامون. تهدأ الأمواج حالاً وتتوقف الريح. يركبون البحر ثانية. يمتطون القارب. وما إن يترك المركب الجزيرة حتى يتوجه هيليوس Hélios، لا إلى بوزيدون هذه المرة، بل إلى زيوس ليقول له «انظر ماذا فعلوا! قتلوا بهائمي، يجب أن تثأر لي، إن لم تثأر لي فسأمتنع، أنا الشمسَ، عن الإشراق على الآلهة الخالدة التي تقطن الأثير، وسأمتنع عن الإشراق على البشر الفانين الذين يرون على الأرض تتابع الليل والنهار. سأشرق للذين هم تحت، للأموات. سأنزل إلى هاديس وسينير ضوئي الظلمات. وأنتم ستكونون في الليل، والآلهة كذلك كما البشر». يثنيه زيوس عن عزمه قائلاً «سأتكفل بكل شيء».

ترك أوليس بسبب عدم تيقظه بحّارتَه يقترفون ذنْبَ الخلطِ بين المقدس والدنيوي، بين الصيد والأضحية، خلْطِ كل شيء مخاطرين بأن يضاء الليل بالشمس وأن يستقر الليل هناك حيث تلمع الشمس. ينطلقون بمراكبهم، ولكن لم يكونوا قد ابتعدوا عدة أمتار عندما أغرق زيوسُ من أعاليه السماءَ في الظلام. تثور الأمواج وقد حُصر المركب فجأة في الظلمة، وتضرب الصاعقة السفينة وتتحطم السارية وتصدم في سقوطها رأس الملاح الذي يهوي في الماء. يتفجر الزورق الصغير المهتز المقلوب إلى ألف قطعة. يجد رفاق أوليس أنفسَهم كما لو أنهم تحولوا إلى حيوانات شبيهة بطيور الزاغ، تتقاذفهم الأمواج. سينجرف أوليس حينئذ متشبثا بلوح خشبي طيلة تسعة أيام. وفي نهاية هذه المدة ستطرحه الأمواج وقد استُنزفت قواه تماماً على شاطىء هو جزيرة كاليبسو Calypso.

جزيرة كاليبسو:

أوليس هو الناجي الوحيد بعدما صُعق مركبه وتحطم، وطفا بقية بحارته على سطح البحر يترجحون كطيور الزاغ. يتعلق بسارية، بقطعة من المركب. يقوده التيار حالاً في الاتجاه المعاكس، أي إلى كاريبد حيث يجد نفسه في وضع مأساويّ. ينجو أوليس بشبه معجزة، يبقى تسعة أيام أخرى وحيداً منهكاً بين الأمواج ينقاد حيث تشاء تيارات الماء إلى طرف العالم. وهناك فقط يرسو كبحّار غارق، وفي اللحظة التي يستسلم فيها إلى الماء ليبتلعه، يحاذي جزيرة كاليبسو، وهي جزيرة في طرف العالم، بل إنها ليست

حتى في تخوم الفضاء البحري، فهي مفصولة عنه وعن الآلهة والبشر بمسافات شاسعة من الماء. إنها «لا مكان». يأوي أوليس منهكاً، وتستقبله كاليبسو. وخلافاً لما جرى عند سيرسيه حيث كان أوليس نفسه وبحارته هم الذين ذهبوا إلى الحورية يتوسلون موافقتها فإن كاليبسو هي التي ستنقذ أوليس هذه المرة.

سيبقى هناك دهراً: خمسةَ أعوام، عشرةً، خمسة عشر، لا يهمّ، لأن الزمن لمّا يوجد. إن أوليس خارج المكان وخارجِ الزمان، كلُّ يومٍ شبيهٌ بالآخر. عاش لقاءً غرامياً مع كاليبسو في مناجاة ثنائية غرامية مطّردة دون تماس بأيٍ كان، ودون شخص ثالث، في عزلة شاملة لهما الاثنين فحسب، في زمن لا يجري فيه شيء، حيث لا شيء يفاجئ، ولا حوادث. كل يوم يطابق الأيام الأخرى. أوليس خارج العالم، خارج الزمن عند كاليبسو، كاليبسو التي هي لأوليس حبٌّ كامل مليء بالعناية، لكنها التي، كما ينمُّ اسمها المشتق من فعل إغريقي يعني «أخفى»، هي المخفية في فضاءٍ خارجَ كل شيء، وهي التي تخفي أوليس عن كل النظرات.

فردوس صغير جداً:

الواقع أن حكاية هوميروس لمغامرة أوليس تبدأ بهذه الطريقة. فالبطل مخفي عند كاليبسو منذ عشرة أعوام. يعيش مع الحورية. وصل إلى نهاية الرحلة، إلى نهاية مغامرته. هناك تحديداً تصل القصة إلى ذروتها لتنحلَّ عقدتها. ستتدخل أثينا مستغلةً فرصة انشغال بوزيدون بمتابعة أوليس، فهو لغيظِه وكرهِه لا يشك في شيء. انطلق بوزيدون إلى الأثيوبيين، كما يفعل غالباً، ليؤاكل تلك الكائنات الأسطورية الشابة دائماً والتي تفوح منها رائحة البنفسج، والذين لا يعرفون العفن، وليس لهم شيء يعملونه لأنهم يجدون في كل صباح، وفي مرج ما، الغذاءَ الحيواني والنباتي جاهزاً تماماً مطبوخاً كما لو أنهم يعيشون في عصرٍ ذهبي ما. يقطنون في طرفي العالم، في شرقه وغربه الأقصيين. يزورهم بوزيدون في تُخمي العالم، يأكل ويستمتع معهم. تستفيد أثينا إذن من هذه الفرصة لتشرح لأبيها زيوس أن وضْعَ أوليس الحالي لا يمكن أن يستمر هكذا، وأن كل أبطال الإغريق الذين لم يموتوا في أرض طروادة أو لم يهلكوا في البحر في أثناء عودتهم همُ الآن في بيوتهم، وأنهم وجدوا ثانيةً أهاليهم وبيوتهم وزوجاتهم إلا أوليسَ، الصالح أوليسُ الذي لها معه علاقات متميزة، منزوٍ لدى «الكاليبسو» هذه. يتخذ زيوس قراره تحت إلحاح ابنته أثينا وفي غياب بوزيدون، يُبْطِل أذى السحر، يجب أن يعود أوليس. هذا سهل القول لكن على كاليبسو أن

تتركه أيضاً. يكلف هرمس بهذه المهمة، وهرمس مستاء جداً من هذه المهمة لأنه لم يزر كاليبسو قطّ، وهذا بديهي لأن كاليبسو نوع من اللامكان، بعيدة عن الآلهة والبشر، ويجب للوصول إليها اجتياز مسافة شاسعة من الماء المالح والبحري.

يلبس هرمس صندله وينطلق سريعاً كالبرق، كالفكر. يبحر إلى جزيرة كاليبسو مقطبّاً قائلاً في نفسه إنه أذعن لهذه المهمة طاعةً ورغماً عنه. مندهشٌ من اكتشاف هذا المكان من اللامكان: هذه الجزيرة الصغيرة تشبه فردوساً مصغّراً، حدائقُ وغاباتٌ وينابيعُ وعيونٌ وأزهار وكهوف مؤثثة جيداً تغني فيها كاليبسو وتغزل وتنسج وتضاجع أوليس. هرمس مبهور، يرسو على كاليبسو، لم ير أحدهما الآخر قط ولكن يعرفه «يا عزيزي هرمس لم أعتد على مقابلتك؛ ماذا جئت تفعل هنا؟». يجيب هرمس «لم أعتد على لقائك، في الحقيقة لو كان الأمر لا يتعلق إلاّ بي لما جئت؛ لكن لديّ أمراً من زيوس، لقد بُتّت الأمور؛ فعليك أن تتركي أوليس ينطلق، يرى زيوس أن لا سبب يمنع أوليس وحده من بين كل أبطال طروادة من العودة إلى بيته». تردّ كاليبسو «توقف عن هذه الترهات؛ أعلم لماذا تريدونني أن أعيد أوليس، لأنكم أنتم الآلهة قوم تستحقون الرثاء، أنتم أسوأ من البشر، غيورون، الفكرة التي لا تستطيعون تحملها هي أن تعيش إلهة مع فانٍ. تزعجكم فكرة أني هنا منذ سنوات باطمئنان مع هذا الرجل في سريري». تضيف وهي لا تملك الخيار «حسناً، موافقةٌ سأعيده».

يعود هرمس إلى الأولمب. ومذ ذاك تتردد الحكاية نفسها: مسير أوليس أبعده عن عالم البشر، قاده إلى بلاد الموتى، إلى السيميريين، إلى أقصى جبهة عالم الضوء، عالم الأحياء. الآن هو خارج الفعل، في هذا النوع من المكان المعزول عن البشر كأنه في مكان إلهي، معزولاً على مساحة بحرية، تجمّد تيهُه في هذا الثنائي العشقي المختلي بكاليبسو منذ ما يقرب من عشر سنين.

ماذا كان يفعل أوليس لحظة دخول هرمس كهف كاليبسو؟ كان قد انطلق وحيداً إلى أنف جبل مواجهٍ للبحر يزبد أمامه بأقصى قوته، كان يبكي كلَّ ما في جسمه من دموع. كان يذوب بنقاء. يُخرج كلّ ما فيه من حيوية رطبة من خلال عينيه، من خلال جلده، دون أن يستطيع أن يفعل شيئاً حِياله. لماذا؟ لأنه كان يتحسر على حياته الماضية، يتحسر على إيتاك، وعلى زوجته بينيلوب. لم تكن كاليبسو تستطيع أن تجهل أن أوليس ما يزال يفكر بالعودة، وأنه كان «رجل العودة». لكنْ كان لديها الأمل أن تتوصل إلى أن تفعل به «نسيان العودة»، إلى أن تفعل به هذا فلا يعود يتذكر ماذا كان سابقاً. بأي طريقة؟ كان أوليس في بلاد الموتى، كان قد سمع هناك بين الأشباح أخيلَ

يقول له: ما أرهب أن يكون المرء ميتاً! إن هذا النوع من الشبح دون حياة ودون وعي، الذي يُصار إليه، هذا الظلّ الغُفلُ من الاسم، هو أسوأ مصير يمكن للمرء أن يتخيله. ستعرض عليه كاليبسو في نهايةِ هذه الرحلة، نهايةِ هذه المحن، أن يكون خالداً ويبقى شاباً دائماً ولا يرتاع بعدُ من الموت والهرم.

كانت تعلم ما تفعل وهي تصوغ هذا الوعد المزدوج؛ هناك قصة لا يمكن أن تُجهل، فكل الناس يعرفونها: سقطت أورور (الفجر) Aurore صريع حب شاب جميل جداً كان يُسمّى تيتون Thiton، كانت اختطفته ليعيش معها، وكانت قد طلبت من زيوس أن يمنح الخلود لهذا الشاب بذريعة أنها لا تستطيع التخلي عنه، حتى لا تنفصل عنه أبداً. كان زيوس قد قال لها مع ابتسامة ساخرة «حسناً موافق على الخلود!». وعلى هذا وصل تيتون شاباً إلى القصر الذي تسكنه أورور على الأولمب مع امتياز خاص وهو أنه لا يجوز أن يموت. ولكن بعد زمنٍ ما غدا أسوأ من عجوز، غدا كحشرة متجعدة تماماً، لم يعد يستطيع الكلام والحركة، ولا يتغذى بشيء: إنه شبح حي.

النسيان المستحيل:

لا تقدِّم كاليبسو مثل ذاك الوعد إلى أوليس، تقدم له الوعد بأن يكون حقاً إلهاً، أي خالداً شاباً أبداً. كانت سيرسيه قد حوّلت بحارة أوليس إلى بهائم تحت صنف البشر لتجعلهم ينسون العودة؛ أما كاليبسو فتعرض على أوليس أن يتحول إلى إله، لا إلى حيوان، للهدف نفسه، من أجل أن ينسى إيتاك وبينيلوب. مأساة هذه القصة وعقدتها هما أن أوليس يجد نفسه أمام هذا المأزق: رأى ما هو الموت، رآه حينما كان عند السيميريين على حافة جهنم، رآه عند السيرينات اللواتي كنّ يغنين مجده من جزيرتهن المحاطة بالجثث. تقدم له كاليبسو إذن اللاموت والشباب الخالد؛ لكنّ هناك ثمناً يجب دفعه ليكتمل هذا التحول. الثمن المطلوب هو أن يبقى هناك، أن ينسى وطنه. وفضلاً عن ذلك إن عاش عند كاليبسو فسيبقى مخفياً، إذن امتنع أن يكون هو هو، أي أوليساً، بطلَ العودة.

أوليس هو رجل الذكرى، مستعد لأن يقبل كل المحن، كلَّ العذابات ليحقق مصيره وهو أن يُقذف به إلى حدود عالم الإنسان، وأن يستطيع وأن يعرف وأن يريد دائماً العودةَ، وأن يجد نفسه ثانية. عليه إذن أن يتخلى عن كل هذا. إن ما يقدَّم إليه يعني للإغريق الخلودَ الغُفْلَ، لا خلودَ أوليس. تقول أثينا عندما تأتي إلى إيتاك في زيارة لتيليماك Télémaque وهي متنكرة في هيئة ناصح عجوز حكيم صديق لأوليس «أنت

تعرف أباك.إنه رجل حاذق جداً ماكر جداً، أنا واثق أنه سيعود. استعِدّ له، يجب أن تساعده. اذهب إذن إلى المدن الأخرى من اليونان إن كان لديها أخبار عنه. لا تبق هناك خاملاً تبكي، تحرّك». يجيب تيليماك أولاً أنه ليس متأكداً أن الموضوع موضوع أبيه. بينيلوب أمه قالت له إن أوليس كان أباه، لكنه لم يره قط. الحقيقة أن أوليس غادر بعدما وضعته أمه للتو، لم يكن عمره إلا بضعة أشهر.

على أن تيليماك عمره الآن عشرون عاماً، وهذا يعني أن أوليس غادر منذ عشرين عاماً. يجيب تيليماك أثينا أن أباه ليس مجهولاً إليه فحسْبُ؛ إنه حسب إرادة الآلهة الكائنُ الذي لا يُرى البتّة، لا يُسمع، عصيّ على البصر والسمع. اختفى كما لو أن النساء الطائرات Harpies اختطفنه من عالم البشر. لا أحد يعرف ماذا أصبح الآن. ويُردف «على الأقل لو كان مات وهو يقاتل على الأرض الإغريقية، أو مات عائداً مع مراكبه ورفاقه، لكنّا استعدْناه، شيّدنا له نصباً مع شاهدة تحمل اسمه، ولكان معنا بطريقة ما. وفي جميع الأحوال كان سيورثنا، أنا ابنَه وكلَ أسرته، مجداً لا يفنى؛ في حين أنه الآن مختفٍ عن هذا العالم، ممحوٌّ مبتلَعٌ دون مجد». إن ما تعرضه كاليبسو على أوليس هو أن يكون خالداً شاباً إلى الأبد في سحابة من الظلمة، دون أن يسمع أحدٌ مَن يأتي على ذكره، دون أن ينطق كائن بشري اسمه، وطبعاً، دون أن يتغنى أي شاعر بمجده. وكما يقول باندار Pindare في إحدى قصائده «عندما تُنجَز مأثرة عظيمة يجب ألا تبقى مكتومة». والاختفاء هو الفعل اليوناني نفسه الذي اشتق منه اسم كاليبسو؛ من أجل أن توجد هذه المأثرة يجب أن تحظى بمدح ملحمي على لسان شاعر عظيم.

من المفهوم أنه إن يبقَ أوليس لدى كاليبسو فلن توجد الأوديسة ولن يوجد بالتالي أوليس. إذن ما يزال المأزق هو التالي: إمّا خلود غُفلٌ دون اسم، وهذا يعني أن أوليس سيجد نفسه يحيا إلى الأبد كأموات الهاديس الذين يُسمّون «دون اسم» لأنهم فقدوا هوياتهم، أو إن اختار العكس فإن وجوده فانٍ بالتأكيد، ولكن سيجد نفسه ثانيةً خالداً في الذاكرة مكللاً بالمجد. يقول أوليس حينئذ لكاليبسو إنه يفضّل العودة.

لم يبق لديه رغبة ولا شهوةُ جنسٍ نحو هذه الحورية الحبيسة التي عاش معها وحيدين، ليس إلا هو وهي، عشرَ سنين. وإن ذهب في المساء لينام معها فلأنها تريده، لا لأنه يريدها. رغبته الوحيدة هي أن يجد ثانية حياته الفانية، بل يرغب حتى في الموت. إن رغبته تتوجه نحو الحياة الفانية، يتمنى إكمال حياته الفانية. تقول له كاليبسو «أأنت متعلق إلى هذا الحد ببينيلوب؟ أتفضّلها علي؟ أتراها أجمل مني؟». «ليس الأمر

هذا تماماً، يجيب أوليس، فأنت إلهة، أنت أجمل منها وأعظم وأشد سحراً، أعلم هذا جيداً، لكن بينيلوب هي بينيلوب، هي حياتي، زوجتي، وطني». «حسناً، تقول كاليبسو، أفهم ما تقصد»؛ فتنفّذ الأوامر حينئذ وتساعده في بناء طوافة. يقطعان الأشجار معاً ويسويانها لتؤلف طوافةً متينة عليها ساريةٌ. وهكذا يترك أوليس كاليبسو، وتبدأ سلسلة جديدة من المغامرات.

عارٍ ولا مرئي:

يُبحر أوليس على هذه الطوافة. كل شيء على مايرام. يلمح بعد عدة أيام من الإبحار جزيرة الفياسيين Phéaciens كما لو كانت درعاً ملقاة على سطح البحر. وهذه هي اللحظة التي يكون فيها بوزيدون قد انتهى من وليمته لدى الأثيوبيين فينطلق إلى الأولمب. يرى من أعالي السماء طوافة يتعلّق بساريتها رجل جسور، يتعرف أوليس، يتملكه غضب عارم: منذ عشر سنين لم يسمع شيئاً عن هذا الشخص الغريب الأطوار؛ لكنه يعرف أن الآلهة قررت بشأنه أمراً يخالف ما قرره زيوس؛ ولذا لا يستطيع الأخير مقاومته فيصعق الطوافة من جديد فتتفجر، وهاهو أوليس يسبح ضد الأمواج المنفلتة، يبتلع الماء، وعلى وشك الهلاك. تلمحه في هذه اللحظة، لحسن حظه الشديد الإلهةُ البيضاء، إينو لوكوتيه Ino Leucothée التي تظهر أحياناً للغارقين في العواصف العظمى وتنقذهم. تقترب من أوليس وتمدّ له وشاحاً ليكون حزاماً، قائلة له «البسْه لا تهلكْ، ولكن قبل أن تضع قدمك على الأرض ارمِه بعيداً». يأخذ أوليس الوشاح ويسبح بصعوبة. يقترب من الشاطئ إلا أن الأمواج المرتدة تبعده كل مرة يحاول فيها الرسوّ. وأخيراً يلمح على الشاطئ، أبعد قليلاً، شِبهَ مرفأ صغير، مكاناً يصب فيه نهرٌ، سيلٌ، فلا تتحطم الأمواج فيه على الصخور. يسبح إلى هناك. ها قد حلّ المساء وما عاد في وسعه أن يفعل شيئاً فهومنهك. يلقي الوشاحَ التعويذةَ. يتقدم خَبْطَ عشْواءَ، ويسقط فوق المنحدر بقليل حيث يختفي تحت كومة من الأوراق وهو يتساءل عمّن يسكن هذا المكان، وأيّ خطر يهدده. قرر ألاّ يغمض عينيه رغم استنزافه قواه؛ فقد مضت ليالٍ لم ينم فيها. إنه مغطى بالوسخ لأنه استوى على نار هادئة خلال أيام وأيام دون أن يستطيع الاغتسال. الملح يغطيه، وشعره كذلك وسخ أشعث. يتمدد، وحالاً تعود إليه أثينا التي كفت عن التدخل منذ زمن بعيد، فتنيمه.

هذه الجزيرة هي جزيرة الفياسيين، في منتصف الطريق بين عالم الناس، عالم إيتاك والإغريق، وبين عالم غريب عجائبي، حيث تتجاور أكلةُ لحوم البشر والآلهةُ. وموهبة

الفياسيين بالضبط هي أنهم خبراء في التعدية، هم بحّارة يتصرفون في مراكب سحرية تبحر وحدها بسرعة عظيمة في كل الاتجاهات المطلوبة دون الحاجة إلى توجيهها أو دفعها بالمجاذيف. وهي مراكب تشبه إلى حدٍ ما هِرْمِسَ، إلـهَ السفر والممرات، في قدرتها على الذهاب والإياب من عالم إلى آخر. وفضلاً عن ذلك ليست هذه الجزيرة على تماسٍّ مباشر بالخارج. الفياسيون معدّون؛ لكن لا أحد يأتي إليهم، لا إنسان غريب يذهب إلى هناك مطلقاً. بل على العكس يحدث أن تذهب الآلهة إلى هناك لتقوم بنفسها بجولة، وتشخُص كما هي دون حاجة إلى أن تتنكر.

فجراً أوليس مخفيٌّ في هذا الدغل نائمٌ، وفي القصر الملكي ابنةُ الملك التي حلمت في الليل بزوج عتيد. هي في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها، هي في سن الزواج إذن، لكن ربما ليس من السهل أن تجد في فياسي رجلاً جديراً بأن تتوفر فيه متطلبات أبيها من صهره، حلمت الفتاة، وربما تكون أثينا هي التي وجّهت حلمها، بزوج قد يحقق طموحاتها. وفي الصباح استدعت خادماتها اللاتي ركضن وجمعن كل ما يحتاج إلى غسيل في القصر ليغسلنها في سيل نقي، ثم يجففن على الصخور تلك الأقمشة الجميلة والأغطية والأثواب. حين انبلج الصباح سُقنَ عربة مظللةً ذات عجلتين تجرها الدواب يحملن كل القماش المتسخ إلى السيل. وبعد أن يغسلنها يتسلين بلعب الطابة. تخفق خادمة خرقاء فتفوتها الكرة التي رمتها إليها نوسيكا Nausicca وتسقط في السيل. تطلق البنات صرخات حادة لما حدث.

يخرج أوليس، وقد استيقظ مذعوراً، من الأوراق التي يلتحفها. ينظر إلى المشهد وهو عار كدودةٍ مرعبة. فتهرب كل الفتيات من هذا المنظر كعصافير مذعورة باستثناء واحدة هي نوسيكا كُبراهُنّ وحُلواهُنّ، والتي هي بين هؤلاء الفتيات كأرتيميس Artémis وسط أتباعه، دائماً درجة إلى الأعلى. لا تتعثر نوسيكا بل تبقى ثابتة. يراها أوليس، تنظر إليه وهي تتساءل حتماً: من هذا الأبله المرعب، هذا المسخ؟ لكنها لا تتحرك فهي ابنة الملك. وحينئذ يسألها أوليس الذي مرآه مرعب حقاً لكن مسمعه معجِب لأنه رجل الكلام الحاذق «من أنتِ؟ أأنت إلهة مع وصيفاتها؟ أنا غريق رماني البحر بعيداً لسوء حظي. اسمعي: عندما أراك تخطر لي تلك النخلة الشابة التي سبق أن رأيتها في ديلوس Délos في خلال إحدى رحلاتي، تلك النخلة الرشيقة التي كانت تمتد مستقيمة تماماً إلى أعالي السماء، كنت مذهولاً لرؤيتها، وأنت أيضاً تشبهينها تماماً، مذهول لمنظرك ومرآك». تجيبه نوسيكا «كلماتك تكذّب مظهرك، ليس لك هيئةُ فلاح». تنادي وصيفاتها وتطلب منهن الاهتمام بهذا الرجل: «أعطِينهُ ما

يغتسل به ويلبسه». يدخل أوليس في قلب السيل يتخلص من كل الأوساخ، من كل الأدران التي تغطي جلده. يغتسل ويلبس. تضفي عليه أثينا، طبعاً، بعد ما جرى، الأناقةَ والجمال، تجعله أبهى شباباً وقوة. تكسوه الأناقة والبريق والسحر. وهكذا يتألق أوليس حُسناً وإغراء. تنظر نوسيكا إليه وتقول مُسارّةً وصيفاتها «أصغين: هذا الرجل كان يبدو لي منذ قليل غيرَ مناسب، غيرَ نِدّ لي، مرعباً، والآن يبدو لي شبيهاً بالآلهة التي تقطن السماء».

من هذه اللحظة تبرز في رأس نوسيكا فكرةُ أن هذا الغريب الذي أرسلته الآلهة يصلح زوجاً لها على نحو ما، وأنه يمثل أمامها إمكان هذا الزواج، هذا القرينَ الذي كانت تحلم به. عندما يسألها أوليس ماذا عليه أن يفعل تأمره أن يذهب إلى قصر أبيها ألسينوس Alcinoos وأمها أريتيه Arétè: «ستذهب إلى هناك متخذاً بعض الاحتياطات؛ أما أنا فسأعود إلى القصر مع خادماتي. لكن، أنت تعلم هذا، يجب ألاّ نُرى معاً؛ فأولاً لم يُرَ غريبٌ هنا، وكل الناس يعرف بعضهم بعضاً، وإذا لوحظ شخص غير معروف تساءلوا عنه، وفضلاً عن ذلك إن شوهد في رفقتي فتصوَّرْ ما يمكن أن يخطر لهم؛ إذن ستنطلق بعدي، وتتبع الطريق إلى مكان كذا، ثم تدخل القصر الجميل المحاط بحدائق أخّاذة تزهر وتثمر في كل فصل، وهناك أيضاً مرفأ مع قوارب جميلة، ستدخل القصر وترتمي على قدمي أمي أريتيه، تكبّ على ركبتيها وتسألها حق الضيافة. وقبل أن تبلغ القصر لن تتوقف في الطريق ولن تسأل أحداً».

تبتعد نوسيكا، ويلاحظ أوليس فتاة شابة صغيرة: إنها أثينا المتنكرة في هذا المظهر، تقول له «ستتبع تعليمات بنت الملك، ولكن في الوقت نفسه سأجعلك غير مرئي حتى لا تصادف عقبة في خلال مسيرك. وفي خلال المدة التي أنت فيها غير مرئي لا تنظرْ أنت أيضاً إلى أحد، لا تقابلْ بنظراتك نظرات الآخرين، لأنه من أجل أن تكون غير مرئي، عليك أيضاً عدمُ النظر إلى غيرك».

يتقيد أوليس بكل هذه التوصيات. يصل إلى القصر ويرتمي على قدمي الملكة وفي خلال اجتياز الصالة التي يجتمع فيها كل النبلاء الفياسيين يبقى أوليس غير مرئي. يقترب من العرش حيث يجلس جنباً إلى جنب الملكُ ألسينوس والملكةُ أريتيه، وحينذاك فقط تبدّد أثينا السحابةَ، ويكتشف الفياسيون مذهولين هذا الغريبَ الذي يحضن ركبتي ملكتهم. يقرر أريتيه وألسينوس استقباله ضيفاً. ويقام احتفال عظيم يستعرض في خلاله أوليس مزاياه الرياضية البارعة. يثيره قليلاً أحد أبناء الملك لكن أوليس يحافظ على رباطة جأشه. يرمي القرص إلى أبعد من الآخرين، ويثبت هكذا أنه

رجلٌ يستحق الاحترام، بطلٌ. يُطلب من أحد الشعراء أن ينشد. يأخذ الشاعر ينشد حرب طروادة، وأوليس إلى جانب الملك. يروي مآثر عدد من رفاق أوليس وموتهم. وفي هذه اللحظة يعجز أوليس عن أن يتماسك، يغضي برأسه ويغطي عينيه بطرف ثوبه كي لا يُرى بكاؤه، لكن ألسينوس يتبين حيلته. يفهم أن الرجل الجالس بجانبه يجب أن يكون أحد الأبطال اليونان ليجعله هذا الإنشاد يضطرب. يوقف الملك الغناء، وبطريقة ما فإن أوليس هو الذي يحل محل الشاعر. وهو الذي سيفصح عن حقيقته: «أنا أوليس». وسيروي على طريقة المنشد جزءاً عظيماً من مغامراته.

يقرر الملك إعادة أوليس إلى إيتاك. يفعل هذا لأنه يجب فعله، ليس دون حزن لأنه هو أيضاً فكر بابنته.أفهَمَ أوليسَ أنه إن أراد البقاء هناك معهم، مع الفياسيين، والنوم مع نوسيكا، فسيكون صهراً مثالياً، سيحكم على أثره المملكة الفياسية. يشرح أوليس أن عالمه وحياته هما إيتاك، وعليه من ثم مساعدتُه على أن يجدهما مرة أخرى. وقريباً من المساء تُجمع هدايا مختلفة، وتُملأ إحدى السفن الفياسية. يصعد أوليس المركب ويودع الجميع، يودّع الملك والملكة ونوسيكا كما ودع كاليبسو وسيرسيه. يبحر المركب، وسيجد المياه الإنسانية. تنقل هذه السفينة أوليس من هذا العالم اللامكان حيث عاش على تخوم البشرية، على هوامش النور والحياة، إلى وطنه، إلى بيته، إلى إيتاك.

متسوّل غامض:

ما إن يمتطي المركب حتى ينام وحتى يبحر المركب وحده. يصل البحارة الفياسيون إلى إيتاك إلى شاطئ يُرى منه شجرةُ زيتون تنبسط، ومدخلُ كهف الحوريات، والمرتفعاتُ الجبلية. نوع من الميناء الطبيعي مع جدارين صخريين عظيمين يؤلفان الواجهة. يترك الفياسيون أوليس نائماً على الشط تحت هذه الشجرة وينصرفون كما أتوا. لكن بوزيدون من أعلى السماء رأى كيف جرت الأمور؛ كان قد خُدع مرة أخرى: لقد رجع أوليس. يقرر الإله الانتقام من الفياسيين. وفي الوقت الذي تصل فيه السفينة بلاد فياسيا يضربها بمِذْراته الثلاثية فتتحول السفينة إلى حجر وتصبح، وقد غرقت في البحر، جزيرةً صخرية صغيرة، ولن يعود الفياسيون قادرين أن يعملوا معدّين بين العوالم المختلفة. والباب الذي عبر منه أوليس في بداية الحكاية والذي اجتازه تواً في عودته سيغلق إلى الأبد. وسيؤلف العالم الإنساني كُلاً وسيجعل منه أوليس منذ الآن وطنَه.

صباحاً مع الفجر يستيقظ أوليس وينظر هذا المشهد الذي بدا له مألوفاً تماماً، حيث

قضى كل شباب عمره، ولا يتعرف منه شيئاً. وقد قررت أثينا أن على بطلنا أن يتحول كلياً قبل أن يعود. لماذا؟ لأن زهاء مئة من طالبي الزواج يعيشون في منـزله خلال مدة غيابه، وخصوصاً خلال السنوات العشر الأخيرة معتبرين أوليس ميتاً، وإن لم يكن، فمفقوداً إلى الأبد. يتقابلون فيه ويمضون وقتهم، يأكلون فيه ويشربون مجْهِزين على القطعان ومستنفدين مدخرات الخمر والقمح بانتظار أن تختار بينيلوب هذا أو ذاك من بينهم، وهذا ما لم تكن تريده بينيلوب. لجأت إلى ألف حيلة. زعمت أنها لن تستطيع الزواج قبل أن تتأكد أن زوجها مات. ثم زعمت أنها لن تستطيع الزواج قبل أن تُعدّ كفناً لحميها، تنسج له قماشاً يكفّن فيه. إذن كانت في جناح النساء بينما كان المتقدمون للزواج في الصالة الكبرى حيث يجتمعون إلى الطعام، وينامون بعد الطعام مع أولئك الخادمات اللواتي قبلن خيانة مصالح أسيادهن. يرتكبون هناك ألف نوع من الجنون.

بينيلوب في غرفتها تنسج القماش طوال النهار لكنها تفتق كل ما نسجته عندما يأتي المساء. وهكذا استطاعت طوال عامين تقريباً أن تخدع طالبيها متذرِّعة بأن العمل لمّا يكتمل. لكن إحدى الخادمات كشفت الحقيقة أخيراً إلى طالبيها الذين يلحّون آنذاك على بينيلوب أن تتخذ قرارها. بديهي إذن أن ما تريد أثينا تجنُّبه هو أن يكرر أوليس خطأ أغا ممنون، أي ألاّ يعود في شخصيته الحقيقية ولا يسقط في الفخ الذي ينصبه له من ينتظرونه. يجب إذن أن يظهر متنكراً باسم مستعار. وليتم هذا ولا تُميَّز حقيقتَه يجب عليه هو أيضاً ألاّ يتعرف المنظر المألوف لوطنه. عندما تجلت أثينا لأوليس على الشاطئ الرملي الذي أبحر منه شرحت له الموقف: «هناك طالبو بينيلوب، يجب أن تقتلهم، يجب أن تجد دعم ابنك تيليماك الذي رجع من لدى أوميه Eumée راعي الخنازير وراعي البقر فيلايتيوس Philaetios، وهكذا ربما تنجح في هزيمتهم. سأساعدك، لكن عليّ أولاً أن أحوّلك كليةً»، ولأنه قبِلَ اقتراحها تجعله يرى إيتاك على حقيقتها كما هي في الواقع.

تتبدد السحابة ويتعرف أوليس وطنه. وكما أفاضت عليه أثينا السحر والجمال في لقائه مع نوسيكا تسبغ عليه الآن الشيخوخة والبشاعة. يسقط شعره ويغدو أصلع. يذوي جلده وتصبح عيناه غمصاوين يجتمع في مؤقيهما الوسخ الأبيض. إنه محني الظهر تغطيه أثواب رثة، تفوح منه رائحة النَتَن، وكل سلوكه سلوكُ متسوّل أحدب. مخطط أوليس هو أن يذهب إلى قصره وأن يلعب حقاً وفعلاً دور المعدمين، دور البؤساء الذين يتسولون طعامهم، أن يتقبل كل الإساءات التي ستوجه إليه، ويتوصل

هكذا إلى تقويم الوضع وأن يجد لنفسه متواطئين، ويستولي على قوسه، القوسِ الذي كان هو وحده القادرَ على أن يوتّره. سيتظاهر بأنه لا قوة له ليقتل في الفرصة الأولى بمساعدته خُطّاب بينيلوب.

يصل إلى أبواب القصر، يقابل العجوزَ أوميه راعيَ خنازيره. يسأله أوليس من هو، ومن هم أولئك الذين في القصر. يجيب أوميه: «سيدي أوليس انطلق منذ عشرين عاماً ولا يُعرف ما جرى له. ما أفظعها من تعاسة! كلّ شيء ينهار: الخطّاب داخل القصر والبيت يخرب. ينهبون الأغذية والقطعان، عليَّ أن أجلب في كل الأيام صغارَ الخنازير ليأكلوها. هذا مريع». يخطو الاثنان نحو القصر، وفي هذه اللحظة يلمح أوليس قرب الباب، على كومة من النفايات، حيث توضع صباحاً كل نفايات المنزل الكلبَ أرغوس Argos، عمُر الكلب عشرون عاماً، ويشبه أوليس، أي أنه نظيرُه الكلبي. فهو مقرف، مملوء بالقمل، ضعيف حتى لا يكادُ يقوى على الحركة. يسأل أوليس أوميه: «كيف كان هذا الكلب في شبابه؟». «كان كلباً رائعاً، كلبَ صيد، يقنص الأرانب دون أن يفوته أحدها، يجرها». «حسناً» يقول أوليس المستمر في التقدم. ومع ذلك يرفع الكلب العجوز أرغوس خطمه قليلاً ويتعرّف سيّده، إلاّ أنه لم تعد لديه حتى القدرة على أن يتحرك من مكانه. يهز ذنبه وينصب أذنيه فحسب.

يرى أوليس أن هذا الكلب الهرم، على عجزه عن الحركة، يتعرّفه كما تتعرف الكلاب: بالفطنة المباشرة. أما البشر فهم بحاجة ليتعرفوه بعد عددٍ من السنين، عددٍ من التغيرات، إلى علاماتٍ وقرائنَ تُستخدم أدلةً: سيفكرون في هذه العلامات ليعيدوا بناء شخصية أوليس. لا يحتاج الكلب إلى شيء من هذا مطلقاً، يعرف من الوهلة الأولى أن هذا هو أوليس، فيشمه. يضطرب أوليس جداً، وقد رأى كلبه، ويكاد يبكي، فيبتعد سريعاً، ويموت الكلب. لا يلحظ أوميه شيئاً ويتقدم هو وأوليس، وعلى عتبة القصر يصادف متسولاً آخر هو إيروس Iros أكثر شباباً مما يبدو لأوليس، وهو المتسول الرسمي للقصر، فهو هناك منذ شهور طويلة يتقبل الاستهزاء والضرب في أثناء احتفال الخطّاب. يتوجه إيروس فجأة إلى مكان أوليس المتنكر في هيئة متسول مثله: «ماذا تفعل هنا؟ أخلِ لي الساحة، هذا حِكْري، لا تبق هنا، لا شيء لك هنا!». يجيب أوليس «حقاً؟ سنرى!» يدخلان معاً. الخُطّاب إلى الطاولة منكبّين على الطعام، والخدم يغدون ويروحون بالطعام والشراب. يضحكون وهم يرون متسوّلين لا واحداً. يبدأ إيروس بافتعال شجار مع أوليس، والخطاب يتسلّون قائلين: سيهزم إيروسُ خصمَه العجوز بسهولة لأنه أكثر شباباً. يرفض أوليس في البداية أن يدخل في المعركة، ثم

يقبل على أن تنظم على شكل مباراة في الملاكمة. كلٌّ ينظر. يرفع أوليس قميصه قليلاً فيكتشف الخُطاب أن لهذا العجوز الضعيف فخذين ما تزالان قويتين، وأن نتيجة هذه المعركة ليست محسومة تماماً. يبدأ النـزال، وفي أقل من الوقت الذي يستغرقه وصفه يطرح أوليس خصمه أرضاً بلا حَولٍ وسْطَ صيحات الإعجاب الجذلى من كل الحضور الذين يهتفون: مرحى لك!. يرمي أوليس خصمه إيروس خارج القصر لكنه يتلقى فيما بعد سلسلة من الإهانات والإذلال. لا يكتفي أحد الخُطاب بالكلام بل يرميه من وراء طاولته، وبحركة قوية، بقدم ثور فيجرحه. يصيبه العظم في كتفه ويؤذيه. وهاهو تيليماك يوقف الحدث معلناً: «هذا الرجل ضيفي، ولا أريد أن يتعرض إلى إهانة أو معاملة سيئة».

ندبةُ أوليسَ البصمةُ:

يتعرّف أوليس عديداً من الأشخاص الذين يتوخى منهم مساندته: أولاً تيلماكَ العائد من رحلة قادها ليتلقط أخباراً عن أبيه، ولدى عودته نجا من شَرَكٍ مدّه له الخُطّابُ بعد ما نصبوه في أثناء رحيله. كان أولئك الخطاب يريدون اغتنام الفرصة لقتله، فيتزوجوا من بينيلوب دون عقبات.الزواج من بينيلوب احتلالُ فراشِ أوليس، المضجعِ الملكي، ومن ثمّ يصبح الزوج حاكم إيتاك. ينجو تيليماك من الفخ بعدما أخطرتهَ أثينا فيبحر إلى مكانٍ آخرَ غيرِ الذي يتربصون له فيه. ومن هناك يذهب مباشرةً للقاء أوميه. يجري اللقاء الأول بين تيليماك وأوليس، يذهب أوميه ليُخطر بينيلوب أن ابنها حيّ بينما أوليس وتيليماك وحدهما في الكوخ الصغير لراعي الخنازير. تطلع أثينا، يراها أوليس وتشمّ الكلاب حضورها أيضاً؛ فهي مرتعبة، تنتصب أوبارها، وتخفض أذنابها، وتختبئ تحت الطاولة. أما تيليماك فلا يرى شيئاً. تدعو أثينا أوليسَ إلى مرافقتها خارجاً.تلمسه بعصاها السحرية فيستعيد هيئته القديمة؛ لم يعد مرآه مرعباً فقد غدا شبيهاً بالآلهة التي تقطن السماء الواسعة. فلا يصدّق تيليماك، وهو يراه يدخل الكوخ، عينيه؛ إذ كيف يمكن لمتسول عجوز أن يصير إلهاً؟ يعرّف أوليس نفسه، إلاّ أن تيليماك يأبى تصديقه ما لم يقدم دليلاً. لا يقدم أوليس أيّ دليل سوى أن يوبّخه كما يفعل أبٌ بابنه «كُفّ عن هذا! هاهو أبوك أمامك ولا تتعرفه؟!» بالطبع لا يستطيع تيليماك أن يتعرّفه لأنه لم يره قط. «أقول لك إني أوليس» يضع أوليس نفسه مع تيليماك في موقع الأب بأن يفرض نفسه بهذه الطريقة. أما تيليماك فليس في أيّ موقع حتى هذه اللحظة لأنه ليس رجلاً بعدُ، دون أن يكون كذلك طفلاً؛ فهو متعلق بأمه ويريد في الوقت

نفسه أن يكون حرّاً.إنه في وضعٍ ملتبس. إلاّ أن كون أبيه هناك، هذا الأب الذي لا يعرف حتى إن كان لا يزال حياً والذي ربما ليس أباه رغم ما كان قد قيل له؛ إذن عندما يرى أباه مزروعاً أمامه بلحمه وعظمه مخاطباً إياه كما يخاطب أبٌ ابنه، عندما يحدث هذا فليس أوليس فقط هو الذي يجد نفسه متلبساً هُوية الأب، بل يجعل هذا الحدثُ تيليماكَ يجد نفسَه كذلك أخيراً، متيقناً من هويته في صفة الابن؛ يصبح الاثنان طرفي علاقة اجتماعية بشرية تبني هويتيهما.

وسيحاولان، فيما بعد، وبمساعدة أوميه وفيلايتيوس، تدبير عملية الانتقام. وفي هذه الأثناء كادت بينيلوب تُحبط خطة أوليس؛ فقد طلبت استقبال هذا المتسول العجوز الذي أشار تيليماك إلى حضوره والذي قالت لها المرضعة إن الخطّاب أظهروا فظاظة تجاهه. تستقبله وتستجوبه كما تفعل مع كل المسافرين العابرين لتعلم إن كان رأىأوليس. من البديهي أن يروي لها إحدى أكاذيبه التي أَلِفها: «لم أره فحسب، بل قدمت له كثيراً من الهدايا منذ زمن طويل، منذ عشرين عاماً تقريباً إبّان انطلاقه إلى طروادة بينما كان يمر بنا، لكن أخي إيدومينيه Idoménée هو الذي سافر ليحارب معه فقد كنت أنا جدّ صغير على الحرب؛ فقدّمْتُ له هدايا». تصغي الملكة إلى الحكاية متسائلة عما إذا كانت حقيقة أم زيفاً. «أعطني دليلاً على ما قلت! هل يمكن أن تصف لي أي ثوب كان يلبس؟». «طبعاً أستطيع». يصف أوليس بالتفصيل القماشَ الناعم الذي كانَ يرتديه، ويركز على حليةٍ ثمينة كانت بينيلوب قدّمتها له، حليةٍ محفورة تمثل غزالاً يجري. تقول بينيلوب في نفسها حينئذ «هذا صحيح. إنه يقول الحقيقة». ومن ثم تتولّد عندها دفقة حنان نحو هذا الطلل العجوز قائلة لنفسها إنّ مجرد رؤيته له تعني أنه ساعده. تطلب من المرضعة أوريكليه Euryclée أن تُعنى به، أن تحممه وتغسل له قدميه. تعلن المرضعة حين تفعل ما أُمِرت به أنه يشبه أوليس؛ رغم أنه يمكن التساؤل: كيف يمكن هذا التشابهُ بعْد التحول الذي أجرته عليه أثينا؟ تقول المرضعة: «له اليدان أنفسُهما وكذلك القدمان». تجيب بينيلوب «لا ليس تماماً، له اليدان والقدمان التي يفترض أن تكون لأوليس الآن بعد عشرين من درب الشيخوخة والعذاب، هذا إن كان ما يزال حياً».

إن هوية أوليس إشكال معضل؛ ليس لأنه متنكر في هيئة متسول، بل نظراً إلى أنه كان قد غادر وعمره خمسة وعشرون عاماً؛ فله الآن خمسة وأربعون. حتى لو كانت يداه هما هما فلن تتطابقا مع يدي الأمس. هو هو، وفي الآن نفسه مختلف كليةً. تزعم المربية رغم ذلك أنه يشبهه وتقول له «بين كل الذين أتوا إلى هنا والمسافرين

والمتسولين ومن استقبلوا ضيوفاً أنت رغم كل شيء أشدّ من يذكرني بأوليس» يقول أوليس «نعم، نعم، قيل لي هذا قبلُ» يفكر حينذاك بأن أوريكليه، وهي تغسل قدميه، سترى ندبة خاصة تهدد، وهي تكشف شخصيته في وقت أبكر مما ينبغي، بأن تحرجه وتحبط مخططه.

وسبب هذه الندبة هو أن أوليس وهو فتي جداً، في سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، كان عند جده لأمه ليخوض هناك مُسارّته، وهي طقوس الانتقال من حالة الطفولة إلى حالة البلوغ. وكان الاختبار الذي على الفتي أن يجتازه هو أن يجابه وحيداً مسلحاً برمح، وتحت إشراف أبناء عمه، خنـزيراً برياً ضخماً، وأن يهزمه. وهذا ما جرى؛ إلاّ أن الخنـزير المهاجم فتح جرحاً في فخذه على مستوى الركبة. كان قد رجع من هناك راضياً جداً، لكن مع هذه الندبة التي عرضها على كل الناس، وكان قد روى بالتفصيل كيف جرى الأمر، وكيف عولج وكيف قُدّمت له هدايا. ومن البديهي أن وضع أوريكليه كان يؤهلها لأن تكون أفضل شهود هذا الخبر نظراً إلى أنها المرضعة، فعندما قدم الجد أوتوليكوس Autolycos عند ولادة الطفل كانت تحمل الرضيع على ركبتيها، وكانت قد رجت أوتوليكوس أن يختار اسماً لحفيده، ومن هنا أخذ أوليس اسمه. ولما كان غسْلُ أقدام الضيوف إحدى وظائفها تَحتَّمَ على أوريكليه أن تكون خبيرة بكل أشكال الأقدام: فكر أوليس «إن رأت أوريكليه الندبة فإنها ستعرف.وستكون هذه علامة على أنني أوليس، ستكون توقيعي».

ينـزوي إذن في زاوية معتمة كي لايُرى منه شيء. وستبحث المرضعة عن الماء الدافئ في حوضٍ ما، وستمسك قدم أوليس في الظلمة. تنـزلق يدها، وتتحسس تجعيدة الندبة فتُفلت الحوضَ من يدها. يسيح الماء على الأرض وتطلق صرخة، يضع أوليس يده على فمها؛ فقد فهمت. تلقي نظرة نحو بينيلوب كي تنقل هذه النظرة إلى الزوجة الخبرَ، وهو أن هذا الرجل هو أوليس. تتصرف أثينا بطريقة تبعد بها نظرة بينيلوب عن هذه النظرة فلا تدري شيئاً. تهمس المرضعة «ولكن يا صغيري أوليس كيف لم أتعرفك حالاً؟» يُسكت أوليس مرضعته. لقد تعرفته لكن بينيلوب يجب أن تبقى جاهلة. وسيبدي أوليس كذلك لراعي الخنازير وراعي الأبقار ندبته ليبرهن لهم أنه هو حقاً أوليس.

توتير القوس الحاكم:

تقرر بينيلوب بتأثير أثينا أنه آن الأوان ليتوقف نهْبُ منـزِلها؛ ولهذا ستشرع في

إجراء المباراة. تنـزل لهذا الغرض من غرفتها التي ازداد بهاؤها برعاية أثينا لتعلن إلى الخُطّاب وإلى أوليس المأخوذين جميعاً بالإعجاب أنها ستتخلى عن عزلتها الدائمة. تقول لهم: «من يستطعْ منكم أن يوتّر قوس زوجي ويخرقْ بالسهم سلسلة الدريئات التي سنضعها للتو في الصالة الكبيرة فسيكون زوجي، وهكذا تكون المسألة قد سوّيت؛ وعليه يمكن منذ الآن التحضير للزواج، أي تزيينُ المنـزل والإعدادُ للاحتفال» الخطّاب مفتونون، وكلٌ مقتنع أنه قادر على توتير القوس. تسلّم بينيلوب إلى أوميه القوس وجعبة السهام المملوءة التي أخرجتها من مخبئها، وتنسحب عائدة إلى شقتها، وتتمدد على سريرها حيث تسكب عليها أثينا هذا الهدوءَ والإغفاء العذب الذي تطمح إليه.

يعمل أوليس على أن تكون أبواب الصالة الكبيرة مغلقة حتى لا يتمكن أحد من الخروج، ولا تكونَ أسلحة الخطاب في متناولهم. وفي هذه اللحظة يبدأ الاحتفال الكبير بالقوس. كلّهم يجهد لتوتيره دون أن يفلح، وأخيراً يخفق أنتينوس Antinoos أيضاً، وهو أشدّهم ثقة بالظفر. يعلن تيليماك حينئذ أنه سيحاول إنجاز هذه المأثرة، وهو ما قد يدل على أنه، وعلى نحو ما، هو أوليس، وأن أمّه ستبقى معه تحت سلطته ولن تتزوج ثانية. يحاول، ويكاد ينجح، لكنه يخفق هو الآخر. يأخذ أوليس القوس من يديه ويقول وهو ما يزال في هيئة المتسول الفقير: «وسأحاول أنا بدوري» بديهي أن يسبّه الخطاب: «أنت مجنون، فقدت صوابك، لا تتصور أنك ستتزوج الملكة» ترد بينيلوب أن مسألة الزواج ليست مطروحة في هذه الحال، وإنما ليثبت كفاءته الوحيدة في شد القوس فحسب، يعلن أوليس أنه لا يريد بداهة، أن يتزوجها، ولكنه كان في السابق يشدّه، وأنه يريد أن يرى إن كان ما يزال قادراً عليه «أنت تسخر بنا» يحتجُّ الخطاب، لكن بينيلوب تلحّ: «اتركوه يفعلْ. فإن نجح هذا الرجل الذي رأى زوجي سابقاً في شبابه فسأقدم له كثيراً من الهدايا، وسأبقيه في القصر، وسأعطيه وسائل سفره إلى أي مكان آخر، سأخلصه من ظرفه البائس، من التسول، سأسْكنه». لم تفكر لحظة في أنه يمكن أن يكون زوجاً لها. ودون أن تنتظر، تعود إلى طابق النساء.

يمسك أوليس بالقوس، يوتره دون كثير من الجهد. يرمي سهماً ويقتل أحد الخُطاب وهو أنتينوس وسط الذهول العظيم لكل الآخرين، يتصايحون ناقمين: إن هذا الهائج أخرق، وإنه خطر على العموم، وإنه لا يعرف شد القوس، وإنه بدلاً من أن يوجه السهم إلى الدريئة وجّهه إلى أحد الحضور. لكن أوليس يقتلهم جميعهم بمساعدة تيليماك وراعي البقر وراعي الخنازير. يحاول الخطاب الهروبَ منهم ولكن

المئة كلهم صُرعوا.القاعة مملوءة بالدم. وبينيلوب التي كانت قد صعدت إلى شقتها لم تر شيئاً ولم تسمع لأن أثينا نوّمتها من جديد. تُرحَّل جثث الخطاب وتُغسل الصالة وتُـطهّر، ويعاد كل شيء إلى مكانه. يستفهم أوليس ليعلم مَن مِن خادماته نامت مع الخطاب، ويأمر بمعاقبتهن. يعلَّقن كالعجلات في حلقة بالسقف ويُعدمن جميعُهن. يَجُنّ الليل، وفي الصباح يقام ما يشبه تحضيرات للعرس حتى لا يشك أقارب الخُطاب في المذبحة التي صُرع فيها أبناؤهم. يقومون بما يبدو معه كأن البيت كان مغلقاً بسبب العرس؛ فهناك الموسيقى، والبيت يرنّ بضجيج الحفلة.تصعد أوريكليه الدرجات أربعاً أربعاً لتوقظ بينيلوب «انزلي فقد مات الخُطاب، وأوليس في الأسفل». لا تستطيع بينيلوب تصديقها «لو غيرك روى لي هذه الترهات لرميته خارجاً؛ لا تتلاعبي بأمانيّ وآلامي». تلحّ المرضعة «لقد رأيت ندبته، تعرفته، وكذلك تيليماك عرفه. لقد قتل كل الخطاب، لا أعرف كيف، لم أكن هناك، لم أر شيئاً، سمعت وحسْبُ» تنزل بينيلوب بأحاسيس مضطربة جداً؛ فمن جهة تتمنى لو أن هذا هو أوليس حقاً، وفي الوقت نفسه تشك أن يستطيع، مع تيليماك وحده، قتْل مئة الشباب المحاربين الذين كانوا هنالك. هذا الرجل الذي قد يكون أوليس. روى لها إذن أكاذيبَ عندما ادّعى أنه قابل زوجها قبل عشرين عاماً. قال لها «أكاذيبَ تشبه تماماً الواقع» ثم ما الذي ينفي أنه ما يزال يكذب؟ تصل إلى القاعة الكبرى وتتساءل: هل ستركض نحوه؟ لكنها تبقى جامدة. أوليس في مواجهها بمظهر المتسول العجوز؛ عيناه مغضيتان، ولا يقول كلمة. لا تستطيع بينيلوب الكلام. تقول لنفسها: ليس لهذا العجوز أيُّ جامع يجمعه مع «أوليسها». إنها في وضع يختلف عن الآخرين؛ فالآخرون يجدون أنفسهم مع رجوع أوليس هم هم، في وضع اجتماعي محدد، فتيليماك كان بحاجة إلى أب، وعندما يظهر أوليس يعود فيصبح ابناً له. أوليس يجب أن يجد ثانية ابناً. وكالخدم الذين كانوا قد حرموا من سيدهم كان كلّ منهم، ليكون هو هو، بحاجة إلى ترميم علاقته الاجتماعية التي يتأسس عليها وضعه. أما بينيلوب فليست بحاجة إلى زوج، ليس ما تبحث عنه هو الزوج؛ فعندها مئة رجل تطفّلوا عليها يحومون حولها منذ سنين، يطلبون هذا اللقب. إنها لا تريد زوجاً، بل تريد أوليس، تريد ذاك الرجل تحديداً، «أوليس شبابها». لا تزوّدها أيٌّ من العلامات التي تقنع الآخرين، من هذه العلامات العامة التي هي الندبة، وشدّه القوسَ، بدليل على أن هذا هو حقاً «أوليسها» إذ يمكن لرجال آخرين تقديم العلامات نفسها. إنها تريد أوليسَ، أي الفردَ المتفرّد الذي كان زوجها آنفاً، والذي

اختفى طوال عشرين عاماً. حفرة العشرين عاماً هي التي يجب ردمها. تريد إذن علامة سريّة يعرفها فقط هو وهي، وهناك واحدة من هذه العلامات السرية. على بينيلوب أن تكون ماكرة أكثر من أوليس إذ تعرف أنه قادر على الكذب، إذن فستوقعه في الفخ.

سرّ يتقاسمانه:

في وقت متأخر من النهار كان أوليس قد تحول بفضل أثينا، ليتخذ ملامحه الخاصة به: أوليس مع عشرين عاماً إضافية. يجد نفسه إذن في مواجهة بينيلوب وهو في كامل جمال البطل، وبينيلوب لا تبلغ بعدُ حد التصميم على تعرّفه. تيليماك غاضب منها، وكذلك أوريكليه، يلومانها على قلبها المقدود من الصخر. إلا أن لها بالضبط هذا القلب الذي سمح لها أن تقاوم كلَّ ما حاول الخطاب إخضاعَها له: «إن كان هذا الرجل حقاً هو أوليس الفرد الوحيد فسيجد أحدنا الآخر لأن بيننا علامة سرية وأكيدة، علامة لا تقبل التفنيد، نعرفها أنا وهو فحسب» يتبسم أوليس ويقول لنفسه إن كل شيء يجري على ما يرام. وبما أنها ماكرة تطلب من خادماتها، وقد حان وقت النوم، أن يحملن السرير من غرفتها إلى غرفة أوليس لأنهما لن يناما معاً. وما إن تعطي هذه التعليمات حتى يحمرّ أوليس غضباً، يتميّز غيظاً حقيقياً: «ماذا تقولين؟ حمْل السرير إلى هنا؟! لكن المفروض أن هذا السرير لا يمكن نقله من مكانه!». «لماذا؟» «لأنه ـ متعجباً ـ أنا الذي أسسته، لم أنصبه متحركاً على أربع قوائم؛ فإن إحداها شجرة زيتون مغروزةٌ في الأرض. وفوق هذه الزيتونة المفصّلة والمقطّعة، وابتداءً منها وهي سليمة في الأرض، بنيتُ هذا السرير، لا يمكن للسرير أن يتحرك». ومع هذه الكلمات تسقط بينيلوب في ذراعيه: «أنت أوليس».

تكتسي قائمة السرير هذه معاني متعددة: إنها ثابتة مستقرة، واستقرار هذه القائمة من السرير الزوجي هو التعبير عن استقرار السر الذي يتقاسمانه الاثنان، وهو الفضيلة لها والهوية له. وفي الوقت نفسه فإن هذا السرير الذي يلتقي فيه بينيلوب وأوليس هو ما يؤكد كذلك ويرسخ واجبات البطل بوصفه ملك إيتاك؛ فالسرير الذي ينام عليه الملك والملكة متجذّر في أعمق أعماق الأرض، ويمثل الحقوق المشروعة لهذا الثنائي في الحكم على الأرض، في أن يكونا ملك وملكة العدالة، وعلى علاقة مع خصوبة الأرض والقطعان. لكن هذه العلامة السرية التي يتقاسمانها وحدهما ويحفظانها في الذاكرة رغم السنين تذكّر خاصة بما يربطهما ويجعل منهما زوجاً، وهو وحدة الفكر.

وعندما استرسلت نوسيكا فأثارت أمامه موضوع الزواج صرح لها أوليس بأن وحدة الفكر هي الأمر الأهم لرجل وامرأة عندما يتزوجان، وتعني أن هناك اتفاقاً في الفكر والشعور بين الزوج والزوجة. وهذا ما يمثله السريرالزوجي.

يمكن أن يتراءى لنا أن كل شيء قد انتهى؛ لكن الحال ليست هكذا تماماً.فهناك أيضاً لايـيرت Laërte والدُ أوليس والذي لا يعلم بعودة ابنه. أوليس له ولد، وله زوجة يقرأ في نِظرتها إخلاصاً كاملاً، له خَدَمُه. وقبل أن تنتهي القصة يذهب أوليس في زيارة لأبيه. تخلى عن مظهر المتسوّل ويريد أن يرى إن كان أبوه سيتعرفه بعد عشرين عاماً. أأوليس هو هو نفسه بعد عشرين عاماً؟ يصل إلى الحديقة التي اعتكف فيها أبوه وحيداً بائساً عاملاً في الأرض مع عبدين وعبدة. أبوه لايـيرت في الحالة نفسها التي كان فيها أرغوس على كومة من الزبل، والتي كان هو نفسه عليها عندما شَخَص إلى القصر متسولاً. يصل أوليس ويسأله لايـيرت ماذا يريد. يبدأ أوليس يروي أكاذيب: «أنا غريب» ويتظاهر وهو يتكلم بأنه يعامل أباه كعبد: «أنت حقاً وسخ كمشط، تلبس بطريقة قذرة، جلدك مقرف، وقبعتك من جلد الحيوان كما يمكن لخادم من أدنى الدرجات أن يلبس». لا يهتم لايـيرت تماماً بما يقول إلاّ بسؤال واحد في ذهنه: أيمكن أن تكون لهذا المسافر الغريب أخبار عن ابنه؟. سيروي له أوليس إذن، على عادته، قصصاً كاذبة.

يشرع لايـيرت بالبكاء: «لقد مات» ويأخذ من الأرض حفنة تراب فيهيلها على رأسه. يقرر أوليس، وقد رأى أباه في هذه الحال من الشدة، أنه كذب بما يكفي: «توقف يا لايـيرت، أنا أوليس». «لماذا أنت أوليس؟ أعطني علامات». يُظهر له أوليس ندبته لكن هذه العلامة لا تكفي أباه. يروي حينئذ كيف أن لايـيرت، وهو في عنفوان رجولته، دلّ أوليس الذي كان جدَّ صغيرٍ آنذاك وسمّى له وأعطاه كل الأشجار التي تنتصب أمام عينيه. كان هناك ثلاثُ عشرة شجرة إجّاص وعشر شجرات تفاح وأربعون شجرة تين وخمسون صفاً من العنب. يسرد في قائمته كل المعرفة التي نقلها إليه لايـيرت من أجل زراعة الأرض، من أجل أن تندفع منها النباتات والأشجار. العجوز يبكي، لكن هذه المرة فرحاً، ويسقط بين ذراعي أوليس: لايـيرت الذي كان شبيهاً بامرأة قذرة داعرة يشعر بنفسه وقد غدا ثانية الملك لايـيرت. وكما يضع أوليس نفسه في موقع الأب مع تيليماك يجد نفسه ذلك الطفل الصغير جداً بالنسبة للايـيرت. والنتيجة لا تدع مجالاً للانتظار: يعود لايـيرت إلى المنـزل وعندما يخرج منه يبدو جميلاً كإله فقد أعدت أثينا الأمور

جيداً. وعندما يدخل في جديد في العلاقة الاجتماعية التي توحّده بابنه يعود كما كان: جميلاً جمالاً ملكياً كإله.

العثور على الحاضر المفقود:

في القصر، وفي المدينة، قَدَمُ السرير المثبتة في قلب القصر، في أرض إيتاك، في الحديقة، في الريف، كل النباتات التي يُحافظ عليها باستمرار: كل هذا هو الذي يقيم الرباط بين الماضي والحاضر. الأشجار المزروعة سابقاً كبرت، وكشهود صادقين يسِمون التواصل بين الزمن الذي كان فيه أوليس غلاماً صغيراً والزمن الذي هو فيه الآن على عتبة الشيخوخة. ونحن نسمع هذه الحكاية ألا نفعل الأمر نفسه؟ ألا نعيد ربطَ الماضي، انطلاقَ أوليس، بحاضر عودته؟ ننسج معه فراقه لبينيلوب ولقيانه لها ثانية. وبطريقة ما فالزمن الذي في الذاكرة منسوخ في الحين الذي نتعقبه ثانية في خيط السرد؛ منسوخ وممثّل لأن أوليس نفسه لم يكفّ عن أن يحتفظ في الذاكرة بالعودة لأن بينيلوب لم تكفّ عن أن تحتفظ في الذاكرة بذكرى أوليس شبابها.

ينام أوليس مع بينيلوب، ويجري الأمر كما في الليلة الأولى لعرسهما. يجدان أنفسهما ثانية زوجين شابين. تتصرف أثينا بطريقة توقف معها الشمسُ دورتها في عربتها حتى لا يشرق الصباح مبكراً جداً، وحتى يتأخر الفجر عن البزوغ. كانت هذه الليلة أطول ليلة في العالم. يتحادثان، يروي كلٌّ للآخر مغامراته وتعاساته. كل شيء الآن كما كان في الماضي؛ يبدو الزمن كأنه امّحى. في الصباح، وقد علم أقرباء الخطاب بقتلهم، يصرخون بالانتقام. مجموعة من الآباء والأخوة وأولاد الأعمام والحلفاء تأتي شاهرة السلاح لقتل أوليس وتيليماك ولاييرت وخدمهم المخلصين. تمنع أثينا المواجهة. لم تعد هناك من معارك؛ فقد تأسست الهدنة والسلام والوفاق. وفي إيتاك كلُّ شيء منذ الآن كما كان سابقاً؛ فهناك ملك وملكة، وهناك ابن وأب، وهناك خدم، والنظام مستقر. وأنشودة الشاعر يمكن تغني لكل الناس من كل الأزمنة ذاكرة العودة في كامل مجدها.

ديونيزوس في طيبة

ديونيزوس Dionysos، في المجمع الإغريقي للآلهة Panthéon، إلهٌ مستقل، إلهٌ هائم متشرد، إله في لا مكان. يُلِحّ على أن يتعرفّوه حيث يمر، وأن يكون له مكانه ورفعته. ويريد أن يؤمّن عبادته في طيبة ولاسيما أنه ولد فيها. يدخل المدينة على أنه شخص يأتي من بعيد كغريب أجنبي، يعود إلى طيبة، كما إلى مسقط رأسه، ليُستقبلَ هناك ويكون مقبولاً من أهلها، وليكون له فيها بطريقةٍ ما منصبُه الرسمي. يمثّل بين الآلهة الإغريق، وهو المتشرد والمقيم في آن معاً، حسب تعبير لويس جيرنيه Louis Gernet، صورة المختلف المتحول المشوّش الفوضوي. وهو أيضاً، كما يكتب مارسيل ديتيين Marcel Detienne إلهٌ وبائي. وكالمرض المعدي، ما إن يقتحم مكاناً لم يكن فيه معروفاً حتى يفرض نفسه وتنتشر عبادته كموج البحر.

الغيريةُ altérité، الآخرُ غير الذات يعرّف فجأة بحضوره في الأماكن الأكثر ألفة، إنه مرض وبائي، ويؤسس ديونيزوس مع عابده نوعاً من علاقة المواجهة (Face à face) نظراً إلى أنه إله هائم وثابت قريب من الناس، يقيم معهم اتصالات من طراز مختلف عن الطراز السائد عموماً في الديانة الإغريقية، علاقةً أكثر حميميةً، أكثر شخصانية وقرباً. يغرز نظرته في نظرة عابده، وعابدُه نفسُه يثبّت عينيه المنوّمتين مغناطيسياً على الصورة التي هي قناع ديونيزوس. وفي الوقت نفسه الذي له هذا القرب من البشر فربما هو الأبعد عنهم، والأصعب بلوغاً، والأشد غموضاً، الإله الذي لا يمكن الإمساك به، لا يمكن حصره في إطار معين. يمكن أن نقول عن أفروديت إنها إلهة الحب، وعن أثينا إنها إلهة الحرب والمعرفة، وعن هيفايستوس إنه الإله الصانع الحداد؛ أما ديونيزوس فلا يمكن حصره في خانة معينة؛ فهو في واحدة منها وفي كلها في آن واحد. وتتخذ القصص المرتبطة به معنىً خصوصياً إلى حدٍّ ما عندما نفكّر في هذا التذبذب بين التشرد والهيمان وفي كونه عابرَ طريقٍ مسافراً، وبين الرغبة في أن يكون له مسكن يكون له فيه مكانه مستقراً، وحيث يكون أكثر من مقبول: يكون مختاراً.

أوربا الهائمة:

يبدأ التاريخ كله مع شخصية ذكرناها سابقاً هي شخصية قدموسَ الحاكمِ الأول لطيبة.وقدموسُ نفسُه البطلُ المؤسس لهذه المدينة الكلاسيكية العظيمة أجنبيٌّ عنها، من آسيا، فينيقيٌّ جاء من بعيد. وهو ابن أجينور Agénor ملك صور Tyr أو صيدا Sidon، وتيليفاسا Téléphassa. وهما شخصيتان من الشرق الأدنى أي من سورية اليوم. وكان لهذا الزوج الملكي من حُكّام صورَ سلسلةٌ من الأولاد: قدموس وإخوته فوينيكس Phoenix وسيليكس Silix وتازوس Thasos، وابنة وحيدة هي أوربا Europe التي استعارت قارتنا اسمها منها.

أوربا شابة أخّاذة عذراء تلعب على الشاطئ البحري لصور مع صاحباتها. يراها زيوس من فوق وهي تستحم، ربما عاريةً وليست مشغولةً بجمع باقات الزهور كما في حكايات أخرى حيث مثيلاتها الإناث اللواتي يحرّكن الشهوة الإلهية بجمالهن يقطفن الياقوتيات أو الزنبق أو النرجس. تقف أوربا على الشاطئ البحري في مساحة مفتوحة فيراها زيوس ويشتهيها حالاً. يتّخذ زيوس شكل ثور بهيٍّ أبيض بقرنين يشبهان رُبْعَ القمر. يصل إلى الشاطئ ويأتي فيتمدد على قدمي أوربا على حافة الشاطئ الرملي. تقترب أوربا شيئاً فشيئاً متأثرة بهذا الحيوان المدهش بعدما كانت قلقة قليلاً في البداية. يوفّر لها كل أسباب الأمان بسلوكه. تداعب رأسه قليلاً وتجسّ خاصرتيه. ولما كان لا يتحرك، بل على العكس يدير رأسه إليها قليلاً كما لو كان يلحس جلده الأبيض، فقد جلست على ظهره الواسع وأمسكت قرنيه: وهاهو الثور يتحرك ويقفز في الماء ويعبر البحر.

يعبر زيوس وأوربا المسافرة آسيا إلى جزيرة كريت Crète، وهناك يجامعها. وما إن ينتهي من مجامعتها حتى يُقرّها بطريقة ما في كريت. وعندها الآن ولدان: رادامانت Rhadamante ومينوس Minos سيكونان حاكمي كريت. ويقدم زيوس لأصحاب الجزيرة هديّة غريبة هي تالوس Thalos، الذي هو شخصية مثيرة للفضول، نوع من الجبابرة مصنوع من الحديد، وظيفتُه السهرُ على حراسة كريت وأن يجعل منها نوعاً من القلعة، جزيرةً معزولة عن بقية العالم، ويمنع معاً أن يرسو فيها أيُّ قادم من بلاد غريبة ويهرب منها أحد قاطنيها إلى الخارج. يدور تالوس حول الجزيرة ثلاث مرات يومياً حارساً مانعاً أياً كان من الاقتراب، كما من الهروب. إنه خالد لا يُقهَر، مصنوعٌ من الحديد، ليس له إلا نقطةُ ضعفٍ وحيدةٌ في عَقِبِه حيث يوجد شِبْهُ وريدٍ مجهّز بمفتاح يوصد إغلاقه ويسيل منه، إن فُتح، كلُّ قوته المعدنية. وستكون نهايته إما على

يد ميديه Médée الساحرة، وإما على يد بطل آخر هو هيراكليس الذي يتمكن برمية سهم من جَرْحِ تالوس في هذه النقطة الحية وقتلِه.

مايزال الأمر كما مع أوربا سابقاً، في إطار اختطافٍ، وعبورٍ من عالم إلى آخر وتأثيرِ سياج هذه «الكريت» التي تنغلق على نفسها. بل يمكن أن نقول «تشرد» أكثر مما هو عبور؛ فعندما يعلم أجينور من رفيقات الشابة أن أوربا قد اختطفها ثور، يعبّئ زوجته وأولاده ويكلِّفهم بأن يجدوا ابنتهم وأختهم. هاهم إذن الإخوة الثلاثة والأم ينطلقون ويذهبون ويتشردون بدورهم، ويتركون مسقط رأسهم ومكان أسرتهم ومملكتهم، ويتفرقون في العالم بأسره. وسيؤسسون في خلال هذه الترحالات التي لا تنقطع سلسلةً من المدن. ينطلق قدموس مع أمه ليصل أخيراً إلى تراس Thrace، لا ننسَ، بحثاً عن أخته أوربا، لأن أجبتور أنذر أولاده وزوجته ألاّ يعودوا إلى منزلهم إلاّ بصحبة الشابة المفقودة. وستموت تيليفاسا أم قدموس مبجّلةً في تراس.

يعود قدموس في هذا الوقت إلى دلفي Delphes ليعرف ماذا عليه أن يفعل.يقول له الوحي «كُفَّ عن الترحال، يجب أن تتوقف وتستقر لأنك لن تجد أختك». اختفت أوربا وهي مسافرة، لا أحد يعرف ماذا أصبحت. وهي في الحقيقة محبوسة في كريت؛ ولكن من يعرف هذا إلاّ الوحي في مدينة دلفي؟. ومع ذلك يحدد ذاك الوحي: «ستتبع بقرةً، مسافرةً هي الأخرى، في كل مكان حيث تذهب. إن أوربا قد اختطفها ثور مسافر استقر، أما أنت فاتبع هذه البقرة، وما مشت فاتبع خطاها، ولكنها يوم تضجع لن تنهض ثانية؛ وحينذاك تؤسس هناك مدينة، وستجد جذرك أنت يا قدموس، يا رجل صور». وهكذا فعل قدموس يواكبه عدد من الشبان. يرون بقرة جميلة جمالاً لافتاً مع علامات قمرية تنذُرها لدور خاص. يتبعون البقرة، وفي لحظة معينة، وفي مرج، تكفّ عن الحركة بعد أن هامت في المكان الذي سيكون مستقبلاً طيبة وهو بيوتي Béotie. كفّت البقرة الهائمة عن الحركة. انتهى التيه إذن، ويفهم قدموس أن هذا هو المكان الذي يجب أن تؤسس فيه مدينة.

غريب ومواطنون أصليون:

يريد قدموس قبل أن يؤسس المدينة تقديمَ قربان إلى أثينا الإلهةِ التي يشعر أنه قريب منها. ولأجل تقديم أضحية يجب وجود الماء. يرسل رفاقه إلى نبع يسمى أريس Arès نسبةً إلى صاحبِه الإلهِ في مهمة ليملؤوا آنيتهم. لكن هذا النبع يحرسه تنين هو حيّةٌ مفترسة تقتل كل الشبان الذين يقدمون إليه ليملؤوا من النبع. يذهب قدموس بنفسه

إلى النبع ويقتل التنين.تأمره أثينا حينئذ بتقديم القربان الموعود ثم باقتلاع أسنان التنين القتيل الممدد أرضاً وبذْرِها في سهل مسطح كما لو كان الأمرُ أمْرَ حبوبٍ تُزرع لتُحصد. ينفِّذ قدموس ما أُمِر به، يحمل الماء ويقدّم قرباناً لأثينا. يمشي بكل تقوى في السهل ويبذر أسنان التنين.وما إن يبذرها حتى ينبثق للتو من كل سنّ محاربٌ بالغ مدجّج في مظهر الجندي الشاكي بالسلاح مع الخوذة والترس والسيف والرمح وواقية الساق والدرع. ومنذ أن ينجموا من الأرض يتفرّس أحدُهم الآخرَ، يتبادلون نظرات الاحتقار، يتحدّى بعضهم بعضاً كما يمكن أن تفعل كائنات منذورة كلياً للمجزرة، للحرب، للعنف الشرس. محاربون من الرأس إلى القدمين. يعي قدموس أنّهم يهمّون أن يستديروا إليه، فيمسك حجراً ويلقيه بينهم في اللحظة التي يتبادلون فيها نظرات التحدي؛ فيظنّ كلّ منهم أن الآخر هو الذي رماه، فتنعقد المعركة بين هؤلاء المحاربين، فيتقاتلون ويموتون إلاّ خمسةً. يسمى هؤلاء المحاربون بالإسبارطيين Spartes، أي المبذورين. لقد ولدوا من الأرض مواطنين أصليين، فهم متجذرون في الأرض، ليسوا هائمين، يمثّلون الرباط التأسيسي مع أرضِ طيبةَ. وهم جميعاً منذورون للمهمات الحربية، ويحملون أسماء تفصح عن ماهيّتهم: شتونيوس Chtonios ووادايوس Ouadaios وبيليروس Peleros وهيبيرونور Hyperonor وإيشيون Échion، وهم أمساخ أرضية ليلية مظلمة ومحاربة.

ومع ذلك فقد سبَّب قدموس غضب آريس وحقده لأنه قتل التنين الذي يقال إنه أحد أولاده. وسيظلّ قدموس سبعة أعوام في خدمة آريس كما كان هيراكليس نفسه، في ظروف أخرى، في خدمة شخصيات أو أبطال أو آلهة أهانهم. وقد تحرر قدموس في نهاية الأعوام السبعة. وتفكر الآلهة التي كانت محابية له، وخصوصاً أثينا، في تثبيته حاكماً لطيبة. ولكن على هذا الغريب أن يصنع لنفسه أرومة، وهو الذي أظهرما كانت تخفيه أرض طيبة في أعماقها من متجذّر وأصيل. ومرة أخرى سيجد الآلهة والبشر أنفسهم متقاربين بمناسبة زواج قدموس من إلهة هي هارموني Harmonie ابنةُ أفروديت وآريس. وإلى الإله الذي عمل على التكفير والذي يحرس نبعَ طيبة، الماءَ الذي كان ينبثق من الأرض، ليمنع بلوغه. تعود الروح الحربية نفسها وتحيا من جديد عبر الإسبارطيين وسلالتهم «مواليد الأرض gégenés». غير أن هارموني، بفضل أمها أفروديت، هي إلهة الوحدة والوفاق والمصالحة؛ ولذا تأتي كل الآلهة إلى قلعة طيبة لتحتفل بهذا العرس لأن العروس إحداها. وربات الإلهام هنّ اللواتي يتولّين إنشاد أغنية العرس، والآلهة يقدمون حسب العادة هداياهم، وسيكون بعضها هدايا سيئةَ الطالعِ

تجلب الدمار على من سيرثونها. وسيكون لقدموس أبناء كثيرون، مهنم سيميليه Sémélé وأوتونوئيه Autonoé وإينو Ino التي ستتزوج أتاماس Athamas، والتي ستصبح لوكوتيا Leucothea الإلهةَ البحرية. ولقدموس أيضاً ابنة أخرى تسمى أغافيه Agavé ستتزوج أحد الإسبارطيين وهو إيشيون وستنجب منه طفلاً هو بانتيه Panthée. وبعبارة أخرى تمثّل بدايات طيبة توازناً واتحاداً بين شخصية تأتي من بعيد وهو قدموس الذي يتصف بمأثرته وبإرادة إلهية في أن يكون حاكماً، وبين شخصيات مغروسةٍ في الحقل، منبثقةٍ من الأرض، أصليةٍ، لهم أرضُ طيبةَ الملتصقةُ بنعال أحذيتهم، وهم محاربون صِرف.إنّ السلسلة الأولى لملوك طيبة ستعطي الانطباع بأنه يُفترض أن يكون هناك وفاقٌ بين هاتين الصُهارتين، بين هذين الشكلين من النسل، ولكن يمكن أيضاً أن تكون هناك توترات وعدم تفاهم ونزاعات.

الفخذ الأمومية:

هناك إذن فتاة هي سيميليه، وهي مخلوقة فاتنة، كما كانت أوربا، يحتفظ زيوس بعلاقات معها، ليست عابرة، بل دائمة إلى حد ما. هذه «السيميليه» التي ترى زيوس يتمدد إلى جانبها كل يوم بشراً سوياً، لكنها تعرف أنه زيوس، تتمنى لو يظهر لها الإله بشخصه في كل بريقه، وفي عظمة حاكم الخالدين السعداء. ولا تني تتوسل إليه أن يفعل هذا. ومن المفهوم أن مطالبةَ البشر للآلهة بأن يتمثلوا لعيونهم السافرة كما كانوا يفعلون مع شركائهم الفانين مطالبةٌ لا تخلو من الخطر. وعندما يخضع زيوس لرجاء سيميليه ويظهر في بهائه الصاعق تفنى سيميليه بالإشراق وبالالتماع، بالبريق الإلهي لمن هو عشيقها. إنها تحترق. ولمّا كانت سيميليه حاملاً بطفل زيوس وهو ديونيزوس، فإنه لا يتردد ثانيةً واحدة في أن ينتزع الصغير ديونيزوس من جسم سيميليه الذي يحترق. يفتح شقاً في فخذه ويحوّلها إلى رحم أنثوي ويُقِرّ فيها الصغيرَ ديونيزوس الذي هو الآن جنين في الشهر السادس. وهكذا سيكون ديونيزوس ابناً لزيوس من الجانبين، وسيكون الطفلَ الذي ولد مرتين. وعندما تحين لحظة الولادة يفتح زيوس فخذه من جديد، ويخرج منها الصغير كما خرج من بطن سيميليه. وهو طفل شاذ خارج عن المعايير من وجهة النظر الإلهية لأنه ابن لامرأة فانية ولزيوس في كل بريقه معاً. إنه شاذ لأنه تغذى في بطن امرأة ردحاً، وردحاً في فخذ المشتري Jupiter، فخذِ زيوس. وعلى ديونيزوس أن يناضل ضد الغيرة اللاهبة لهيرا التي لا تغفر لزيوس نزواته بسهولة؛ والتي تُكنّها دائماً لثمار

غرامياته الخفية، وأحد هموم زيوس الكبيرة إخفاءُ ديونيزوس عن أنظار هيرا وإيداعُه لدى مرضعات يخفينه.

وما إن يكبر قليلاً حتى يتشردَ هو أيضاً ويجدَ نفسه غالباً هدفاً لاضطهادِ كثيرٍ من الشخصيات المستقرة في بيوتها، وخصوصاً ما يحدث عندما كان بعدُ شاباً جداً، من الإبحار إلى تراس مع كوكبة من كاهنات باخوس إله الخمر Bacchantes. ينظر ملك البلاد ليكورغ Lycurge نِظرةَ استياءٍ إلى وصول هذا الشاب الغريب الذي لا يعرف جيداً من أين يأتي والذي يزعم أنه إله، وإلى هؤلاء الشابات اللواتي يهذين كتابعات متعصّبات لألوهة جديدة. يوقف ليكورغ الكاهنات ويزجهنّ في السجن. تكفي سلفاً سلطة ديونيزوس لتحريرهن. يلاحق ليكورغُ الإلهَ ويجبره على الهرب. إنها ألوهة غامضة ملتبسة في مظهرها المؤنث. يموت ديونيزوس رعباً طوال الملاحقة وأخيراً يرمي نفسه في الماء هارباً من ليكورغ. والإلهة تيثيس التي ستكون أمَّ أخيل مستقبلاً، والتي تقيم في الأعماق البحرية، هي من تخفيه بعض الوقت. وعندما يخرج من هناك بعد هذا النوعِ من المُسارّة الخفية يختفي من بلاد الإغريق ويعبر إلى آسيا، وهو الفتح العظيم لآسيا. يعبر أراضي كل هذه الأقاليم مع جيوش من المؤمنين، ولاسيما من النساء، لا تحارب بالأسلحة التقليدية للمحارب، بل بضربات من مزارق باخوس، أي بجذوع أشجار ضخمة مسننة ثبّتت عليها أكواز الصنوبر، ولها قدرة خارقة. يهزم ديونيزوس وأتباعه كل الجيوش التي تتحرك ضده لتوقف زحفه عبثاً: يجتاز آسيا منتصراً ثم يعود الإله إلى بلاد الإغريق.

كاهن مترحّل ونساء متوحشات:

هنا نصل إلى عودته إلى طيبة. هاهو الهائمُ الطفل الصغير الذي يلاحقه كُرهُ زوجةِ الأب، والإلـهُ المجبر على أن يقذف بنفسه في الماء ويختبئَ في الأعماق البحرية تجنباً لغضب ملك تراس يعودُ بالغاً إلى طيبة. يصل في الوقت الذي يكون فيه بانتيه، ابن خالته أغافيه أختِ سيميليه، ملكاً على طيبة. ماتت سيميليه وتزوجت أغافيه من أحد الرجال الخمسة المبذورين وهو إيشيون الذي مات بعد أن حملت منه طفلاً. يأخذ هذا الوليد لقب الملك من جدّه لأمه قدموس الذي ما يزال حياً ولكنه عجوز جداً على الحكم. وقد ورث بانتيه من إيشيون علاقته بالأرض الطيبية وتجذّرَه المحلي ومزاجه العنيف وعناده وعجرفة الجندي.

يصل ديونيزوس متنكراً إلى هذه المدينة، مدينةِ طيبة، التي هي أنموذج للمدينة

الإغريقية القديمة. لا يقدم نفسه على أنه الإله ديونيزوس، بل على أنه كاهن الإله، كاهن جوّال في ملابس امرأة. يلبس شعراً طويلاً على ظهره، وله كل صفات الدخيل الشرقي بعينين مظلمتين وهيئة مغرية وكلام معسول، أي كل الصفات التي يمكن أن تزعزع وتهيج بانتيه بذرةَ أرض طيبة. كلاهما في العمر نفسه تقريباً. بانتيه ملك في ريعان الشباب، وكذلك هذا الكاهن المزعوم إله شاب جداً. يستقطب ديونيزوس عصبة كاملة من الشابات وممن هن أكبر سناً اللاتي هن الليديات Lydiennes، أي نساءُ الشرق، من حيث الأنموذج الجسمي وطريقة الحياة. يثرنَ ضجة في شوارع طيبة، يجلسن ويأكلن وينمن في الهواء الطلق. يرى بانتيه هذا فيستولي عليه الحنق: ماذا تفعل هنا هذه العصبة من الهائمات؟ يريد أن يطردهن؟ كل هؤلاء السيدات المهيبات اللواتي جعلهن ديونيزوس مجنونات لأنه لم يغفر لأخوات أمه، بناتِ قدموس، وخصوصاً لأغافيه، زعْمهن أن سيميليه لم تكن قط على علاقة بزيوس، وأنها امرأة هيستيرية لها علاقات حب مع من لا يمكن معرفتهم جيداً، وأنها ماتت في حادثة حريق نتيجة إهمالها، وأنه إن كان لها ولد فقد اختفى، وعلى كل حال لا يمكن أن يكون ابنَ زيوس. كل هذا الجزء من الحكاية الأسرية الأسطورية إلى حدّ ما، والتي كانت تمثّل سيميليه، تمثل حقيقة أنها بقيت على علاقة مع الإله، حتى لو كان ذنبُها أنها تمنت أن تكون هذه العلاقة أكثر حميمية، ينفيه الطيبيون ويرون فيها أكاذيب. لقد جرى حقاً عرس قدموس وهارموني، كان هذا حقيقة؛ لكن الأمر يتعلق بتأسيس مدينة إنسانية منظمة حسب المعايير البشرية الصرف. يريد ديونيزوس من جهته - ولكن بطريقة أخرى تختلف عن ظروف عرس قدموس وهارموني - أن يؤسس علاقة مع الإلهي، يريد تأسيس علاقةٍ، ليس بمناسبة عيد أو احتفال حيث تدعى الآلهة ليعودوا في الحال، بل علاقةٍ في خضمّ الحياة البشرية نفسها، في الحياة السياسية والمدينية لطيبة كما هي. يقرر أن يُدخل خميرةً تفتح بعداً جديداً في الوجود اليومي في كل واحد كائناً من كان. ولهذا يجب أن يجعل كل نساء طيبة مجنونات. هؤلاء النساء المهيبات المستقرات بثبات في وضعهنّ كزوجات وأمهات، واللاتي نمط حياتهن على النقيض من الليديات اللاتي يؤلفن حَشَم ديونيزوس،هؤلاء هن الطيبيات اللاتي جنّنهنّ الإله بهذيانه.

يهجرن أولادهن، ويتركن هناك في المدينة أعمالهن المنـزلية، يتركن الأزواج وينصرفن إلى الجبال، إلى الأراضي غير المزروعة، إلى الغابات. هناك يتنـزّهن في هيئات مثيرة للدهشة بالنسبة لسيدات موقّرات. يستسلمن إلى كل أنواع الجنون التي يشهدها

الفلاحون بنفوس مشوشة: مذهولةٍ ومعجبة ومصدومة في آن معاً. يوضع بانتيه في صورة ما يجري. يتضاعف غضبه. ينبري ليبدأ حملته ضد المؤمنات بالإله اللواتي يعتبرن المسؤولات عن هذه الفوضى النسائية التي انتشرت في المدينة. يأمر شرطته بالقبض على كل هؤلاء الليديات المتحمسات لهذه العبادة الجديدة وإلقائهن في السجن. وهكذا يفعل المكلفون بالمحافظة على النظام المديني. وما يكدن يطأن أرض السجن حتى يحررهن ديونيزوس بسحره. هاهن مرة ثانية يرقصن ويغنين في الشوارع. يجعلن حيّاتِهن ذوات الأجراس تصوِّت، يثرن الضجيج. يقرر بانتيه مهاجمة هذا الكاهنِ المتجول، هذا المتسولِ الفاتن، فيأمر باعتقاله وتقييده في الأصفاد وحبسِه في الحظائر الملكية مع الأبقار والخيول. يساق الكاهن دون أدنى مقاومة ودون أن يكفّ عن الابتسام، وبكل هدوء،ساخراً مستسلماً، ويسجن في الحظائر الملكية. يظن بانتيه أن الأمر قد سوّي ويأمر رجاله بتجهيز أنفسهم لحملة حربية والانطلاق إلى الريف للإمساك بكل النساء اللاتي يستسلمن هناك لنـزواتهن. ينتظم الجنود في صف رباعي ويتركون المدينة لينتشروا في الحقول والغابات ويطوّقوا فيها مجموعة النساء.

يكون ديونيزوس في ذلك الوقت داخل حظيرته، ولكن القيود تسقط فجأة ويشتعل القصر الملكي. تنهار الجدران ويخرج هو سليماً. يصدم بانتيه أيّما صدمةٍ؛ ولاسيما أنه في اللحظة التي تجري فيها هذه الأحداث ويرى قصره قد تداعى يظهر الكاهن نفسه فجأة أمامه، وينظر إليه باسماً كالعادة سليماً يرتدي ملابسٍ رثة على نحو متقن. يصل قادة جيش بانتيه ملطخين بالدماء، حاسري الرؤوس مُحطمي السلاح: «ماذا حدث لكم؟» يشرحون كما لو أنهم يقدمون تقريراً: «هؤلاء النسوة يبدون مادمن متروكات بسلام كأنهن يسبحن في السعادة، ولسن عدوانيات ولا يهددن بالخطر، بل على العكس، كلٌ شيء فيهن وبينهن وحولهن، في المروج والغابات، ذو لطفٍ مدهش. كنّ يشاهدن وهنّ يحضنّ في أذرعهن صغار الحيوان، من كل الأجناس مختلطةً، يرضعنها من أثدائهنّ كأنها أطفالهن دون أن تؤذيهن البتة هذه الحيوانات المتوحشة التي يتناقلنها أدنى أذىً. وحسبما يؤكد الفلاحون وما يعتقد أن الجنود قد رأوه فإنهن يحَيين كما لو في عالمٍ آخر، عالم من الانسجام الكامل الذي وجد ثانية بين كل الكائنات الحية. البشر والحيوانات تعيش مجتمعة. الحيوانات المفترسة، القناصة منها والجارحة، في صلح مع فرائسها، تعيش بجوارها مبتهجةً بقلب واحد دون حدود، في محبة وسلام. الأرض نفسُها بدأت في الألفة، فمنها وبمجرد نخزة بالمزارق تتفجر ينابيع الماء العذب والحليب والخمر؛ لقد عاد العصر الذهبي. ولكن حالما ظهر الجنود،

وحالما مورس العنف الحربي ضدهنّ، أصبحت هؤلاء النسوة الملائكيات قاتلات شريرات، وبمزاريقهن وثبنَ على الجنود، اخترقن صفوفهم وطعنتهم وقتلنهم، وهكذا تشتتوا تشتيتاً كاملاً».

إنه انتصار اللطف على العنف، والنساء على الرجال، والبرية المتوحشة على النظام المديني.يعلم بانتيه بهذه الهزيمة، وديونيزوس يقف أمامه مبتسماً. يجسّد بانتيه الرجلَ الإغريقي في أحد مظاهره العليا، إنه مقتنع بأن المهمّ هو نوع ما من الشكل الأرستقراطي في الوضع ورقابةِ الذات والقدرةِ على التفكير، وأيضاً هذا الشعور بتكلفِ عدم فعلِ ماهو خسيس، ومعرفةِ التحكم في النفس وعدمِ تعبد الرغبات والأهواء. وهو موقف يتضمن جزئياً نوعاً من الاحتقار للنساء اللاتي يراهن، على النقيض، مستسلمات بسهولة للانفعالات، وأخيراً الاحتقارَ أيضاً لكل ما هو غير إغريقي، لبرابرة آسيا المغتلمين الذين أَدَمَتُهم باللغة البياض لأنهم لا يتمرنون في الملاعب، والذين ليسوا مستعدين لمكابدة المتاعب الضرورية للوصول إلى هذا الضبط للذات. وبتعبير آخر ينسج بانتيه فكرةَ أن دور ملك ما هو المحافظة على نظام تدرجي يكون فيه الرجال في الموقع الذي يخصهم، والنساء يبقين في بيوتهن، والأجانب غير مقبولين، وآسيا والشرق مشهوران بأنه يقطنهما أناس مخنثون معتادون على إطاعة أوامرِ طاغيةٍ؛ في حين أن اليونان يقطنها الرجال الأحرار.

وفي مواجهة بانتيه، هذا الشاب هو على نحوٍ ما صورتُه وصِنْوُه، فهما ابنا أختين شقيقتين من الأسرة نفسها، كلاهما وُلد في طيبة ولو أن وراء أحدهما ماضياً كله تشرّد.هما في العمر نفسه. فلو نُزِع من بانتيه هذا النوع من القوقعة التي كيفها لنفسه ليشعر بأنه رجل حقاً، رجلٌ يعرف ما يجب لنفسه وما يجب نحو الجماعة، جاهزٌ دوماً أن يقود وأن يعاقب، لو جرى هذا لكان وُجد ثانية ديونيزوس بالضبط.

رأيته يرانـــي:

سيتصرف ديونيزوس الكاهن بذكاءٍ حِكْرٍ على الحكماء، عبر أسئلة وأجوبة غامضة، ليوقظ اهتمام بانتيه بما يجري في عالم لا يعرفه ولا يريد أن يعرفه، وهو هذا العالم الأنثوي المختلّ. في خدر الحريم ما يزال يُعرف تقريباً ماذا تفعل هؤلاء النسوة - لا يُعرف البتة بشكل كامل ما تفعله هذه الشيطانات، ولكنهن إجمالاً تحت المراقبة - في حين أنه في البعيد، مختلياتٍ بأنفسهن، لا داخل المدينة، ولا بين المعابد والشوارع حيث كل شيء مرصود،هناك في الطبيعة الطلقة، دون شهود، فمن يعرف إلى أيّ حدّ

يستطعن التمادي؟!. ومع ذلك فقد يكون بانتيه محباً للمعرفة، وفي هذا الحوار بين بانتيه وديونيزوس يسأل الأول شيئاً فشيئاً: «ما معنى إله؟ كيف تعرفه؟ أرأيته؟ في الليل في منامك؟». يجيب الكاهن: «لا، لا، رأيته وأنا صاحٍ جداً، رأيته يراني، نظرت إليه ناظراً إليّ». يتساءل بانتيه عمّا تعنيه هذه الصيغة «رأيته يراني».

فكرةُ النظر، فكرةُ العين، فكرةُ أن هناك أشياء يمكن ألاّ تعرف، ولكن يمكن أن تعرف أفضل إذا رؤيت، هذه الفكرةُ تُنتش شيئاً فشيئاً في دماغ الرجلِ المربّى، الرجلِ المديني، الملكِ، الإغريقيِّ. يقول لنفسه: قد لا يكون سيئاً أن يذهب إلى هناك لرؤيته. وسيبدي رغبة لم يكن يعرفها في نفسه، وهي أن يكون رائياً، ولا سيما أنه يعتقد أن هؤلاء النسوة اللاتي هنّ نسوة أسرته، وقد استسلمن للفوضى في الريف، يستسلمن إلى عربدة جنسية تصعق بمفاجأتها. إنه يتصنع الحياء، فهو شاب بلا امرأة، ويجب أن يضبط نفسه بحزم إلى أقصى الحدود على هذه الأرض؛ لكن هذا يعذّبه. يتمنى أن يرى ما يجري هناك. يقول له الكاهن: «لا شيءَ أسهلُ من هذا، جنودك انهزموا لأنهم وصلوا بأسلحتهم وفي صفوف أربعة. عرضوا أنفسهم بكل سذاجة على مرأى من هؤلاء النسوة. أنت يمكنك أن تذهب إلى هنالك دون أن يراك أحد، سراً، ستحضر ثرثرتهن وجنونهن. ستطلع على الأمور عن كثب دون أن يراك أحد. يكفي أن تلبس مثلي». وفجأة يلبس الملك المديني الإغريقي المذكر، كالكاهن المتشرد ديونيزوس، ملابسَ امرأة، ويطلق شعره. يتأنث ويصبح شبيهاً بذلك الآسيوي. وفي لحظة محددة يصبح الاثنان وجهاً لوجه. يبدو كما لو أن كلاً منهما ينظر في مرآة. العينان في العينين. يمسك ديونيزوس بيد بانتيه ويصحبه إلى سيتيرون Citéhron، حيث النساء. أحدهما يتبع الآخر، هذا المتجذّر في الأرض - إنسان الهوية - وذلك الآتي من بعيد - ممثّل الآخر - يبتعدان معاً عن المدينة متوجهين إلى الجبل، إلى منحدر جبل سيتيرون.

يشير الكاهن لبانتيه إلى صنوبرة عالية جداً قائلاً له أن يتسلقها ويختبئ بين أوراقها، ومن هناك يستطيع أن يراقب كل شيء ويرى كل شيء دون أن يُرى. يرقى بانتيه أعلى الشجرة، ينتظر جاثماً هناك بعيداً، ويرى أمه أغافيه قادمة وكلَّ بنات طيبة اللاتي ذهب ديونيزوس بعقلهنّ؛ فهنّ دائماً في هذيان غامض جداً. جعلهنّ مجنونات، نعم، لكنهن لسنَ نصيرات تماماً للإله، لسنَ «صابئات» إلى الديونيزية. بل على العكس تعلن أغافيه وسائر النسوة أنْ لا شيء من هذا. ورغماً عنهنّ يمثل هذا الجنون الذي ليس ثمرة إقناع ولا ثمرة اهتداء إلى دين عَرَضاً مَرَضياً. هنّ مريضات بالديونيزية لأنهنّ لم يقبلن بها ولم يعتقدنها. وفي مواجهة الكفر تتجلى الديونيزية في شكل مرضٍ معدٍ.

وفي جنونهن يبدون أحياناً كنصيرات للإله في غبطة العودة إلى العصرِ الذهبي، عصر الأخوّة، حين عاشت كل الكائنات الحية، الآلهة والناس والحيونات، مختلطةً. وأحياناً على العكس يستولي عليهن غضب دموي فيغدو كل شيء كما لو كنّ مقدودات من السلاح، لا يتورعن حتى عن ابتلاع أولادهن أو أن يفعلن أي شيء. وفي هذه الحالة الهلوسية من البلبلة العقلية من «الوباء الديونيزي» تعيش نساء طيبة.

لم يستقر ديونيزوس في طيبة بعد، لم يستقبل. إنه دائماً هذا الغريب الذي ينظر إليه شزراً. يرى بانتيه جاثماً على الصنوبرة، والنساء منتشرات في الغابة منصرفات إلى هذه النشاطات الهادئة التي هي نشاطاتهن مادام لا يطاردهنّ أحد، مادمن لا يضطهدن. وفي لحظة ما ينحني بانتيه أكثر مما ينبغي ليراهنّ على نحو أفضل فتلمح النساء هناك في الأعلى جاسوساً راصداً رائياً.يتحولن إلى حالة من الهياج المفاجئ ويسرعن جميعُهن إلى الشجرة يلوينها. لا يستطعن فيجدن أنفسهن مجبرات على محاولة اقتلاعها. يشرع بانتيه يترجح بخطورة في أعلى الشجرة ويصرخ «ياأمي هذا أنا، هذا بانتيه، تكدن تُسقطنني» لكن الهذيان المهيمن عليهن من قبلُ يتملكهنّ تماماً. ويتوصلن أخيراً إلى ليها، فيتواثبن عليه وقد سقط أرضاً، ويقطعنه إرباً إرباً. يمزّقنه كما كانت الضحية تمزّق حيةً نيئة في الأضحيات الديونيزية. وبهذه الطريقة تمزّق أعضاء بانتيه. تستحوذ الأم على رأس ابنها وتشكّه في مزراق، وتتنـزّه وهي في أقصى درجات المرح مع هذا الرأس الذي تظنه في هذيانها رأسَ شبلٍ أو ثور شاب منشباً بطرف عصاها. إنها مخلوبة اللب. وبما أنها تبقى في هذيانها الديونيزي على ما هي ابنةَ إيشيون، امرأةً من سلالة حربية، فهي تفتخر بأنها كانت في الصيد مع الرجال، وكالرجال، بل أظهرت أنها أمهر منهم في الصيد. ومع هذه العصبة من النساء المنفلتات الملطخات بالدم تأتي أغانيه إلى ديونيزوس الذي ما يزال متنكراً في شخص كاهن.

هناك نجد العجوز قدموسَ مؤسسَ طيبة وأبا أغانيه وجدَّ بانتيه الذي تخلى له عن العرش، وتيريزياسَ العراف العجوز الذي يمثل في المدينة الحكمةَ المعتدلة لسنّ الشيخوخة، الحكمةَ الشعائرية إلى حدٍ ما. لا يريد قدموس وتيريزياس كثيراً التورط في هذا الأمر، ولكن رغم كل شيء لا يحسان بهذا العداء القاتل، وهذا الكره الشامل لديونيزوس: قدموس لأنه قدموس ولأنه أب سيميليه، وتيريزياس لأن وظيفته هي توطيد علاقة مع السماء. كلاهما يحسّ، بالأحرى، بافتتان حذِر. ولهذا كانا قررا، رغم كبرهما في السن ورغم صعوبة متابعة الحركة، أن يرتديا هما أيضاً الزي الطقسي

ذا الملابس الفضفاضة، وأن يمسكا بالمزاريق ليلتحقا بالنسوة في الغابة ويرقصا معهنّ كما لو أن الشرف الواجب تأديتُه إلى الإله لا يريد أن يعترف لا باختلاف الأعمار ولا باختلاف الجنس. إذن هذان العجوزان حاضران لحظة ترفع أغافيه، في غمرة هذيانها، رأسَ بانتيه على طرف مزراقها. تتعرف أغافيه قدموسَ وتُبرِز له صيدَها المدهش، وتتباهى بأنها أفضل من يصيد في المدينة وتتفوق حتى على الرجال: «انظر لقد صدت هذه الوحوش، قتلتها». يحاول قدموس مرتعباً أمام المشهد أن يعيد إليها رشدها شيئاً فشيئاً. يقول لها مسائلاً إياها: «ماذا جرى؟ انظري رأس الأسد هذا، انظري شعره، ألا تتعرفينه؟» وشيئاً فشيئاً تخرج أغافيه من هذيانها، وتظهر لها ببطءٍ مِزقٌ من الواقع في هذا الكون الحلمي الذي هو في الآن نفسه دامٍ وجميلٌ جمالاً أخاذاً والتي غرقت في داخله. وأخيراً تلحظ أن الرأس المعلق في رمحها هو رأس ابنها، فياللهول!

رفض الآخر والهوية المفقودة:

اصطدمت عودة ديونيزوس إلى منزله في طيبة بعدم التفهم، وأثارت المأساةَ التي دامت مابقيت المدينة غير قادرة على تأسيس علاقة بين أهل البلاد والغريب، بين السكان الأصليين والمسافرين، بين رغبتها في أن تكون هي هي دائماً، وأن تبقى مطابقة لنفسها تأبى التغيير من جهة، وبين الأجنبي والمختلف والآخر من جهة أخرى. ومادامت إمكانية تسوية هذه المتناقضات معدومة فإن شيئاً مريعاً يحدث: أولئك الذين كانوا يمثلون الارتباط اللامشروط بالدائم، الذين كانوا يطالبون بالثبات الحتمي لقيمهم التقليدية في مواجهة مَن هو غيرهم، مَن يجعلهم يتساءلون، يجعلهم يلقون على أنفسهم نظرة مختلفة، أولئك هم أصحاب الهوية، المواطنون الإغريق الواثقون من تفوقهم، الذين يترجحون في الغيرية المطلقة، في الرعب، وفي المشوّه. أما النساء الطيبيات اللاتي لا يعْلَمنَ في سلوكهنّ، نماذجُ التحفظ والتواضع في حياتهن الأصلية فكلهنّ، وعلى رأسهنّ أغافيه، الملكةُ الأم التي تقتل ابنها وتقطعه وتلوِّح برأسه كجند العدو المهزوم، كلهنّ، يتخذنَ دفعة واحدة صورة الغورغونة ميدوز Méduse. إنهنّ يحملن الموت في عيونهنّ. وبانتيه يهلك بطريقة مرعبة ممزَّقاً وهو حيّ كحيوان وحشي، هو المتحضر الإغريقي السيد على نفسه دائماً الذي تخلىّ عن سحر ما كان يظن أنه الغير، والذي كان يَدينه. إن الرعب قادم ليرتمي على وجه الذات الذي لم يعرف اتخاذ مكان من الآخر.

بعد هذه الأحداث تتغرّب أغافيه، وكذلك قدموس. ويتابع ديونيزوس رحلاته على

سطح الأرض بعدما ثبت مواقعه في السماء. وسيكون له في طيبة نفسها عبادة، لقد فتح المدينة، لا ليطرد منها الآلهة الأخرى، ولا ليفرض دينه ضد الأديان الأخرى، بل ليمثل في مركز طيبة، في قلب المدينة، من خلال معبده وأعياده وعبادته، الهامشيَ والمتشرد والغريب والفوضوي. كما لو أنه بقدرِما ترفض جماعة إنسانية أن تتعرف الآخر وتحسب حسابه فإن هذه الجماعة نفسها تصبح هي الغير على نحوٍ مخيف.

تذكر عودة ديونيزوس إلى طيبة بالوفاقِ مع الإلهي الذي كان قد رسخ بطريقة مبهمة في قلعة المدينة عندما أعطت كلُّ الآلهة لقدموسِ هارموني ابنة آريس وأفروديت. كان هناك، إن لم يكن الوعدَ، فعلى الأقل إمكانُ وجود عالمٍ متصالح، وفي كل لحظة أيضاً احتمالُ الانشقاق والقسمة والمذبحة. ونعرف جيداً أنْ ليست قصة ديونيزوس وحدها التي جعلت منها معتقداً؛ فهناك في سلالة قدموس خيطُ اللابداسيين الذي يشهد على أن الأحسن والأسوأ يمكن أن يمتزجا؛ ففي خرافة اللابداسيين التي تصل إلى قصة أوديب Œdipe التوترُ المستمر بين أولئك الذين هم حقاً حكامٌ، وبين الذين هم وسط الحكم نفسه، يعتمدون في الواقع أكثر على كونهم من سلالة المبذورين، المحاربين، أولئك الإسبارطيين الخرافيين المنذورين للعنف والبغض.

أوديب في غير أوانه

بعد الموت المأساوي لبانتيه، وبعد رحيل قدموس وأغافيه، اهتز العرش، واختل معه كل نظام المدينة؛ إذ من سيكون ملكاً؟ من سيجسد فضائل الحاكم وقدرته على التنظيم؟ حسب العادة يجب أن تؤول الولاية إلى الابن الآخر لقدموس الذي يسمى بوليدوروس Polydoros. يتزوج بوليدوروس من ابنة أحد المبذورين شتونيوس، رجلِ الأرض، ورجلِ ما تحت الأرض. وتحمل هذه الفتاة اسم نيكْتييس Nikléis، أي مدة الليلة، والليلي. وهي أخت أو قريبة جداً من سلسلة كاملة من الشخصيات، وخصوصاً نيكتيه Niktée وليكوس Lykos (الذئب) اللذين يرتبطان بأولئك المبذورين الذين يمثلون العنف الحربي.

وكان بانتيه نفسه ينتمي إلى أصل مزدوج؛ من جهة أمه أغافيه بقدموس الحاكم الحقيقي الذي عينته الآلهة والذي كانت الآلهة قد أعطته إلهة يتخذها زوجة لتشير على نحو ما إلى صفة سلطته الحكمية، ومن جهة أبيه إيشيون ينتمي أيضاً إلى المبذورين. هذا الاسم «الأفعوي» يجعلنا نفكر حالاً بشخصية مؤنثة هي إيشيدنا Echidna، نصفُ المرأة ونصف الحية، أخت الغورغونات Gorgones، وهي مسخ لا تقاوَم، تسكن في الأعماق السرية للأرض، وتلد، بين مصائب أخرى، سيربير Cerbére كلبَ هاديس، وشيمير Chiémére ذا الرؤوس الثلاثة، الذي يتوصل بيليروفون Bellérophon بمساعدة الحصان بيغاس Pegase إلى قتله. إذن بانتيه ممزّق بين السلالة الحاكمة، سلالةِ قدموس، وبين هذه الشخصيات التي وُلدت من الأرض، والتي لها مظهر ليلي ومسخي. وبعد الموت المريع لبانتيه بدا العرش خالياً، لا يشغله بوليدوروس Polydoros إلاّ قليلاً جداً من الوقت إذ سيتوجب عليه أن يتخلّى عنه إلى الابن الذي منحته إياه نيكتيس وهو لابداكوس Labdacos، أي الأعرج، وهو ابن شرعي، لكن خيط نسبه في الحقيقة أعرج نظراً إلى أنه من جهة أبيه بوليدوروس يتصل مباشرة بقدموس والإلهة هارموني، ولكنه يجد نفسه من جهة أمه نيكتييس متصلاً بأولئك الإسبارطيين الذين انبثقوا من أرض طيبة مدججين بالسلاح منذ ولادتهم

مهيئين ليكونوا محاربين. ولابداكوس جِدُّ شاب لدى موت أبيه على الاضطلاع بالأعباء الملكية. ستكون الأزمنة الأولى لحكم طيبة هذا غيرَ ثابتة إذن، ممزقةً، زمنَ العنف والفوضى والاغتصاب، إذ يقفز العرش من يد إلى يد عبر صراعات وخصومات تضع المبذورين في معارضات فيما بينهم، وفيما بينهم وبين السلطة الملكية الشرعية، بدلاً من أن ينتقل من الأب إلى الابن عبر تتابع نظامي ومؤكد. وعندما يموت لابداكوس بدوره، وابنه لايوس Laïos يكاد يبلغ السنة من العمر، يخلو العرش من جديد. واللذان يشغلانه هما نيكتيه وليكوس، وسيحتفظان به وخصوصاً ليكوس وقتاً طويلاً، ثمانية عشر عاماً بلغة الأرقام. وفي خلال هذا الزمن لايسمح وضع الصغير لايوس بممارسة الحكم.

يبعد ليكوس ونيكتيه كلاهما من قِبَلِ شخصيتين غريبتين عن طيبة تسميان أمفيون Amphion وزيتوس Zéthos. وعندما يحين الوقت يتخليان عن العرش إلى صاحبه الشرعي. وفي انتظار هذا ينجح المغتصبون زمناً طويلاً في إبعاده عن السلطة. يجبَر لايوس على النفي، وكان قد بلغ سن الإدراك عندما وجد ملجأ في كورانث Corinthe، عند الملك بيلوبس Pélops الذي يقدم له الضيافة بكل كرم ويحميه عنده.

أجيال عرجاء:

هنا تقع حلقة من الأحداث ستكون نتائجها مهمة؛ فإن لايوس يسقط صريع حب كريسيب Chrysippe، وهو شاب جميل جداً وابن لبيلوبس. يواظب لايوس على التحرش به، يصحبه على عربته ويسلك معه سلوك رجل مع شاب يصغره سناً. يعلمه أن يكون رجلاً، لكن في الوقت نفسه يحاول أن يقيم معه علاقة جنسية يرفضها ابن الملك.بل حتى ليبدو أن لايوس أُضطُرَّ أن يحصل بالعنف على مالم ينجح الإغراء والاستحقاق في تحصيله. ويُروى أيضاً أن كريسيب انتحر هرباً من العار والفضيحة. يبقى أن بيلوبس يطلق على لايوس لعنة شعائرية داعياً ألاّ تستطيع سلالة اللابداسيين الخلودَ، وأن تكون منذورة للموت.

يعني اسم لابداكوس الأعرج، أما اسم لايوس فلا يشفّ عن المعنى. ربما يكون معناه زعيم شعب أو رجلاً أخرق. يمكن في الحقيقة أن نلاحظ أن لايوس شوّه كافة علاقاته من كل الجهات؛ فمن جهة كان يجب حسب التسلسل أن يؤول إليه حكم طيبة مباشرة عبر أبيه لابداكوس وجده بوليدوروس وجدّه الأكبر قدموس وأن يثبّته هذا

التسلسل على عرش طيبة، والحال أنه قد نُحّيَ عنه وأُبعد، وعلى هذا فالتسلسل أعرج. ويمثل لايوس أيضاً انحرافاً لأنه يتحول إلى الصبي في السن التي يمكن أن يفكر فيها باتخاذ زوجة. والأخطر بين هذين الانحرافين هو انحراف السلوك العشقي عندما أراد أن يفرض بالعنف ما لم يكن كريسيب مستعداً أن يقدمه من تلقاء نفسه؛ إذ ليس بين الاثنين مبادلة عشقية. إن طريق الميل العشقي ذي الطرف الوحيد مسدود، وفضلاً عن ذلك فإن لايوس ضيف بيلوبس، وتتضمن علاقة الضيافة هذه تبادُلَ المودة والهدايا، وبدلاً من أن يدفع في عودته مقابل ما تلقّاه، يحاول لايوس أن يغتصب ابنه رغماً عنه، ويتسببُ في انتحاره.

حلّ محل ليكوس الذي كان يمارس السلطة أمفيون وزيتوس، وهما يموتان أيضاً، فيعود لايوس إلى طيبة، ويسعد الطيبيون جداً باستقباله وإيداع العرش هكذا لدى شخص يبدو لهم جديراً به.

يتزوج لايوس من جاكوست Jacoste، وهي الأخرى ترتبط في خيط نسبها، وضمن إطار عريض جداً، بإيشيون، فهي ابنةُ حفيدةِ مَن يمثل الإرث الليلي المظلم كشتونيوس. وزواجها من لايوس زواج عقيم، ولذا يذهب لايوس إلى دلفي ليستشير الوحي فيما يجب أن يفعله لتكون له ذرية حتى يتبع طريق الحكم أخيراً خطاً مستقيماً. يجيبه الوسيط «إن يكن لك ولد فسيقتلك ويضاجع أمه». يعود لايوس إلى طيبة مروعاً. إن له علاقة بزوجته من المؤكد أنها لن تنجب طفلاً ولن تحمل. تروي القصة أن لا يوس كان مخمورا يوماً فترك نفسه رغم هذا التحذير تزرع بذرة في حقل زوجته، كما يقول الإغريق، ستُنتش هذه المرة. وهكذا خلفت جاكوست ولداً. يقرر الزوجان تنحية هذه السلالة وقطعها فينذران الولد للموت. يدعوان إذن أحد رعاتهما الذين يتوجهون في الصيف إلى جبل سيترون ليرعوا فيه القطعان الملكية، ويكلفانه بقتل الطفل بتركِهِ على الجبل فريسةً للوحوش والجوارح.

يمسك الراعي بالمولود الحديث، ويمرّر في عقبه بعدما ثقبها حزاماً.ويمضي هكذا حاملاً الطفل على ظهره كما كانت الطريدة الصغيرة تحمل آنذاك. يصل إلى أعلى الجبل مع قطعانه، يبتسم له الطفل فيتردد: أيهجره هنا؟ يفكر أن هذا مستحيل. يرى راعياً قادماً من كورانث يرعى ماشيته على المنحدر الآخر للجبل. يسأله أن يأخذ هذا الطفل الذي لايريد له الموت. يخطر للراعي الملك بوليب Polybe والملكة بيريبويا Périboéa اللذين ليس لهما أولاد ويرغبان في طفل. يحمل الراعي الطفل إذن بعقبه المجروحة.يربيه الحاكمان سعيدين به جداً كأنه ابنهما. هذا الطفل، حفيد لابداكوس

الأعرج وابن لايوس الذي كان قد نُحّي عن السلطة، والذي انحرف عن السلوك المستقيم للضيف تجاه مضيفه، وانحرف عن العلاقة الوصلية المستقيمة، هذا الطفل سيجد نفسه إذن مبعداً بدوره عن بلاده، عن مسقط رأسه، عما يستحقه من الشرف طفلٌ ملكي يخلد الأسرة الحاكمة اللابداسية. نشأ الطفل وهاهو يكبر. وعندما يصبح مراهقاً يُعجَب كل الناس برشاقته وشجاعته وذكائه، ولم يخلُ شباب النخبة الكورانثية من شيء من الغيرة نحوه.

ابن منسوب لغير أبويه:

يحتفظ أوديب، حتى لو لم يعرج بالمعنى الكامل للكلمة، بعلامة هذا الانحراف المفروض عليه عن المكان الذي هوفيه، بالنسبة إلى المكان الذي كان يجب أن يكون فيه، وعما يؤلف أصوله الحقيقية. إذن هو أيضاً في حالة من عدم التوازن. ولما كان ابناً للملك فإن كل الناس يرون فيه الوريث الحتمي لبوليب، لكنه ليس تماماً ابن كورانث، يعلم الناس هذا ويقولونه سراً. وذات يوم، وفي خلال جدال بينه وبين صبي من عمره يرميه هذا الأخير بالحقيقة «على أي حال أنت ابن منسوب لغير أبويك». ونظراً إلى أن بوليب ليس أباه الحقيقي فإنه لا يقول له صراحة «لا مطلقاً أنت حقاً ابني وابن أمك» بل يكتفي بالقول «هذه الأقوال حماقات لا قيمة لها، الناس حاسدون يروون أي شيء يخطر لهم». يبقى أوديب قلقاً فيقرر الذهاب إلى الوحي في دلفي ليطرح عليه مسألة ولادته: أهو ابن بوليب وبيريبويا أم لا؟ يتحفظ الوحي في تقديم جواب واضح وضوحَ سؤاله لكنه يقول «ستقتل أباك وتضاجع أمك» يرتاع أوديب، ويمحو هذا الكشف المرعب سؤاله الأولي «أنا ابن حقيقي؟»؛ فالأمر الملحّ الآن هو الهروب والابتعاد ما أمكن عمّن يعدهما أباه وأمه، والتغربُ والرحيل والسير إلى أبعد ما يمكن. وهاهو ينطلق مثل ديونيزوس إلى حد ما، يغدو هائماً. لم تبق له أرض يطؤها ولا وطن. يتجه على عربته أو على رجليه من دلفي إلى طيبة.

يحدث في الوقت نفسه أن مدينة طيبة كانت تواجه وباء مخيفاً، وأن لايوس كان يريد الذهاب إلى دلفي لاستشارة الوحي. كان لايوس يتقدم مع فريق صغيرعلى عربة مع سائقها ورجل أورجلين. هاهما إذن الأب والابن: الأب مقتنع أن ابنه مات، والابن متأكد أن أباه شخص آخر. يسلكان الدرب في اتجاهين متعاكسين، يلتقيان على تقاطع ثلاث طرق، في مكان لا يتسع لعربتين وجهاً لوجه. أوديب على عربته وكذلك لايوس. يعتبر لايوس أن لموكبه الملكي أفضليةَ المرور فيطلب من سائسه الإيعاز إلى

الشاب بالتنحي، يصرخ السائس بأوديب «ابتعدْ عن الطريق ودعْنا نمر» وبضربة من هراوته يصيب أحد حصاني عربة أوديب أوربما يصيب أوديب نفسه في كتفه. وأوديب الذي ليس متسامحاً، ويعدُّ نفسه، حتى في دور المنفيِّ الطوعي، أميراً ابن ملك، لا يعتزم البتة أن يخلي الطريق لأيٍّ كان، والضربة التي تلقاها تُسعر نار غضبه فيضرب بدوره الحوذي بعصاه فيطرحه أرضاً، ثم يهاجم لايوس الذي يسقط أمام قدميه ميتاً أيضاً، في حين يعود أحد الرجال الذين يتبعون الموكب الملكي مذعوراً إلى طيبة. ويتابع أوديب الذي لم يعدّ الأمر إلا حادثة مرور عارضة وحالة دفاع مشروع عن النفس، يتابع طريقه وتيهه.

وسيصل إلى طيبة بعد هذا الحادث بمدة طويلة في اللحظة التي تعصف فيها التعاسة بالمدينة على هيئة وحشٍ نصفِ امرأةٍ، نصفِ لبوة، رأسِ امرأة وثدييها، وجسمِ لبوة وقوائمها، وهو الاسفنكس Sphinge. أقامت هذه الاسفنكس على أبواب طيبة، أحياناً على عمود، وأحياناً على صخرة أعلى، تجد متعتها في أن تطرح ألغازاً على شبان المدينة. وطوال أعوام تصر على أن يرسَل إليها نخبةُ الشباب الطيبي وأجملهم الذين عليهم مجابهتها. ويقال أحياناً إنها كانت تريد مضاجعتهم. وعلى أي حال كانت تفرض عليهم الإجابة على أحجيتها، وحين يعجزون تقتلهم. هكذا، وعلى امتداد أعوام، ترى طيبة زهرة شبابها يُغتالون ويُبادون. عندما يصل أوديب إلى طيبة ويدخل من أحد أبوابها يرى الناسَ كلهم مرتعبين ذوي ملامح مكفهرة. يتساءل عما يجري. يرى الوصيُّ على العرش الذي أخذ مكان لايوس وهو كريون Créon أخو جاكوست، والذي ينتمي هو أيضاً إلى سلالة المبذورين، يرى هذا الشاب ذا المظهر الجميل والهيئة الجريئة، ويقول لنفسه «قد يكون هذا المجهولُ في وضعهم الذي هم فيه الفرصةَ الأخيرة لإنقاذ المدينة»، ويخبر أوديب أنه إن استطاع قهْرَ هذا الوحش فسيتزوج الملكة.

جرأة مشؤومة:

تمثل جاكوست السلطة منذ أن ترملت؛ لكن كريون هو الذي يقبض عملياً على زمامها. ولهذا فهو مفوض أن يخبر أوديب أنه إن يهزم الاسفنكس آلت إليه دفعة واحدة الملكة والمملكة. يجابه أوديبُ الاسفنكس الوحشَ على أكمتها الصغيرة. ترى أوديب قادماً وتقول لنفسها: إنه فريسة جميلة. تطرح عليه اللغز التالي: «ما هو الكائن الذي له وحده بين من يعيش على الأرض وفي المياه وفي الجو صوتٌ واحد وطريقة

واحدة في التعبير وطبيعة واحدة؛ ولكن له قدمين وثلاثاً وأربعاً؟» يفكر أوديب، وقد يكون هذا التفكير مسهَّلاً على رجل يسمى أوديب لأن اسمه مركب من مقطعين يعنيان «ذا القائمتين»؛ مما يعني أن الجواب محفور في اسمه، فيجيب: «الإنسان؛ يمشي الإنسان وهو بعدُ طفلٌ على أربع قوائم، وعندما يتقدم في السن يقف منتصباً على الساقين، وعندما يهرم يتوكأ على عصاً ليستر مِشيته المترنحة المترددة». الاسفنكس، وقد رأت نفسها مهزومة في هذا الاختبار للمعرفة الغرائبية، ترمي نفسها من أعلى عمودها أو صخرتها، وتموت.

مدينة طيبة كلها تعبر عن فرحها. يُحتفل بأوديب، وتسترده المدينة في أُبّهة عظيمة، وتقدَّم له جاكوستُ الملكة التي ستكون زوجته مكافأةً. يغدو أوديب حاكم المدينة؛ لقد استحق أن يكون الحاكمَ لأنه برهن على أعظم حكمة وجرأة. إنه جدير أن يكون سليل قدموس الذي ميزته الآلهة بإهدائه إلهةً زوجةً له وهي هارموني، ووصفته بأنه مؤسس طيبة.

يجري كل شيء على ما يرام طيلة سنوات، وينجب الزوج الملكي ابنين هما بولينيس Polynice وإيتيوكل Étéocle، وابنتين: إيسمين Isméne وأنتيغون Antigone. ثم يحلّ بطيبة وباء على نحو مفاجيء. كان الجميع يبدون سعداء وعلى طبيعتهم واتزانهم. ثم يختفي كل هذا فجأة فيغدو كل شيء نحساً؛ فعندما تسير الأمور كما ينبغي على عادتها ينبت القمح في كل الأعوام، والثمار تعلو الأشجار، والقطعان تلد النعاج والماعز والعجول الصغيرة، وباختصار يتجدد غنى طيبة بفضل المواسم. والنساء أنفسهن يندرجن في حركة التجديد العظيمة تلك لقوى الحياة؛ لهن أولاد جميلون أقوياء أصحاء. وبغتة ينقطع هذا السياق المألوف وينحرف ويغدو أعوج أعرج؛ تضع النساء أمساخاً أو أطفالاً ميتين، ويجهضن. وموارد الحياة هي الأخرى تنضب وتنقطع. وفضلاً على ذلك يعصف مرض بالرجال كما بالنساء، وبالشباب كما بالشيوخ، مرض يقتل دون تمييز. غدا الرعب عاماً، وجُنّت طيبة؛ فماذا يجري؟ ما الذي تبلبل؟

يقرر كريون أن يرسل ممثلاً لطيبة إلى دلفي ليسأل الوحي ويعرف أصل هذا المرض المعدي، هذا الوباء الذي ضرب المدينة ولم يُبقِ شيئاً من النظام على حاله. كل من يمثل حيوية المدينة من قطبيها. الأطفال الصغار جداً والمسنون جداً (ذوو الأرجل الأربع والثلاث) يأتون إلى أمام القصر الملكي مع أغصان المتوسلين. يتوجهون إلى أوديب يسألونه إنقاذهم «كن منقذنا، حمَيّتنا في المرة الأولى من النكبة، حررتنا من ذاك

الوحش المريع الذي كان الاسفنكس، أنقذْنا الآن من هذا الطاعون الذي يودي لا بالبشر فحسب، بل بالنبات والحيوان أيضاً، كما لو أن مسيرة التجدد وجدت نفسها محاصرة حصاراً كاملاً».

يتعهد أوديب في نبرة مدوية مصرحاً لهم بأنه سيقود البحث وسيعرف أسباب الشر ويهزم هذه البلية. وفي هذه اللحظة يعود الرجل الذي أرسلوه إلى دلفي: أخبره الوحي أن الشر لن ينقطع مادام قاتِلُ لايوس لم يكفِّر عن ذنبه؛ وبالتالي يجب العثورُ عليه ومعاقبتُه وطردُه من طيبةَ نهائياً ونفْيُه عن الأرض الطيبية، يجب أن يبعد إلى الأبد من تلوثت يده بدم لايوس.

يسمع أوديب هذا الجواب فيتعهد ثانية على رؤوس الأشهاد «سأبحث عن المجرم وسأكشفه» أوديب رجل بحث واستقصاء وسؤال، وكما أنه ترك كورانث ليقْدم على المغامرة، فهو كذلك الرجل الذي تستحق مغامرة التفكير والاستقصاء في رأيه المحاولةَ الدؤوب. لا شيء يوقف أوديب؛ سيمضي إذن لقيادة ما يشبه التحقيق البوليسي.

يتخذ الإجراءات الأولية، فيعلن أن على كل الذين يستطيعون تقديم معلومات تتعلق بالأمر أن يفعلوا، وأن كل الذين يُحتمل أن يجدوا أنفسهم على علاقة مع قاتل محتملٍ عليهم أن يمسكوا به، وأن القاتل لا يستطيع أن يبقى في طيبة إذ أن عاره هو الذي يجلب العذاب لطيبة، ولن يني أوديب يبحث عنه مادام لم يُكشف ولم يُطرد من البيوت والمعابد والشوارع. يجب أن يعلم من هو فيبدأ التحقيق. يشرح كريون للشعب أن لطيبة عرافاً ممتهناً يعرف فكّ رموز طيران العصافير، وربما بإلهام إلهي، سيعرف الحقيقة، وهو العجوز تيريزياس. يرجو كريونُ أن يُستقدم تيريزياس ويُستفهم منه عن هذه الأحداث، لكن تيريزياس لا رغبة له في الظهور ولا في الاستجواب. ومع ذلك يُصطحب إلى الساحة العامة أمام شعب طيبة وأمام مجلس الشيوخ الاستشاري وأمام كريون وأوديب.

يستجوبه أوديب، غير أن تيريزياس يرفض إجابته، يزعم أنه لا يعرف شيئاً. يستثير هياج أوديب الذي لا يُكنّ احتراماً عميقاً لهذا العراف؛ ألم يكن أخبث وأعلم من تيريزياس؟ بلى فقد وجد جواب اللغز بخبرته فحسبُ، بمجرد قدرة الإنسان العاقل على المحاكمة؛ في حين أن تيريزياس لم يستطع بإلهامه وبالعلامات التي يفك رموزها إعطاء الجواب. يصطدم أوديب بجدار، لكنه ليس جدار الجهل، لأن تيريزياس يرفض أن يكشف ما يعرفه بفعل حكمة إلهية. إنه يعرف كل شيء، يعرف من قتل لايوس، ويعرف أنه أوديب لأنه على علاقة مع أبولون Apollon سيدِه؛ فأبولون هو الذي تنبأ

«ستقتل أباك وتضاجع أمك». يعرف تيريزياس دور أوديب في تعاسات طيبة غير أنه لا يريد أن ينبس ببنت شفة؛ فقد قرر ألا يقول شيئاً حتى اللحظة التي يقتنع فيها أوديب أن هذا العناد الذي يهيجه، أن هذا الرفض للإجابة، لايمكن أن يكونا وليدي المصادفة. يظن أوديب أن تيريزياس وكريون يتواطأان ضده لإزاحته من مكانه وإحتلاله، يتصور أن كريون اتفق مع تيريزياس، بل ربما رشا العراف، وأن الشخص الذي أُرسل إلى دلفي شارك كذلك في المؤامرة.

يغمر الحنق أوديب، يتعثر تفكيره، ويطالب بأن يترك كريون المدينة حالاً لأنه يشتبه في أنه دبَّر مقتل لايوس، فإن كان كريون قد تمنى موت لايوس ليمارس السلطة عبر أخته جاكوست فلربما هو الذي حرض على الهجوم. هذه المرة تجد قمة الدولة نفسها مستسلمة إلى قوى التفرقة، إلى النـزاع المفتوح؛ فأوديب يريد طرد كريون، وجاكوست تتدخل، تحاول إعادة الوفاق بين الرجلين، بين السلالتين. ليس هناك الآن السلالة النقية لقدموس من جهة، وللمبذورين من جهة؛ فالسلالتان امتزجتا باستمرار. وللايوس وأوديب أيضاً أسلاف من المبذورين، أما جاكوست فهي سليلة مباشرة لإيشيون هذا الذي كان يمثل شيئاً مما يُقلق البال قلقاً رهيباً. المدينة ممزقة إذن، الزعماء يتحاربون، يتبادلون الكراهية، وأوديب يتابع تحقيقه.

شاهِدٌ مباشر ربما تجب استشارته هو الرجل الذي كان حاضراً مع لايوس لحظة المأساة والذي نجا بنفسه. روى لدى عودته أن كثيراً من قطاع الطرق كانوا قد هاجموا، في كمين نصبوه، العرباتِ الملكيةَ في طريقها إلى دلفي وقتلت لايوس والسائس. حين رُويت هذه الحكاية لأوديب للمرة الأولى اضطرب قليلاً بشأن دوره كقاض للتحقيق؛ فقد شُرح له أن الحادثة جرت على مفرق ثلاثة طرق، على طريق ضيق قرب دلفي، هذا المفرق وهذا الطريق الضيق لا يعرفهما إلا قليلاً، وما يُطمئنه هو أنه إن كان يجهل أنه قتل فإنه يعلم أنه كان الوحيد في فعله؛ في حين أن «عصابات هاجمت لايوس». يُجري أوديب محاكمة عقلية بسيطة جداً: «عصابات»... إذن لست أنا، هناك قصتان مختلفتان. من جهتي أنا قابلت رجلاً على عربته ضربني، ومن الجهة الأخرى قصةُ عربة لايوس الذي هاجمته العصابات؛ إذن هما قصتان مختلفتان كلياً»

وعليه يطلب أوديب استقدام الرجل الذي كان حاضراً لحظة الحادث ليسمعه، ويقلق إذ يجيبونه بأن هذا الرجل منذ أن عاد إلى طيبة لم يطأها عملياً؛ فقد اعتكف في الريف، ولم يُر بعدُ. يجب إذن استحضاره وسؤاله عن الظروف التي جرى فيها الهجوم. يُستقدم هذا البائسُ خادمُ لايوس. يتشدد أوديب بوصفه قاضياً للتحقيق في

استنطاقه، إلا أن الرجل لا يُفصح عن أكثر مما أفصح عنه تيريزياس. يجد أوديب أعظم مشقة في انتزاع أي معلومات عنه؛ حتى إنه يهدده بالتعذيب ليحمله على الكلام.

في هذه اللحظة يُرى غريب يصل إلى طيبة قادماً من كورانث بعد رحلة طويلة. يصل إلى مقام جاكوست وأوديب ويسلِّم ويسأل أين ملك البلاد ليخبره خبراً حزيناً وهو أن أباه وأمه ملك كورانث وملكتها قد ماتا. يتألم أوديب ألمَ من يجد نفسه الآن يتيماً، ولكنه ألم مخفف ببعض الفرح لأنه إذا كان بوليب قد مات فهذا يعني أنه لن يستطيع قتل أبيه نظراً إلى أنه ميت، ولن يستطيع مضاجعة أمه لأنها ماتت هي الأخرى. هذا الرجل ذو التفكير المفتوح الحر جداً ليس مستاء من رؤية الوحي غيرَ صادق. يبرّىء أوديبُ نفسَه أمام حامل هذه الأنباء السيئة الذي ربما كان ينتظر منه أن يعود إلى كورانث ليوطد فيها الملكية كما كان متوقعاً، قائلاً: كان عليه حقاً أن يترك كورانث لأنه أخطر بأنه سيقتل أباه ويضاجع أمه. يجيب الرسول «كنتَ على خطأ كبير في رحيلك لأن بوليب وبيريبويا ليسا أباك وأمك» يُذهل أوديب الذي يتساءل عما يعني كل هذا.

أهلك لم يكونوا أهلك:

تستمع جاكوست إلى الرسول وهو يشرح أن أوديب كان طفلاً حديث الولادة جُلب إلى القصر وتبنّاه منذ الأيام الأولى ملك كورانث وملكتها. لم يكن من صلبه ولا من رحمها، ولكنهما أرادا أن تكون كورانث مدينته. يتملك جاكوستَ انبهارٌ مشؤوم فإن لم تكن قد خمّنت جزئياً في السابق فكل شيء الآن واضح أمامها. تترك مكان المناقشة وتدخل القصر. يسأل أوديب الرسول «من أين تعرف كل هذا؟» يجيب الرسولِ «أعرفه لأنني أنا نفسي الذي أودع هذا الطفل لدى أسيادي، أودعتك أنت الطفلَ ذا العقب المثقوبة». يسأل أوديب «إلى من كنت أعطيت الطفل؟» يتعرف الرسول بين الحضورِ الراعيَ العجوز الذي كان يرعى سابقاً قطعان لايوس وجاكوست، ذاك الذي أودع عنده المولود الجديد. يُجنّ أوديب، وينكر الراعي. يتناقش الرجلان «لكنك تذكر جيداً، كنا على جبلِ سيتيرون، وأنت الذي ترك معي الطفل». يشعر أوديب أن الأمور تأخذ منحى رهيباً. يفكر للحظة أنه لم يكن إلا طفلاً لقيطاً، ابنَ حورية أمْ إلهة، مهجوراً هناك، وهذا ما يفسر المصير الاستثنائي الذي قُدِّر له. لا يزال عنده أمل مجنون، غير أن الحقيقة اتضحت للشيوخ المجتمعين. يتوجه أوديب إلى راعي لايوس ويحضه أن يقول الحقيقة:

ـ هذا الطفل من أين أخذته؟

ـ من القصر.

ـ من أعطاك إياه؟

ـ جاكوست.

وفي هذه اللحظة ينتفي ظِلُّ أيٍّ شك. يستوعب أوديب. يسرع كالمجنون إلى القصر ليرى جاكوست: لقد شنقت نفسها بحزامها إلى السقف. يجدها ميتة. يفقأ عينيه بمشابك ثوبها. يُدمي الدائرتين المبصرتين من جسمه.

طفل شرعي لسلالة ملكية وملعونة، مبعَد ثم عائد إلى وطنه الأصلي، عائد في غير تطور طبيعي وفي خط غير مستقيم. ولكن لم يعد يستطيع رؤية النور بعدما انحرف وتحول. لم يعد يستطيع رؤية وجهِ أيٍّ كان. كان يتمنى لو أن أذنيه صمّتا، لو كان في عزلة شاملة لأنه أصبح دَنَسَ مدينتِه. عندما يكون هناك طاعون، عندما يتغير نظام الفصول، عندما ينحرف الخصب عن الطريق المستقيم والمألوف، فلأن هناك دنساً، وهذا الدنس هو نفسه أوديب. إنه ملتزم بوعده، قال إن المجرم سيطرد متبوعاً بالخزي من طيبة؛ ولذا عليه الرحيل.

الإنسان ثلاثة في واحد:

كيف لا يمكن أن نرى في هذه الحكاية أن اللغز الذي كانت تطرحه الاسفنكس تعبر عن مصير اللابداسيين؟ كل الحيوانات ذات القائمتين أو الأربع، بِغَضّ النظر عن الأسماك التي لا أقدام لها، كلُّها لها «طبيعة» تبقى هي هيٍ دائماً. فمنذ الولادة وحتى الموت لا يتغير ما يحدد خصوصيتها بوصفها كائناتٍ حيةً. كل جنس له وضْعٌ واحد وطبيعة واحدة؛ في حين أن الإنسان يعرف ثلاث مراحل متعاقبة، وثلاث «طبيعات» مختلفة: هو أولاً طفل؛ وطبيعةُ الطفل مختلفة عن طبيعة الرجل المكتمل. ثم يجب للانتقال من الطفولة إلى البلوغ الخضوعُ إلى طقوس مُسارّية تسمح بخرق الحدود التي تفصل العمرين. يصبح المرء إنساناً آخر ويدخل في شخصية جديدة منذ أن يجد الإنسان نفسه انتقل من الطفولة إلى البلوغ. وبالطريقة نفسها، عندما يصبح المرء على قدمين، وهذا حقيقي أكثر بالنسبة لملك أو لمحارب؛ فعندما يغدو الإنسان على قدمين يصبح شخصاً مهماً تفرض فتنتُه وقوتُه نفسيهما. ولكنْ ابتداءً من اللحظة التي يلج فيها إلى الشيخوخة يكفُّ عن أن يكون رجل المغامرة الحربية، وينحو إلى الأفضل: إلى رجل الكلام البليغ والنصيحة الحكيمة، أو إلى الأسوأ: إلى نفاية جديرة بالرثاء.

يتحول الإنسان محافظاً على جوهره في خلال هذه المراحل الثلاث؛ فما الذي يمثله أوديب إذن؟ إن اللعنة التي أطلقت على لايوس كانت تمنع كل ولادة تمد خيطَ نسبٍ للابداسيين. وعندما يولد أوديب يضطلع بدور من كان يجب ألا يكون هناك، يأتي في غير أوانه؛ فوريث لايوس هو في الآن نفسه سليل شرعي وإنجاب مسخي، ووضعه أعرج كلياً: ينجو من الموت، وهو المنذور له، بمعجزة، ويجهل عندما يعود إلى طيبة ليشغل فيها أعلى المسؤوليات، وهو الذي أبعد عنها، أنه راجع إلى نقطة بدايته رغم أنه مولود فيها. إذن لأوديب وضع غير متوازن؛ فقد خلط، بإكماله هذا المسيرَ الذي يعيده إلى المكان نفسه الذي ولد فيه، المراحلَ الثلاث من الوجوذ الإنساني، وشوّش المسيرة المنتظمة للفصول خالطاً ربيع الشباب بصيف البلوغ بشتاء الشيخوخة. وهو في الوقت نفسه الذي يقتل فيه أباه يطابقه آخذاً مكانه على العرش وفي سرير أمه. وكان يطابق، وهو ينجب أطفالاً من أمه الحقيقية باذراً الحقل الذي أنبته هو، كما يقول الإغريق، لا أباه فحسب، بل أطفالَه الذين هم في آن واحد أولادُه وإخوتُه، بناته وأخواته. إن هذا الشبح الذي كانت الاسفنكس تتكلم عليه، والذي هو في الوقت نفسه يمشي على اثنين وثلاثة وأربعة هو أوديب.

تطرح الأحجية مشكلة الاستمرار والاحتفاظ بالأوضاع والوظائف والمناصب في وسط الثقافات رغم تدفق الاجيال التي تولد وتحكم وتختفي مخلية الساحة إلى الجيل التالي. يجب أن يبقى العرشُ نفسَه في حين أن الذين يشغلونه سيختلفون باستمرار؛ فكيف يمكن للسلطة الملكية أن تبقى واحدة وسليمة عندما يكون الذين يشغلونها، أي الملوك متعددين وشتى؟ إن المشكلة هي معرفة كيف يمكن لابن الملك أن يصبح ملكاً كأبيه ويأخذ مكانه دون أن يصطدم به أو أن ينحّيَه، وأن يستقر على عرش أبيه دون أن يطابقه كذلك، كما لو كان هو نفسه؟. كيف يمكن لتدفُّق الأجيال وتعاقبِ المراحل اللذين يسِمان الانسانية، والموصوفين بالوقتية وبعدمِ الكمالِ الإنساني، أن يكونا في صف واحد مع نظام اجتماعي يجب أن يبقى ثابتاً ملتحماً ومنسجماً؟

أليست اللعنة التي أُطلقت على لايوس، وربما تمتد إلى أبعد منها، وهي كونُ بعضِ الهدايا في عرس قدموس وهارموني، ذاتَ قدرة سيئة الطالع، طريقةً نتعرف بها أنَه بالضبط وسط هذا الزواج الإستثنائي والتأسيسي كانت تتغلغل خميرة الفرقة و«فيروس» البُغض، كما لو أن بين الزواج والحرب، وبين الوحدة والصراع رباطاً سرياً؟ كثيرون، وأنا منهم، قالوا إن الزواج للفتاة هو الحرب للشاب. وفي مدينة فيها نساء ورجال معارضةٌ وتداخل حتميان بين الحرب والزواج.

لاتنتهي قصة أوديب هناك؛ فسلالة اللابداسيين يجب أن تتوقف عند لايوس، واللعنة التي تُبهظ أوديب تعود إلى أبعد في الماضي، بل إلى ما قبل ولادته. إنه ليس مخطئاً ولكنه يدفع الضريبة الثقيلة التي تمثلها هذه السلالة من العُرجان، من الخَرْقى، على أولئك الذين رأوا منهم نور الشمس في حين أنهم لم يكن لهم الحق في أن يولدوا.

أولاد أوديب:

يروى أن أوديب عندما يصبح أعمى مدنَّساً سيعامله ولداه بطريقة جِدٍّ معيبةٍ تجعله يطلق بدوره لعنةً على ذريته من الذكور، شبيهةً بتلك التي كان أطلقها بيلوس على لايوس، وعلى سبيل السخرية يقال إنه ولديه يقدِّمان له، قبل أن يُطرد من طيبة، وهو مايزال في القصر، كأسَ قدموس الذهبيةَ وطاولته الفضيةَ اللتين كان يحتفظ بهما في الحين الذي يُقدّم إليه فيه أسوأُ القطعِ من الذبائح التي هي نفايةُ الأغذية. ويروى أيضاً أنه حُبس في زنزانة مظلمة لإخفائه كَدَنَسٍ يريدان إبقاءه سرياً للأبد. يطلق أوديب إذن لعنة مدوية يدعو فيها على أولاده ألا يتفاهموا أبداً، وأن يريد كل منهم الاستئثار بالحكم، أن يشتبكوا بالسلاح، ويَهلك أحدُهم على يد الآخر.

وهذا ما جرى في الحقيقة؛ فإن إيتيوكل وبولينيس اللذين هما من خيط نسبٍ كان يجب أن ينقطع، سينشب بينهما بغض قاتل. يقرر الابنان أن يتناوبا الحكم سنة بعد سنة. يبدأ إيتيوكل الحكم، ولكنه يعلن لأخيه في نهاية عامه أنه ينوي الاحتفاظ بالعرش. ينطلق بولينيس، وقد نُحّي عن الحكم، إلى أرغوس Argos ويعود مع حملة السبعة، أي حملةِ الأرغوسيين ضد الطيبيين. يحاول العودة إلى السلطة ضد أخيه بتهديم طيبة. وفي معركة حاسمة سيقتل كل منهما الآخر. وهكذا، وقد قتل كل من الأخوين أخاه وفني اللابداسيون، تكتمل القصة، أو يبدو أنها اكتملت.

لم تكن حملة بولينيس هذه ضد طيبة ممكنة إلا لأن أدراست Adraste ملكَ أرغوس قرر أن يقودها ليدعم قضية بولينيس. ولهذا كان على عراف آخر هو أمفياراوس Amphiaraos الموافقةُ على هذه الغزوة. ومع ذلك كان هذا العراف يعلم أن الحملة ستكون نكبة، وأنه سيلقى حتفه فيها، وستفضي إلى كارثة. وعلى هذا قرر أدراست أن يعبر عن عدم موافقته؛ فماذا فعل بولينيس؟ كان قد أخذ معه، وهو يترك طيبة، بعضَ الهدايا التي قدمتها الآلهة إلى هارموني في عرسها هي وقدموس، وهي عِقد وثوب. انطلق مع هاتين التميمتين وقدمهما إلى إيريفيل Ériphile زوجةِ

أمفاريوس بشرط أن تحصل من زوجها على وعد بالتخلي عن معارضته غزو طيبة، وأن يدفع أدراست إلى فعلٍ ما امتنع عنه إلى الآن. هدايا مفسدة، سيئة الطالع ترتبط أيضاً بالتزام وقَسَم، لماذا يستسلم العراف إلى زوجته؟ لأنه أقسم قسماً لا يستطيع الحنث به لَيقبلنَّ دائماً إنجاز ما تطلبه منه إيريفيل. إنها هدايا شريرة وأيمان ذات طابع قَدَري. إن ما كان في عرس قدموس وهارموني سيوجد ثانية وسْطَ السلالة، ويبلغ حد أن يقتل الأخوان أحدُهما الآخرَ في النهاية.

مستأمِن رسمي:

أمّا أوديب فقد طُرد من طيبة، وينهي حياته، تقوده ابنته أنتيغون، على أرض أثينا قرب كولون Colone أحدِ أعمال اليونان. إنه على أرضٍ ما كان عليه أن يطأها هي معبد للإيرينات رباتِ الانتقام، ممنوع من الإقامة فيه. أناسُ المكان ينذرونه بالانصراف: ماذا يفعل هذا المتسول في هذا المكان المقدس؟ وهو أيضاً قد طُرد إلى هناك مثل ديونيزوس الذي وصل إلى طيبة في ثيابه الأنثوية. أيُّ جرأة في المطالبة بالإقامة في مكان لا يمكن حتى طردُه منه لأنه ليس له الحق في أن يطأه. يصل تيزيه Thésée، يروي له أوديب تعاسته، ويشعر بقرب نهايته. يتعهد إن استقبله تيزيه بأن يكون حامياً لأثينا في خصوماتها التي يمكن أن تحدث بغتة. يقبل تيزيه. هذا الرجلُ، الرجلُ الطيبي الذي له نصيبه من ميراث المبذورين المولودين من الأرض الطيبية ولكنه أيضاً سليل قدموس وهارموني، غريبٌ إذن. مطروداً من الأرض التي ولد فيها، عاد إليها ليُطردمن جديد على نحوٍ مخزٍ. وهاهو في نهاية تيهه دون مكان ودون ارتباط ودون جذر، إنه مهاجر. يستقبله تيزيه ضيفاً فلا يجعل منه مواطناً أثينياً بل يمنحه وضع المستأمن ذي الامتيازات. سيسكن هذه الأرض التي ليست له ويستقر فيها. يقوم أوديب إذن بعبور من هذه «الطيبة» الإلهية والملعونة، من هذه الطيبة الموحَّدة والممزَّقة، إلى أثينا، وهو مرور أفقي على سطح الأرض.

يغدو أوديب إذن مستأمناً رسمياً بأثينا. إنه ليس العبور الوحيد الذي يحققه، سيصبح أيضاً «تحت ـ أرضي» ـ سيُبتلع في أعماق الأرض ـ وسماوياً يمضي نحو الآلهة الأولمبية. إنه يعبر من سطح الأرض إلى ما هو تحت الأرض وكذلك إلى ما هو في السماء. ليس له وضع نصفِ إلهٍ تماماً، وضعُ حامٍ ـ قبر البطل يقع فوق الآغورا، الساحةِ العامةِ في المدينة الإغريقية ـ يختفي في مكانٍ سري يعرفه تيزيه وحده ويبلغه إلى كل من سيمارس السلطة في أثينا، قبرٍ سري يمثل للمدينة ضمانَ نجاحها الحربي

وديمومتها. هاهو إذن غريب آتٍ من طيبة يقيم بصفةِ مستأمنٍ في أثينا ويختفي تحت الأرض، ربما بصعقة من زيوس. لا يتحول إلى مواطن أصلي، لقد ولد من الأرض كما يزعم مواطنو أثينا، وليس له حُظوة كمولود من الأرض انبثق من تحتها مدجَّجاً بالسلاح جاهزاً للمعركة.

لا، إنه يحقق العبور بالاتجاه المعاكس، يترك ضوء الشمس آتياً كغريب ليتجذر في العالم تحت الأرضي، في هذا المكان من أثينا الذي ليس له، والذي يحمل إليه أمان الخلاص في السلام والوفاق مقابل الضيافة التي تُمنح له بسبب آلامه وذراريه: إنه صدى موهَنٌ لهذا الوعد الذي كانت تمثله هارموني عندما قدمتها الآلهة زوجةً إلى قدموس في الأزمنة الغابرة التي تأسست فيها طيبة.

بيرسيه والموت والصورة

ولادة بيرسيه: Persée

قبل زمن طويل جداً كان على عرش أرغوس المدينةِ الطيبة الجميلة ملكٌ جبار يسمى أكريزيوس Acrisios. كان هو وأخوه التوأم برواتوس Proitos يتشاجران حتى قبل ولادتهما في بطن أمهما أغلايا Aglaa، يتضاربان ويشتبكان في نزاع سيستمر طوال حياتهما. وكان عليهما أن يتنازعا السلطة وجهاً لوجه في هذا الوادي الغني، وادي أرغوليد Argolide.

وأخيراً حكم أحدهما وهو أكريزيوس مدينة أرغوس، وحكم الآخر، وهو برواتوس مدينة تيرانث Tirynthe. أكريزيوس إذن ملك أرغوس. يتحسر أكريزيوس على أنْ ليس له ولد ذكر، ويمضي طبقاً للعادة ليستشير في دلفي إن كان سيُرزق بوريث، وعند الاقتضاء ماذا يفعل ليكون له هذا الوريث. وتبعاً للقاعدة المعتادة لايجيب الوحي على سؤاله ولكنه ينبئه أن حفيدَه، ابنَ ابنته سيقتله.

تسمى ابنته دانائيه Danaé وهي فتاة جد جميلة يحبها أكريزيوس حقاً، غير أن الرعب يتملكه حين يفكر في أن حفيده منذور لقتله. ماذا يستطيع أن يفعل؟ يفكر أن الحل هو في حبسها. والواقع أن مصير دانائيه سيكون كذلك. يأمر أكريزيوس أن يُبنى، ربما في ساحة قصره، سجنٌ تحتُ ـ أرضي من البرونز يأمر دانائيه أن تنـزل إليه مع امرأة خصصتها لخدمتها. ثم يغلق عليهما كليهما بإحكام. على أن زيوس لمح من أعالي السماء دانائيه في زهرة عمرها وجمالها فوقع صريع حبها، ونحن لا نزال في عصر كان يتقاسم فيه الآلهة والناس حياتهم. حتى لو انفصلوا، لم تكن المسافة بعدُ كبيرةً إلى حدٍ يمنع الآلهةَ أن تلقي من وقت لآخر، ومن أعلى الأولمب، وعبر الأثير الصافي، نظرةً على الفانيات الجميلات. يرون بنات باندورا التي نفوها إلى عالم الرجال والتي لم يحترس منها إيبيثيميوس ففتح لها بابه. يجدهن الآلهة جميلات؛ دون أن يعني هذا أن الآلهة لسن كذلك، ولكن ربما يجد الآلهة عند بعض هؤلاء النسوة الفانيات شيئاً

لاتمتلكه الإلهات، ربما يجدون فيها هشاشة الجمال أو عدم الخلود، فيرون أنه يجب قطفهن وهن مايزلن في عنفوان شبابهن وسحرهن.

يقع زيوس صريع حب دانائيه، ويتسم لرؤيتها مسجونة من قبل أبيها في هذا السجن تحت الأرضي المصنوع من البرونز. ينـزل إلى الأرض على هيئة مطر ذهبي، وينسلّ إلى جانبها؛ إلا أنه عندما وصل إليها أخفى في السجن شخصيته الإلهية في مظهر إنساني. يضاجع دانائيه في سرية عظمى. تنتظر دانائيه طفلاً ذكراً سيحمل اسم بيرسيه. تبقى هذه المغامرة خَفيّةً حتى اللحظة التي يطلق فيها بيرسيه الوليدُ العنيف صرخاتٍ حادة حتى إن أكريزيوس، وهو يمر يوماً في الفناء، يسمع ضجيجاً غريباً من السجن الذي حبس فيه ابنته. يطلب الملك رؤيتها، يسأل كلَّ الناس عن مصدر هذه الضجة، يسأل المرضعةَ فيعلم أن هناك طفلاً صغيراً. يتملكه الرعب والغضب معاً وهو يتذكر نبوءة دلفي، ويخطر له أن الخادمة أدخلت أحدهم خلسة إلى دانائيه. يسأل ابنته: من أبو هذا الطفل؟ هو زيوس. لا يصدِّق أكريزيوس كلمة مما تقوله. يبدأ بقتل الخادمة التي أصبحت مرضعة، يضحي بها على مذبحه الأسري المخصص لزيوس. ولكن ما العمل بدانائيه والطفل؟ لا يستطيع الأب أن يلوث يديه بدم ابنته وحفيده، فيقرر من جديد حبسهما.

يرسل نجاراً حاذقاً جداً يبني صندوقاً من الخشب يوضع فيه الاثنان، دانائيه وبيرسيه، ويوكل بالآلهة مهمة العناية بتسوية هذه المسألة. يتخلص منهما، لا بحبسهما في قبو منـزله، بل بفتح الفضاء البحري على اتساعه أمام تِيهِ ابنته وحفيده المحصورين في هذا المخبأ. يعوم الصندوق على البحر حتى سواحل جزيرة صغيرة ليست غنية جداً تسمى سيريفوس Sériphos. يسحب صياد، إنما من سلالة ملكية، هو ديكتيس Dictys، الصندوق ويفتحه فيلحظ دانائيه وابنها. يغريه هو الآخر جمال دانائيه فيصحبها هي وطفلها إلى منـزله، ويستقبلهما كما لو أنهما عضوان في أسرته. يُبقي على دانائيه في رفقته، ويربي بيرسيه كابن له. ولديكتيس أخ يسمى بوليديكتيس Polydclés يحكم سيريفوس. يكبر بيرسيه في حماية ديكتيس، ولكن جمال دانائيه يسبب أفدح الأضرار؛ فالملك بوليديكتيس الذي رآها يهيم بدوره في حبها. يرغب أن يتزوجها بأي ثمن، أو على الأقل أن يتخذها عشيقة، غير أن الأمر ليس سهلاً لأن بيرسيه يكاد يكتمل رجولة ويسهر على أمه، وديكتيس أيضاً يحميها. يتساءل بوليديكتيس كيف سيتصرف، فيجد الطريقة التالية: يولم مأدبة عظيمة يدعو إليها كل شبان المنطقة، وكلٌّ يأتي حاملاً هدية أو إسهاماً في الوجبة.

الرحلة إلى موطن الغورغونات Gorgones:

الملك بوليديكتيس هو الذي يتصدر المائدة، وقد اتخذ ذريعةً لهذه المأدبة نيّتَه المزعومة في الزواج من هيبودامي Hippodamie. ولأجل الزواج من هيبودامي يجب أن يقدم إلى أولياء المرأة الشابة هدايا فاخرة وأشياء ثمينة. كل شباب سيريفوس هناك وبينهم بيرسيه طبعاً. يُبرز كلٌّ كرمَه ونبله خلال الوجبة فيطلب الملك أن يحملوا إليه على نحو خاص الخيولَ لأن هيبودامي شابة مغرمة بالفروسية، وإن قُدِّم إليها مِلءُ إسطبل من الخيول أمكن الوصول إلى قلبها. كيف سيتصرف بيرسيه ليثير مشاعرها ومشاعر أقرانه والملك؟ يصرح أنه لن يحضر فرساً أصيلة فحسب، بل كل ما يرضي الملك، وعلى سبيل المثال رأس الغورغونة. يطلق هذا الكلام دون أن يمعن التفكير فيما يعنيه. وفي الغد يجلب الجميع إلى الملك الهدايا الموعودة. يأتي بيرسيه بيدين خاويتين ويعلن أنه مستعد أن يُحضر هو أيضاً فرساً أصيلة، لكن الملك يقول له «لا، أنت ستأتيني برأس الغورغونة». لم تبق طريقة لتصرُّف آخر: إن تراجع عن عهده فقدَ ماء وجهه؛ فلا مجال للنكث بوعده، بل بتبجحاته. هاهو بيرسيه إذن مجبراً على جلب رأس الغورغونة، ولا ننسَ أنه ابن زيوس ليعطفَ عليه عدد من الآلهة ويدعموه، وخصوصاً أثينا وهرمسَ الإلهين الذكيين الحاذقين اللذين يجيدان التصرف، وسيحرصان على وفائه بوعده. إذن سيؤازرانه في المغامرة التي يجب أن تنجز، فيضعانه في صورة الموقف: للتمكن من الوصول إلى الغورغونات يجب أولاً معرفة مكانها؛ إذ أنه لا يُعرف أين تقطن.

والغورغونات ثلاثة أمساخ مريعة، ثلاث أخوات يؤلِّفن ثالوثاً من الكائنات المسخية الفتاكة. بينهن اثنتان خالدتان، وواحدة فانية تسمى ميدوز، ورأس ميدوز هذه هي التي يجب أن تجلب.

المسألة إذن هي بلوغ الغورغونات ومعرفة أيِّهن هي ميدوز، ومن ثم قطْعُ رأسها. وليس هذا الأمر سهلاً؛ يجب أولاً معرفة أين يُبحث عنها. ولهذا على بيرسيه أن يجتاز سلسلة من المراحل والمحن بمساعدة آلهة تحميه. والمحنة الأولى هي اكتشاف ثالوث من أخوات الغورغونات وبلوغهن، يسمين الغيلان الثلاث Les Grées اللواتي مثلُ سابقاتهن بناتُ مسخينِ خطيرين جداً هما فوركيس Phorkys وسيتو Céto، وهما مسخان بحريان ضخمان كالحيتان. والغيلان لا يقطنّ مكاناً بعيداً بُعْدَ مسكنِ الغورغونات اللاتي يُقمن وراء المحيط، خارج حدود العالم، على أبواب ليل؛ في حين أن الغيلان يسكنّ في العالم. تؤلف الغيلان ثلاثية كالغورغونات، فهن ثلاث شابات

وُلدن عجوزات. وهن شابات سلفيات، شابات عجوزات مجعداتٍ الوجوه كلية، بشرتهن صفراء كالحليب عندما يُترك ويتخثر سطحه ويُرى فجأة تشكّل نوع من الجلد هو السطح المجعد للحليب. ويكسو أجسامَ هذه الإلهات الشابات جلدٌ مسخي هرم وذابل مغضّن تماماً بدلاً من الأدمة البيضاء. ولهن أيضاً خاصية أخرى؛ فهن يؤلفن ثلاثية متصلة بحيث إن لهن عيناً وحيدة وسنّاً وحيدة كما لو كنّ كائناً واحداً هو هو نفسه.

عين وحيدة وسنّ وحيدة: يمكن للمرء أن يقول لنفسه: ليس كثيراً وصفُهنّ بأنهن مظلومات؛ غير أن هذا ليس صحيحا تماماً لأنهن، لما لم يكن لديهن إلا عين وحيدة، فإنهن يتبادلنها دون انقطاع بحيث تبقى العين مفتوحة دائماً في وضعية الرصد دون توقُّف. وليس لهن إلا سنٌّ واحدة؛ غير أن هؤلاء الشابات العجوزات لسن دُرْداً تماماً لأنهن، بهذه السن التي تدول كذلك بينهن، يستطعن التهام كل أنواع الأشخاص بدءاً ببيرسيه.

إذن، وإلى حد ما كلعبة التمرير التي كنت ألعبها طفلاً، على بيرسيه أن تكون عينه أحدَّمن عين هؤلاء الشابات العجوزات اللاتي لا يملكن حقاً إلا عيناً واحدة إلا أنها تكاد لا تكف عن اليقظة. عليه أن يجد اللحظة التي لا تخص فيها العين إحداهن؛ إنهن يتبادلن العين حتى تبقى يقظة باستمرار، وبين اللحظة التي تمرّر فيها إحداهن العين إلى الأخرى واللحظةِ التي تلتقطها فيها الأخرى فاصلٌ قصير من الزمن، ثغرةٌ قصيرة في الاستمرار الزمني يجب على بيرسيه أن يستطيع وُلوجَها كالسهم ويختطفها. في لعبة التمرير هناك خيط يدور عليه خاتم، وعلى اللاعبين أن يغطوا الخيط بأيديهم، وكل لاعب يمرّر هذا الخاتم من يده إلى يد جاره مخفياً إياه. وعلى من يقف وسط الحلقة أن يحزر أين الخاتم؛ فإن حزر ربح، وإن جسّ يداً فارغة خسر وعوقب.

لا يضل بيرسيه. يرى اللحظة التي تكون فيها العين في الإمكان ويمسكها، ويستولي أيضاً على السن. تصبح الغيلان في وضعٍ مخيف يُعوِلن من الغضب والألم. يجدن أنفسهن عمياوات درداوات. لم يعدن شيئاً وهن اللواتي كنّ خالدات. إنهن مستعدات رغماً عنهن للتوسل إلى بيرسيه ليعيد إليهن هذه العين وهذه السن مقابل أن يقدمن له كل ما يطلب. مطلب بيرسيه الوحيد هو أن يرشدنه إلى المكان الذي تقيم فيه الشابات الحوريات Numphai وطريقِ الوصول إليهن.

تعني كلمة Nymphe في اليونانية الوقت الذي تبلغ فيه الفتاة سنَّ الزواج بالضبط، الخروجِ من الطفولة. إنها جاهزة للزواج، صالحة له، دون أن تصبح بعدُ

امرأة مكتملة. وهؤلاء الحوريات ثلاث أيضاً. وخلافاً للغريات التي تدلك على مكانها وتلتهمك بعينها وسنها الوحيدة فالحوريات سهلات البلوغ مضيافات. وما إن يخبرهن بيرسيه بما يريده حتى يلبين طلبه. يحددن له المكان الذي تختفي فيه الغورغونات، ويهدينه أشياء سحرية تسمح له أن يحققَ المستحيل ويجابهَ عين ميدوز ويقتلَ الفانية الوحيدة بين الغورغونات الثلاث: صندلاً مجنَّحاً هو نفس صندل هرمس، يتيح لمن يرتديه، لا أن يتقدم خطوة بعد خطوة على الطريقة المبتذلة على الأرض، بل بالطيران بأقصى سرعة كما تطير الفكرة، كعُقاب زيوس، وأن يخترق الفضاء من الجنوب إلى الشمال دون أدنى جهد، والأهم من كل هذا هو السرعة القصوى. ثم يقدمن له قبعة هاديس، وهي نوع من غطاء الرأس، مصنوعة من جلد كلب تغطي رؤوس الأموات أيضاً. والواقع أن الأموات يغدون دون وجوه، لا مرئيين، بفضل قبعة هاديس على رؤوسهم. تمثل هذه القبعة حال الموتى لكنها تسمح كذلك للحي إن لبسها أن يصبح غير مرئي كشبح، يستطيع أن يَرى دون أن يُرى. يُضفن إلى السرعة العظيمة والاستعصاء على الرؤية هدية ثالثة هي خُرْجٌ، كيسٌ يضع فيه الصيادون طرائدهم فور قتْلِها. وسيضع بيرسيه في هذا الخرج رأس ميدوز لتبقى عيناها محجوبتين كالأجفان التي تنغلق على العيون القاتلة للغورغونات. يضيف هرمس إلى كل هذا هدية شخصية هي المقضبُ Serpe، هذا المنجلُ المقوَّس الذي يقطع كل شيء يعترضه مهما كانت صلابته، وهو المقضب الذي كان كرونوس بتر به عضو أبيه أورانوس. ها هو إذن بيرسيه مجهَّزاً من الرأس إلى القدمين: في رجليه الصندل، وعلى رأسه طاقية الإخفاء، وعلى ظهره الكيس، والمقضب في يده. وهاهو يطير نحو الغورغونات الثلاث.

منٍ هنّ الغورغونات؟ إنهن كائنات تتضمَّنُ طبيعتُهن ملامحَ متناقضة تناقضاً كاملاً؛ فهي كائنات مسخية، والمسخ تمثيل ملامح متناقضة فيما بينها كلية: هن خالدات جزئياً، اثنتان كذلك، والثالثة فانية. هن نساء ولكن رؤوسهن تقشعر كأفاعٍ مرعبةٍ مصوباتٍ نظراتٍ وحشيةً. ويحملن على الأكتاف أجنحة واسعة من الذهب تسمح لهن بالطيران كالطيور. وأيديهن من البرونز. ونعرف كذلك الرأس على نحو أوضح؛ فهو رأس غريب من نوعه: رأس مذكر ومؤنث معاً، رأس مرعب مع أنها تُذكر في الحديث أحياناً باسم الحسناء ميدوز أو الغورغونات الحسناوات. ويظهرن في الصور التي تمثلهن ذوات لحىً. غير أن هذه الرؤوس الملتحية ليست رؤوساً إنسانية تماماً لأن لهن أسناناً بهيمية، منها اثنتان دفاعيتان كأسنان الخنزير البري تنبثقان من الفم المفتوح

على تكشيرة. واللسان يندلق إلى الخارج، ومن هذا الفم الملوي يصدر نوع من الزعيق المخيف كصوت البرونز يجمّدك رعباً.

فيهن شيء له وضع خاص وهو العيون: إن عيونهن مصممة بطريقة تجعل كل من يتبادل النظر معهن يتحول للتو إلى حجر؛ كلّ ما صُنِع منه الكائن الحي من حركةٍ وليونةٍ وحرارةٍ وعذوبةِ جسم يصبح حجراً. وليس الموت ما يجابه من ينظر إليهن بل التحولُ الذي ينقله من مملكةِ الإنسان إلى عالم المعدن، أي ما ليس أكثر منه مناقضة للطبيعة البشرية، ولا يمكن الهروب منه. تكمن صعوبة مهمة بيرسيه إذن، من جهة، في تحديد رأس مَن منهن يستطيع قطعه، ومن جهة أخرى، في تفادي تقاطُع بصره في أي لحظة مع بصر إحداهن. عليه تحديداً قطْعُ رأس ميدوز دون مجابهتها ألبتة في مجال إبصارها. وفي قضية بيرسيه تؤدي النظرة دوراً عظيماً؛ ففي حالة الغيلان كان عليه أن يلقي نظرة أسرع من نظرة الأمساخ، ولكن عندما ينظر إلى غورغونة، عندما تتقاطع النظرة مع نظرة ميدوز، فإن ما ينعكس على عيون المسخ، سواء كانت النظرة سريعة أم بطيئة، هو الذات وقد أصبحت وجهاً لهاديس، صورةً عمياء للموت دون نظر.

لم يكن لبيرسيه أن ينجو قط من هذا لو لم تغدقْ عليه أثينا نصائحها وتعطِه دعماً جدياً، قالت له: يجب الوصولُ إليهن من علٍ، واختيارُ اللحظةِ التي تستريح فيها الغورغونتان الخالدتان، اللحظةِ التي تغمضان فيها العينين. أما ميدوز فيجب أن يَقطع رأسها دون الوقوع تحت نظرتها، ولهذا يجب لحظةَ استعمال المقضب أن يدير رأسه إلى الجانب الآخر. ولكن إذا فعل هذا فكيف يعرف طريقة قطع رأسها؟ فبدون أن ينظر لا يعرف أين هي الرأس، ويجازف بقطع ذراع أو عضو آخر من جسد ميدوز. يجب إذن في وقت واحد، كما فعل مع الغيلان، أن يعرف بالضبط أين تسدَّد الضربة، وأن يضمن رؤية محدّدة ودقيقة معصومة عن الخطأ، وفي نفس الوقت ألاترى عينُ بيرسيه، وهي تنظر إلى الهدف المنشود، العينَ القاتلة التي ترتسم في الهدف.

إنه موقف في غاية التناقض: حَلّت المسألةَ أثينا التي تجد طريقةً هي وضعُ درعه المصقولة الجميلة في مواجهة الغورغونة بحيث يرى بيرسيه بوضوح كاف انعكاسَ صورتها على الدرع لينجح في تسديدِ ضربته وقطع عنقها كما لو كان يراها هي نفسَها. وهكذا يقطع الرأسَ ويضعه في الكيس ويغلَق عليه. وها هو بيرسيه ينطلق.

تستيقظ الغورغونتان الأخريان على صراخ ميدوز، فتندفعان خلف بيرسيه مع صرخاتهما الثاقبة المريعة التي تميّز الغورغونات. يستطيع بيرسيه مثلهنّ أن يطير ولكنه يتفوق عليهنّ في انه لا مرئي. تحاولان الإمساك به، يهرب منهما، إنهما هائجتان.

جمال أندروميد:

يصل بيرسيه طائراً فوق الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، إلى أثيوبيا. وفيما هو يطير في الفضاء يلمح شابة جميلة جداً مسمّرةً إلى صخرة ببراشيمَ، تغمر الأمواج قدميها. يحرك هذ المنظر مشاعره. هذه الصبية التي تسمى أندروميد Andromide كان أبوها سيفيه Céphée قد وضعها في هذه الوضعية الحزينة؛ فقد عرفت مملكة سيفيه مصائب عظيمة، وأُعلم الملكُ وشعبه أن الطريقة الوحيدة لمنع المصيبة هي تسليم أندروميد إلى مسخ بحري، إلى أحد المرتبطين بالبحر، إلى هذا الموج الذي يمكن أن يغمر البلاد، وأن تُعرض الفتاة هناك ليأتي الموج ويأخذها ويفعل بها ما يشاء: التهامَها أو مضاجعتها.

تتأوَّه المسكينة، تَصعَد شكواها إلى بيرسيه الذي يدور في الأجواء. يسمعها، يراها، يغري جمالـُها قلبَه. يذهب ليجد سيفيه الذي يشرح له ما جرى. يعِدُ بيرسيه بأن يحرر الفتاة إن زوّجت منه. يقبل الأب ظناً منه أن الشاب لن يستطيع على كل حال أن يفعل هذا. يعود بيرسيه إلى المكان الذي قُيّدت فيه أندروميد وسْط الأمواج واقفةً على صخرة صغيرة. يتقدم المسخ إليها عظيماً مخيفاً لا يُقهَر ظاهراً. ماذا يمكن لبيرسيه أن يفعل؟ فم المسخ مفتوح، وذنبه يخبط الموج. يهدد المسخ أندروميد الجميلة. يتوضع بيرسيه في الأجواء بين الشمس والبحر بحيث ينعكس ظله على المياه تماماً أمام عين الحيوان. الظلّ على مرآة المياه كما كان على درع أثينا انعكاساً لميدوز. لم ينس بيرسيه الدرس الذي تلقّاه من الآلهة. يتصور الوحشُ، وقد رأى هذ الظل يتحرك أمامه، أن هذا هو الكائن الذي يهدده بالهلاك؛ فيسرع إلى الانعكاس، وفي هذه اللحظة ينقض عليه بيرسيه من أعالي السماء ويقتله.

يقتل بيرسيه المسخ ثم يحرر أندروميد. يقيم معها على شاطئ البحر، وربما يرتكب هناك خطأ ما. ترتبك أندروميد وتحاول مضطربة أن تستعيد شيئاً من الحياة والأمل على الشاطئ وسط الصخور. ولإراحتها، وليكون حراً أكثر في تحركاته، يضع بيرسيه رأس ميدوز على الرمل بحيث تتجاوز عينا المسخ الكيس قليلاً؛ فتمتد نظرة ميدوز على مستوى المياه: تتحجر الطحالب التي كانت تتموج ناعمة متحركة حية وتتحول إلى مرجان بلون الدم؛ وهذا هو السبب إذن في أن في البحر طحالب ممعدنة: فقد حولتها نظرة ميدوز إلى حجر وسط الأمواج.

ثم يصحب بيرسيه أندروميد معه. يأخذ ثانية كيسه المغلق ويصل إلى سيريفوس

حيث تنتظره أمه. ديكتيس أيضاً ينتظره. لجأ كلاهما إلى معبد هرباً من بوليديكتيس. يقرر بيرسيه حينئذ أن ينتقم من الملك الشرير. يعلمه أنه رجع حاملاً الهدية الموعودة. وسيضعها له في أثناء مأدبة عظيمة. كل شباب سيريفوس وكل رجالها مجتمعون في الصالة منهمكون في الشرب والأكل: يصل بيرسيه، يفتح الباب، يحييه الحضور، يدخل، يتساءل بوليديكتيس عما سيجري.

يبقى بيرسيه واقفاً في حين أن كل المدعوين جالسون أو مستلقون. يأخذ الكيس، يخُرج رأسَ ميدوز ويلوّح به بذراعه مديراً نظره إلى الجانب الآخر نحو الباب. يتجمد كل الجالسين إلى المائدة في أماكنهم، كلٌّ في المكان الذي يشغله، بعضهم في غمرةالشراب، وبعضهم يتكلم.أفواههم مفتوحة، وعيونهم تنتظر وصول بيرسيه، بوليديكتيس في وضعية الذهول. وهكذا تحول كل المشاركين في المأدبة إلى ألواح وتماثيل، أصبحوا صوراً صماء عمياء. يضع بيرسيه آنئذ الرأسَ ذا العين المحجّرة في كيسه. وفي تلك اللحظة يمكن القول إنه قد انتهت قصة ميدوز على نحو ما.

يبقى الجد أكريزيوس. يعلم بيرسيه أن أكريزيوس تصرَّف نحوه على هذه الطريقة لأنه كان يظن أن حفيده سيقتله. تخطر له فكرة توافقٍ ممكنٍ مع جده؛ فيذهب مع أندروميد ودانائيه وديكتيس إلى أرغوس حيث أكريزيوس، وقد حُذّر من أن حفيده كبر وأنه أنجز مغامرات وفي طريقه إلى أرغوس. التجأ وقد مات رعباً إلى مدينة مجاورة تجري فيها ألعاب.

عندما يصل بيرسيه إلى أرغوس يُعلمونه أن أكريزيوس قد انطلق إلى مكان آخر ليساهم في الألعاب، وخصوصاً في سباق لرمي القرص. يُدعى الشاب بيرسيه إلى هناك وهو الشاب الجميل المتين البنية وفي ريعان شبابه. يأخذ قرصه ويرميه فيسقط مصادفة على قدم أكريزيوس مسبباً جرحاً قاتلاً. يموت الملك. يتردد بيرسيه في اعتلاء عرش أرغوس الذي يعود إليه إذ لا يبدو له من الرشد أن يخلف ملكاً تسبّب في موته. يجد نوعاً من الوفاق الأسري بإجراء تبادل: لما كان أخو الملك المتوفى برواتوس Proitos يحكم تيرانث، يقترح عليه بيرسيه أن يعتلي عرش أرغوس، ويأخذ هو مكانه في تيرانث.

وسلفاً يعيد أدوات انتصاره على ميدوز إلى الذين أودعوها لديه؛ إلى هرمس يعيد مع المقضب الصندلَ المجنح والكيس، وقبعة هاديس ليعيدها إلى العالم الآخر، إلى مالكيها الشرعيين الحوريات. أما رأس ميدوز فيقدمه هدية إلى أثينا التي تجعل منه الجزء الأساس في عدتها الحربية. منصوباً في حقل المعركة تجمِّد غورغونة الإلهة العدوَّ في

مكانه رعباً وتحوله إلى شبح، إلى طيف مزدوج، إلى صنم، إلى الظلمات، في الهاديس.

سيترك البطل الذي جعلته مغامرته زمناً طويلاً «ملك الموت»، سيترك الحياة بدوره، كما هو شأن الجميع وقد رجع إلى مجرد فانٍ ولكن، تمجيداً للشاب الذي تجرأ على مجابهة الغورغونة ذاتِ النظرة المحجّرة، سينقله زيوس إلى السماء حيث يثبته على شكل كوكبة من النجوم في المجموعة التي ستحمل اسمه، والتي ترسم صورته على القبة الليلية المظلمة في نقاط مضيئة يراها الجميع، وإلى الأبد.

أسماء الأعلام

* أتاماس Athamas: ملكٌ بَليد. يتزوج زواجه الثاني من إينـو Ino ابنةِ قدموس.
* أثير Aithér: أو Éther. ابنة ليل Nuit. يشخص النور السماوي النقي والثابت.
* أثينا Athéna: ابنة زيوس وميتيس Métis. تخرج مدججة بالسلاح منذ ولادتها من جمجمة زيوس. إلهة الحرب والذكاء. وهي في تنافس مع هيرا Héra وأفروديت Aphrodite لدى الاحتكام إلى باريس.
* أجينور Agénor: ملك صور Tyr أو صيدا Sidon، أبو أوربا Europe.
* أخيل Achille: ابن تيثيس Thétis وبيليه Pélée. أعظمُ أبطال حرب طروادة. يؤْثر المجد الذي لا يفنى بالموت في ريعان الشباب على حياة طويلة مريحة لكنها مظلمة.
* أدراست Adraste: ملك أرغوس Argos وحمو بولينيس Polynice أحدِ أبناء أوديب Odipe الذي طرده من طيبة Thébes أخوه.يقود غزوة تسمى «السبعة» ضد طيبة.
* أرتيميس Artémis: ابنة زيوس Zeus وليتو Léto وأخت أبولون Apollon. إلهة صيّادة تقاتل مع الأولمبيين ضد التيتان.
* أرجيس Argés: أحد السيكلوبات الثلاثة. ابن أورانوس وجيّا Gaïa.
* أرغوس Argos: اسم أطلق على كلب أوليس Ulysse ربما ذكرى للبطل أرغوس Argos. لم يكن يغيب شيء عن ناظره وكان يراقب الجميع.
* أريس Arés: إله الحرب والعراك القاتل.
* أطلس Atlas: ابن جابيت Japet أخ بروميثيوس Prométhée. حكم عليه زيوس بأن يسند بظهره قبة السماء.
* أغا ممنون Agamemnon: ملك أرغوس.كان على رأس الإغريق طيلة حرب طروادة. قتلته لدى عودته زوجته كليتمينستر Clytemnestre.
* أغافيه Agavé: ابنة قدموس Kadmos وأم بانتيه Panthée.

* أغلايا Aglaia: إحدى الشاريت Charites (وهن في الميثولوجيا الإغريقية اسم لثلاث إلهات للفضل، بنات زيوس، يسهرن على تجديد النبات كل سنة، ويرمزن إلى الفرح في العالم: المترجم).

* أفروديت Aphrodite: إلهة الحب والإغراء والجمال، ولدت من زَبَدِ البحر ومن مَني أورانوس Ouranos المخصي. تتلقى من باريس الجائزة التي كرستها كأجمل الإلهات.

* أكريزيروس Acrisios: أب دانائيه Danaé، ملك أرغوس Argos، سيقتله حفيده بيرسيه Persée أثناء عودة البطل المنتصر على ميدوز Méduse.

* ألسينوس Alcinoos: ملك الفياسيين Phéaciens وزوج آريتيه Arété وأب نوسيكا Nausicaa. يقدم إلى أوليس Ulysse الضيافة ويقوده ثانيةً إلى إيتاك Ithaque بإحدى سفنه.

* ألكسندر Alexandre: اسم آخر لباريس Pâris ابنِ بريام Priam وفاتنِ إيلين Hlne.

* أمفياراوس Amphiaraos: عرّاف أرغوس.زوج إيريفيل Ériphile. يدخل في هجوم غزوة السبعة ضد طيبة حيث سيموت هناك.

* أمفيتريت Amphitrite: إحدى النيريدات، زوجة بوزيدون Poséidon.

* أمفيون Amphion: ابن زيوس Zeus وأنتيوبه Antiope وأخ لزيتوس Zéthos. يقتل ليكوس Lycos الذي يتبوأ عرش طيبة ويأخذ مكانه مع أخيه.

* أنتيغون Antigone: ابنة أوديب. تصاحب أباها المنفي والأعمى.

* أنتينوس Antinoss: أحد طالبي الزواج من بينيلوب Pénélope.

* أندروميد Androméde: ابنة سيفيه Céphée ملكِ الأثيوبيين الذي يقدمها إلى مسخ بحري لتهدئة غضب بوزيدون، مقيدةً إلى صخرة، وينقذها بيرسيه persée.

* أنشيز Anchise: طروادي يجامع أفروديت Aphrodite على جبل إيدا، أب إينيه Enée.

* أوتريس Othrys: جبل انسحب إليه التيتانات ليجابهوا الأولمبيين.

* أوتوليكوس Autolycos: ابن هرمس Hermés، كذاب وسارق، وجدّ أوليس.

* أوتونوئيه Autonoé: إحدى بنات قدموس Cadmos، زوجة أريستيه Aristée وأم أكيتيون Actéon الذي ستمزقه كلابه.

* أودايوس Oudaios: أحد الإسبارطيين الخمسة.

* أوديب Œdipe: ابن لايوس وجاكوست، تخلى عنه أهله منذ ولادته بسبب وحْيٍ يؤكد أنه سيقتل أباه ويضاجع أمه، وهو ما يفعله دون إرادته ودون معرفته.

* أوروبا Europe: ابنة آجينور ملك صور أو صيدا S idon. خطفها زيوس الذي حوّل نفسه إلى ثور وحملها إلى كريت.

* أوريكليه Euryclée: مرضعة أوليس. من أوائل الذين تعرفوا الندبة التي كان يحملها في قدمه وهي تغسل له قدميه.

* أوريلوك Euryloque: رفيق أوليس ونسيبه. مسارّاته ونصائحه ليست حسنة.

* أوقيانوس Okéanos: المحيط. أحد التيتانات، نهر دائري يضم العالم في مجراه.

* أولمب Olympe: جبل يستخدم الآلهة الأولمبيون قمته مقراً لهم.

* أوليس Ulysse: ملك إيتاك.

* أوميه Eumée: راعي خنازير أوليس. يبقى مخلصاً له.

* إبيميثيوس Épiméthée: أخ لبروميثيوس ونقيضه. بدلاً من أن يعرف مسبقاً لا يعرف إلا متأخراً جداً. بعد فوات الأوان يستقبل باندورا Pandora عنده ويتزوج منها.

* إيتيوكل Étocle: ابن أوديب، خصم أخيه بولينيس Polynice ويرفض تقاسم مملكة طيبة معه بعد رحيل أبيهما.

* إيجست Egisthe: ابن تييست Thyeste، عدو الأتريديين Atrides، ينجح في إغراء كليتيمنستر وقتْل أغاممنون بمساعدتها لدى عودة الأخير من طروادة.

* إيجيبان Egipan: يساعد هرمس على استعادة أعصاب زيوس من تيفون.

* إيداس Idas: أخو لانسيه Lyncée، ابن عم الديسكور كاستور وبولكس اللذين حارب ضدهما إيداس ولانسيه. وفي خلال المواجهة يقتل إيداسُ كاستورَ ويجرح بولكسَ. يصعقه زيوس لنجدة ابنه.

* إيدومينيه Idoménée: رئيس السوقة العسكرية الكريتية في حرب طروادة. يظهر بين خُطّاب هيلين.

* إيروس Eros: الحب. ١- إيروس ألوهة بدئية في أصل العالم ٢- إيروس ابن أفروديت يقود التقريب واللقاء الجنسيين.

* إيروس Iros: متسول تجتذبه مائدة القصر الملكي في إيتاك. يعاقبه أوليس عندما يحاول منعه من الوصول إلى القصر.

* إيريبوس Erbos: إيريب Erbe ابن كاوس Chaos يجسّد الظلمات.

* إيريفيل Eriphile: زوجة أمفياراوس يحصل بولينيس على وعد منها بأن تقف إلى جانبه في حرب طروادة حيث يحكم إيتيوكل مقابل أن يقدم لها عقد هارموني Harmonie.

* الإيرينات Erinyes: إلهات منتقمات، سليلات قطرات دم أورانوس التي سقطت على الأرض.

* إيسماروس Ismaros: مدينةُ تراس Thrace في بلاد السيكون Cicones. يستولي عليها أوليس في طريق عودته قبل أن يطرده منها فلاحو الضواحي.

* إيسمين Isméne: ابنة أوديب، أخت أنتيغون.

* إيشيندا Echinda: مسخ بحري، نصف امرأة، نصف حيّة، تجامع تيفون Typhon وتنجب سلسلة من الأمساخ.

* إيشيون Echion: أحد الإسبارطيين الخمسة، زوج أغافيه وأبو بانتيه Penthée.

* إينو Ino: ابنة قدموس وهارموني، وأخت ديونيزوس، وزوجة أتاماس، وتقنعه باستقبال الصغير ديونيزوس. تصيبهم هيرا بالجنون بسبب غيرتها. ترمي إينو بنفسها في الماء وتتحول إلى النيريدية لوكوتيه Leucothée.

* إينيه Enée: ابنِ أنشيز وأفروديت. حارب مع الطرواديين واستطاع عند سقوط المدينة الهرب حاملاً معه أباه العجوز قبل أن يصل إلى إيطاليا الجنوبية.

* إيوس Eôs: هي الفجر Aurore. تحصل هذه الآلهة العاشقة لتيفون، تحصل من زيوس على موافقة بألا يموت عاشقها مطلقاً.

* إيول Éole: سيد الرياح. يوافق على استقبال أوليس، ويعطيه قربة مليئة بكل الرياح ليسمح له بفتح الطريق المستقيم إلى إيتاك Ithaque.

* باريس Pâris: أصغر أولاد بيريام Priam وهيكوب سناً، يسمى أيضاً ألكسندر.تخلى عنه أبواه منذ ولادته. ثم تعرفته أسرته ثانية. يختطف هيلين ويتخذها زوجة.

* باليوس Balios: أحد أحصنة أخيل Achille، خالد ومتكلّم.

* بانPan: إله الرعاة والقطعان، وابن هرمس.
* بانتيه Penthée: حفيد قدموس من جهة أمه أغافيه. وابن إيشيون أحد الإسبارطيين. يعارض ديونيزوس لدى عودة الإله إلى طيبة.
* باندورا Pandora: المرأة الأولى، التي قدمها الأولمبيون إلى إيبيميثيوس الذي يقبل الهدية رغم تحذير أخيه بروميثيوس.
* برواتوس Proitos: أخٌ توأم وخصمٌ لأكريزيوس. يحكم تيرانث.
* بروتيه Proteé: إله بحري وُهِب القدرة على التحول وموهبة النبوءة.
* بروميثيوس Prométhée: ابن جابيت، محسن إلى الناس، في خصام مع زيوس.
* برونتيس Brontés: أحد السيكلوبات الثلاثة، ابن أورانوس وجيا.
* برياريه Briarée: أحد أولي الأذرع المئة، إخوةِ السيكلوبات والتيتانات، أولادِ أورانوس وجيا.
* بريام Priam: ملك طروادة وزوج هيكوب وأبو هيكتور.
* بوريه Borée: ريح الشمال.
* بوزيدون Poséidon: إله أولمبي، أخو زيوس حصل في قسمة السلطة على حكم الأمواج البحرية.
* بولوكس Pollux: أحد الديوسكورَين، أخو كاستور. متخصص في الملاكمة. وُلِدَ خالداً. يقرر أن يتقاسم خلوده مع أخيه.
* بوليب Polybe: ملك كورانث، وأب زائف لأوديب.
* بوليدوروس Polydoros: ابن قدموس وهارموني. زوج نيكتيس ابنة أحد المبذورين، وأبو لابداكوس.
* بوليديكتيس Polydectyés: ملك جزيرة سيريفوس، عاشق دانائيه، يرسل بيرسيه ليجلب له رأس ميدوز.
* بوليفيم Polyphéme: سيكلوب، ابن بوزيدون. خدعه وأعماه أوليس. ينتقم بأن يرمي البطل بلعنة مؤثّـرة.
* بولينيس Polynice: ابن أوديب وأخو إيتيوكل. تقود الخصومةُ بين الأخوين إلى المجابهة وإلى موتهما كليهما.

* بونتوس Pontos: النهر المؤلّـه الذي ولدته جيا.
* بيرسيه Persée: ابن زيوس ودانائيه. تخلى عنه وعن أمه جدُه أكريزيوس. ألقي على شاطئ سيريفوس Sriphos. وسيتوجب عليه أن يحمل إلى ملك هذه الجزيرة رأس ميدوز.
* بيريبويا Periboea: زوجة بوليب Polybe ملكِ كورانث. تستقبل أوديب الذي تخلى عنه أهله مع زوجها كما لو كان ابنهما.
* بيغاز Pégase: حصان إلهي يخرج من العنق المقطوعة لميدوز ويتحرك حتى الأولمب، وينقل صاعقة زيوس.
* بيلوبس Pélops: ابن تانتال Thantale، زوج هيبودامي، وأبو كريسيب الذي ينتحر هرباً من مراودة لايوس له عن نفسه. يطلق بيلوبس لعنة على اللابداسيين.
* بيليروس Peleros: أحد الإسبارطيين.
* بيليروفون Bellrophon: بطل كورنثي، هزم الشيمير Chimére بمساعدة الحصان بيغاز Pgase.
* بيليه Pélée: ملكُ فْتي، يجامع تيثيس،وأبو أخيل.
* بيليون Pélion: جبل تسالي Thessalie حيث أقيم عرس بيليه وتيثيس، وحيث يتولى شيرون تربية أخيل تربية بطوليةً.
* بينيلوب Pénélope: زوجة أوليس وأم تيليماك. تنتظر بإخلاص عودة زوجها رغم إلحاح الخُطّاب.
* بييه Bié: ابنة ستيكس Styx. تشخص القوة العنيفة التي يستخدمها الحاكم.
* تارتار Tharthre: عالم تحت أرضي مظلم سُجن فيه الآلهة المهزومون، والموتى.
* تازوس Thasos: ابن أجينور وأخو قدموس.
* تالوس Thalos: حارس جزيرة كريت. جسمه من المعدن.
* تيتان Titan: ابن أورانوس وجيا. إله من الجيل الأول، في صراع مع الأولمبيين على حكم العالم.
* تيثيس Thétis: إحدى النيريدات، زوجة بيليه وأم أخيل.
* تيتون Tithon: أخو بريام. تحبه إيوس لجماله وتخطفه وتحصل له على الخلود.

* تيريزياس Tirésias: عراف يلهمه أبولون، يواجه أوديب، وهو الوحيد الذي يتعرفه بعد عودة البطل إلى مدينته الأم.

* تيزيه Thésée: بطل أثينا Atthique أمه إيترا Aethra أبوه البشري هو إيجيه، وأبوه الإلهي بوزيدون. ملك أثينا.

* تيستيوس Thestios: والد ليدا.

* تيفون Typhon: أو Thphée تيفيه: مسخ، ابن جيا وتارتار. هو في خصام ضد زيوس الذي ينجح في هزيمته.

* تيليفاسا Télépassa: زوجة أجينور وأم قدموس وإخوته، وكذلك أم أوربا. انطلقت لتبحث عنها مع أولادها.

* تيليماك Télémaque: ابن أوليس وبينيلوب.

* تيندار Tyndare: أبو الديسكور هيلين وكليتمنيستر.

* جابيت Japet: أحد التيتانات، أبو بروميثيوس.

* جاكوست Jacoste: زوجة لايوس وأم أوديب الذي ستضاجعه دون أن تعرف أنه ابنها.

* الجبابرة Géants: سلالة نقاط دم أورانوس التي سقطت على الأرض. شخصيات تجسد الحرب والمعارك.

* جيا Gaïa: الاسم الذي أطلِق على الأرض بوصفها إلهة.

* جييس Gyés: أحد أصحاب الأذرع المئة.

* دانائيه Danaé: ابنة أكريزيوس وأم بيرسيه بعد أن ضاجعها زيوس سراً في الغرفة تحت الأرضية حيث سجنها أبوها.

* ديفوب Déiphobe: ابن بريام وهيكوب Hécube، وأخ هيكتور Hector، يؤدي دوراً في المفاوضات بين الإغريق والطرواديين. قتله مينيلاس Ménélas عند احتلال المدينة.

* ديكتس Dictys: أخو بوليديكتس ملك سيريفوس. يستقبل ويحمي دانائيه وبيرسيه اللذين طردهما أكريزيوس والدُ الأولى وجدُ الثاني.

* الديوسكور Dioscures: كاستور وبولوكس Pollux توأمان من أولاد زيوس وليدا Léda زوجةِ تندار Tyndare. وهما أخوا هيلين Héléne وكليتمنيستر.

* ديونيزوس Dionysos: ابن زيوس وسيميليه Sémélé. يعود إلى طيبة مسقط رأسه لينشر هناك عبادته.
* رادامانت Rhadamante: ابن زيوس وأوربا وأخو مينوس، وحاكم كريت. كُلّف بسبب حكمته بمحاكمة الأموات في الهاديس.
* ريا Rhéa: تيتانةٌ، ابنةُ أورانوس وجيا، وأخت وزوجة كرونوس.
* زيفير Zéphyr: الهواء اللطيف المنتظم.
* زيتوس Zéthos: ابن زيوس وأنتيوبه. يقتل ليكوس مع أخيه أمفيون انتقاماً لأمه التي ذهبت ضحية معاملات سيئة من ليكوس وزوجته. وبعد ذلك يتبوأ عرش طيبة.
* زيوس Zeus: أولمبي، حاكم الآلهة، وقاهر التيتان الأمساخ التي تهدد النظام الكوني الذي تأسس طوال حكمه للكون.
* الساتير Satyres: أنصاف بشر وأنصاف حيوانات. الجزء العلوي جسم إنسان والسفلي حصان أو ماعز، جزء من موكب ديونيزوس.
* ستيروبيس Stéropes: أحد السيكلوبات الثلاثة، ابن أورانوس وجيا.
* ستيكس Styx: الابنة البكر لأوقيانوس. تشخص نهراً جهنمياً ذا قدرة مميتة.
* الاسفنكس Sphynge: مسخ مؤنث، الرأس والصدر امرأة والبقية شبلة مع جناحين، تقتل الذين لا يستطيعون حلّ اللغز الذي يجد أوديب حله.
* السنتورات Centaures: مسوخ برأس وجذع إنسانيين، وبقية أجسامهم حصانية. يعيشون في الغابات والجبال حياة متوحشة، لكنهم يستطيعون أن يتكفلوا بتنشئة الشبان.
* سيتو Céto: مسخ بحري، ابنة بونتوس Pontos وجيا أم الغيلان والغورغونات.
* سيربير Cerbére: كلب الهاديس Hadés. يحرس أبواب مملكة الموتى حتى لا يستطيع أي حيٍّ اختراقها ولا يستطيع أي ميت الهرب منها.
* سيرسيه Circé: ساحرة، ابنة الشمس، تسكن جزيرة آيا Aea. تمسخ رفاق أوليس خنازير. تجامع البطل بعدما هزمها ويعيشان معاً أياماً طويلة.
* سيفيه Céphée: ملك الإثيوبيين، وأب أندروميد.
* السيكلوبات Cyclopes: ثلاثة أولاد لأورانوس وجيا. بعين واحدة تلمع وسط الجبين، وهم برونتيس وستيروبيس Sétropés، وأرجيس.

* السيكون Cicones: شعب تراس Thrace حليف الطروادين. ينـزل أوليس وهو عائد من الحرب عندهم. وينهب مدينتهم إيسماريه Ismarée لكن الإغريق يهربون ويركبون البحر بعدما هوجموا من كل اتجاه.
* سيلا Scylla: مسخ مفترسة وراصدة تفترس ملاحي البواخر التي تمر على مداها.
* سيليكس Cilix: ابن أجينور ملكِ صيدا، وأخ قدموس. ينطلق هو أيضاً بحثاً عن أخته أوربا.
* السيميريون Cimmériens: شعب يعيش قرب أبواب هاديس Hadés في إقليم لا تشرق فيه الشمس.
* سيميليه Sémélé: ابنة قدموس وهارموني، يحبها زيوس ويفنيها ببريق العشق الإلهي وهي تحمل في بطنها ديونيزوس.
* شتونيوس Chtonios: أحد الإسبارطيين الخمسة الذين ينجون من المعركة التي تنشب بين المبذورين بمجرد خروجهم من أرض طيبة التي ولدوا فيها.
* شيرون Chiron: أحد السنتورات، حكيم وخيّر جداً، يعيش على جبل Pélion. مربي الأبطال Héros، وخصوصاً أخيل.
* شيمير Chimére: مزيج من الماعز والأسد والحية. ينفخ اللهب. ابنة تيفون Typhon وإيشيدنا Echidna.
* الغيلان Grées: ثلاث آنسات عجائز يتقاسمن سناً وعيناً وحيدتين. يستولي بيرسيه على هذه السن وهذه العين.
* الغورغونات Gorgones: ثلاثة أمساخ إناث يحملن الموت في عيونهن، واحدة منها فانية وهي ميدوزMéduse التي قطع بيرسيه رأسها.
* فوركيس Phorkyés: ابن جيا وبونتوس. أنجب بمجامعته لسيتو Céto الغيلان الثلاث.
* فونيكس Phéoenix: أحد أبناء أجينور. ينطلق مع إخوته للبحث عن أوربا التي خطفها زيوس.
* الفياسيون Phaciens: شعب من الملاحين، يعبرون أوليس في نهاية مسيره من عالم اللامكان إلى العالم الإنساني بتركه نائماً على شواطئ إيتاك.
* فيلايتيوس Philaetios: راع مكلف بحراسة قطعان أبقار أوليس. بقي مخلصاً

لسيده.

* قدموس Cadmos: ابن أجينور Agénor ملك صيدا. ينطلق بصحبة أمه تيليفاسا بحثاً عن أخته أوربا. زوج هارموني Harmonie، مؤسس طيبة وملكها الأول.
* كاريبد Charybde: مسخ بحري كان يبتلع من صخرته السفنَ التي تمر قربه.
* كاستور Castor: أحد الديسكور ابن زيوس وليدا.وهوفانٍ خلافاً لأخيه بولوكس، فارس خبير في فن الحرب والفروسية.
* كاليدون Calydon: مقاطعة النجم شمال خليج كورانث.
* كاوس Chaos: أو بيانس Béance، عنصر بدائي ولد منه العالم.
* كراتوس Kratos: ابن ستكس. يُشخّص سلطة السيادة التي يمارسها الحاكم.
* كرونوس Cronos: الأخ الأصغر بين التيتان، والحاكم الأول للعالم.
* كريسيب Chrysippe: ابن بيلوبس ملك كورنيثا، انتحر بعدما عابثه رغماً عنه لايوس ضيفُ أبيه.
* كريون Créon: أخ جاكوست، يثبّت مملكة طيبة بعد وفاة لويوس وقبل وصول أوديب.
* كسانتوس Xanthos: حصان أخيل، خالد ويتكلم عند الحاجة.
* كليتمنيستر Clytemnestre: ابنة زيوس وليدا، أخت هيلين، وزوجة أغا ممنون الذي تخونه مع إيجست. وتقتله لدى عودته من طروادة.
* كوتوس Cottos: واحد من الثلاثة ذوي الأذرع المئة.
* كيريس Kéres: بنات الليل، وقدرات الموت والمصيبة.
* اللابداسيون Labdacides: سلالة لابداكوس التي يطلق عليها بيلوبس لعنةً.
* لابداكوس Labdacos: حفيد قدموس، ومن جهة أمه من الإسبارطيين الأصليين، أبو لايوس وجدّ أوديب.
* لانسيه Lyncée: أخو إيداس، مشهور بنظرته الثاقبة. قتله بولكس في معركة أشعلها هو وأخوه ضد ولدي عمهما الديسكور.
* لايوس Laïos: ابن لابداكوس وأبو أوديب. يحكم طيبة التي هو فيها زوج جاكوست.قتله ابنه في لقاء على سفر تقابلا فيه دون أن يعرف أحدهما الآخر.

* لاييرت Laërte: أبو أوليس.
* اللوتوفاج Lotophages: شعب من أكلة اللوتسِ غذاءِ النسيان.
* لوكوتيه Leucothée: اسم يطلق على إينو بعد تحولها إلى إلهة للرفق والإنقاذ من البحر.
* ليدا Léda: ابنة تيستيوس مِلِكِ إيتوليا Etolie، وزوجة تيندار، جامعها زيوس على هيئة تَمٍّ (إوز عراقي).
* الليستريغون Lestrygons: عمالقة من أكلة لحوم البشر.
* ليكورغ Lycurgue: ملك تراس، يتبع الشاب ديونيزوس، ويجبره على أن يلقي نفسه في الماء ليهرب منه.
* ليكوس Lycos: أخو نيكتيه Nykte، وابن الإسبارطي شتونوا.
* ليموس Limos: تشخيص الجوع.
* مارون Maron: كاهن أبولون في إيسماروس، أبقى عليه أوليس عندما خرب المدينة. يقدم للبطل خمراً مدهشةً.
* المواريه Moirai: أو Moires عددهنّ ثلاث، يمثلن المقدور والحظوظ المعطاة لكل أحد.
* ميتس Métis: الزوجة الأولى لزيوس وأم أثينا. تشخّص الذكاء المحتال.
* ميدوز Méduse: هي الفانية بين الغورغونات الثلاث والتي يقطع بيرسيه رأسها.
* ميديه Médée: ابنة آيتيس ملكِ كلوشيد، وحفيدة الشمس وابنة أخت سيرسيه، وساحرة.
* ميكونيه Mékoné: سهل قريب من كورانث خِصبٌ خصباً مدهشاً.
* الميلييه Meliai: أو الميلياد Méliades، يتحدرون من نقاط دم أورانوس التي سقطت على الأرض. حوريات الدردار اللواتي يجسدن الروح الحربية الشرسة.
* مينوس Minos: ملك كريت، وقاض في جهنم.
* مينيلاس Ménélas: أخو أغا ممنون وزوج هيلين.
* ميوز Muses: إلهات مغنيات هن البنات التسع لزيوس ولـ *Mnémosuné* أي الذاكرة.

* نسطور Nestor: أكبر المحاربين الإغريق سناً في حرب طروادة. يبرهن على حكمة مصحوبة بالثرثرة. ويستحضر طوعاً وبحنين مآثرَه الغابرة.
* نوتوس Notos: ريح الشمال، حار ورطب.
* نوسيكا Nausicaa: ابنة ملكِ فياسي وملكتِها، تقابل أوليس وتنصحه وتقوده ليستقبله أهلها، تفكر بأنه قد يكون زوجاً صالحاً لها.
* نوكس Nux: الليل، ابنة عماء.
* النومفاي Numphai أو النيمفات Nymphes: بنات زيوس، إلهات شابات يحركن الينابيع والأنهار والغابات والأرياف.
* النيريدات Néréides: البنات الخمسون لنيريه إلهِ البحر ودوريس ابنة أوسيان. يعشن في قصر أبيهن في عمق الماء، لكنهن يظهرن أحياناً وهن يلعبن في الأمواج.
* نيريه Nérée: ابن جيا وبونتوس Pontos. يسمى «عجوز البحر». ينجب مع دوريس إحدى بنات أوقيانوس النيريدات الخمسين.
* نيكتيس Niktéis: ابنة شتونيوس أحدِ الإسبارطيين، وزوجة بوليدوروس Polydoros وأم لابداكوس.
* نيكتيه Niktée: ابن شتونيوس وأحد الإسبارطيين، وأخو ليكوس.
* نيميزيس Némésis: إلهة منتقمة. ابنة ليل. يجامعها زيوس رغماً عنها، هي في صورة إوزة وهو في هيئة تَمّ. تبيض بيضة ستتلقاها ليدا هديةً.
* الهاديس Hadés: ابن كرونوس وريا ككل الأولمبيين. هو إله الموت الذي يحكم عالم الظلمات.
* الهارْبيات Harpies: أمساخ إناث بأجسام طيور ورؤوس نساء. يهاجمن الرجال ويغتصبنهم. ويجعلنهم يختفون دون أي أثر.
* هارموني Harmonie: ابنة آريس وأفروديت وزوجة قدموس.
* هرمس Herms: ابن زيوس والحورية مايا Maa. هذا الإله الشاب الرسول يتعلق بالحركة والعلاقات والمعاملات والممرات والتجارة. يعيد ربط الأرض والسماء، والأحياء والأموات.
* هستيا Hestia: إلهة المنزل، وهي الأخيرة بين الأبناء الذين ابتلعهم كرونوس، والأولى في الخروج من جوفه عندما أُجبر على تجشُّئهم.

* هوراي Horai، أو هورس Heures: ثلاث بنات لزيوس وتيمس، أخوات الموار Moires. إلهات الفصول التي يقدن مسيرها المنتظم.
* هوميروس Homère: مؤلف الإليادة Illiade والأوديسة Odysse.
* هيبنوس Hypnos: تجسيد للنعاس، ابن ليل وايريبوس، وأخو تاناتوس Thanatos، أي الموت.
* هيبودامي Hippodamie: ابنة أونوماوس Oenomaos ملكِ إيليد Elide. كان أبوه يُصرُّ على طالبيها أن يتغلبوا عليه في سباق عربات كانت هي الجائزةَ فيه للموافقة على خطبتها.
* هيبيرونور Hyperenor: أحد الإسبارطيين الخمسة.
* هيرا Hera: زوجة زيوس.
* هيراكليس Héraclés: البطل ذو الاثني عشر عملاً. أقرباؤه البشريون هم أمفيتريون Amphitryon وألكمين من نسل بيرسيه. أبوه الحقيقي هو زيوس.
* هيزيود Hésiode: شاعر بليد الذهن. مؤلف تيوغونيه Théogonie، والأعمال، والأيام.

هيفايستوس: Héphaistos ابن زيوس وهيرا وربّ مهنة التعدين.
* هيكات Hcate: ابنة التيتانات، هي إلهة القمر. تحظى باحترام خاص من زيوس.
* الهيكاتونشيرات Hekatonchires: أو المئة ذراع، ثلاثية أولاد من جيا وأورانوس، وهم كوتوس وبرياريه، وجييس، عمالقة بخمسين رأساً ومئة ذراع وقوة لا تقهر.
* هيكوب Hécube: زوجة بريام ملك طروادة وأم هكتور Hector.
* هيليوس Hélios: الإله الشمس.
* هيميروس Himéros: تجسيد الرغبة العشقية.
* هيميريه Hémeré: ابنة ليل. تجسد ضوء النهار.

الفهرس

الكون والآلهة والناس

حكايات التأسيس الإغريقية

إن انتصار زيوس لم يضع حداً جذرياً لما يمثله تيفون بوصفه قوة عمائية في الكون؛ فقد أبعدته الآلهة الأولمبية عن فلكها الإلهي، ولكن إلى عالم الرجال حيث ينضم إلى الفتنة والحرب والموت. وإذا كانت الآلهة قد طردت من ساحتها كل ما ينتمي إلى العالم البدئي وإلى الفوضى فإنها لم تمنعه، بل أبعدته عن نفسها فحسب. وها هو تيفون الآن يجتاح عالم الناس بعنف شديد يتركهم محرومين من كل شيء. إنه داء دون دواء لا تجدي معه، حسب تعبير الإغريقيين، أي استغاثة.

الناشــــر

الغلاف: سندباد